



الأبنـاء والأرواح المعطوبة



تأليـف: ألبير جانيكوز
ترجمة: محمد سلطان



الأبناء والأرواح المعطوبة



تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد



الأبناء والأرواح المعطوبة

تأليـف: ألبير جانيكوز
ترجمة: محمد سلطان

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٤م

العنوان الأصلي للكتاب:

Oğullar ve Rencide Ruhlar

الكاتب: **ALPER CANIGÜZ**

الناشر: **İletişim Yayıncılık A.Ş,2014**

المترجم: **محمد سلطان**

الأبنـاء والأرواح المعطوبـة / تـأليف ألبـير جـانيكوز؛ ترجمـة مُحمَّـد سـلطان.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٤م.- ٢١٦ص؛ ٢٥سم.

(المشروع الوطني للترجمة؛ الرواية العالمية؛).

١- ٨٩٤,٣٥ ج ا ن أ ٢- العنـــوان ٣- جـــانيكوز

٤- سلطان ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

- ١ -

أكون وألّا أكون

سن الخامسة هو أكثر المراحل نضجاً لدى الإنسان؛ ثمّ يبدأ التعفن.

أنا ألبير كامو، دخلت سن الخامسة قبل عدة أشهر. مع اقتراب عيد ميلادي، كنت أقضي الجزء الأكبر من وقتي أمام النافذة أراقب الناس في الخارج. كانوا يواصلون حياتهم مسرعين ومبطئين ومصدرين أصواتاً مختلفة وناظرين إلى مكان ما. كان يمرضني مجرد التفكير بأن يوماً من الأيام سأصبح بحالة واحد منهم. للأسف لا مفر من ذلك. كان الزمان ظالماً، وكنت أهرم بسرعة.

الشيء الجميل الوحيد في حياتي أنه لم يعد من الضرورة الذهاب إلى الروضة. رب ضارة نافعة. أساساً حاولت مطولاً أن أشرح لأمي ولأبي أن الروضة ليست بالمكان المناسب لي. وقدمت كل الأدلة العقلانية. للأسف لم تنفع بشيء. لا بد لي أن ألجأ إلى أساليب مثل التخبط جاهداً خلال نومي، وأن أصاب بنوبة عصبية صغيرة المدى عندما تصل حافلة النقل إلى أمام الباب كي يفهموا مشكلتي. إنها رذالة. يجعلون المرء يخجل من نفسه.

أساساً عندما بدأت في الروضة لم أكن أملك أدنى حكم مسبق جيد كان أو سيئ حول هذه المؤسسة. ولكن ها أنا قد بدأت بدايةً تعيسةً. استفرغت بعد أن صافحت السيدة المديرة ومعلمة صفي وبقية الأولاد في الدار فرداً فرداً. خجلت أمي كثيراً ولكن تصرفت معلمتنا بتفهم. شرحت أمي لي أنه يجب تقبل الشعور بالقليل من التلبك في أول يوم كأمر طبيعي، وأنها تكررت حالات كهذه كثيراً. ليتها لم تجعل تسريحة شعرها كالعقيصة بهذه الطريقة الغريبة. ربما حينئذ كنت سأصدقها أنا أيضاً.

أي شيء يستمر كما بدأ. لم أستطع الاستئناس بالروضة. كان يمضي الجزء الأول من اليوم عادة بتلقين معلمتنا لنا معلومات سخيفة مثل ماذا ينمو في الصيف؟ وماذا يطهى في الشتاء؟ والأمر السيئ أنها كانت مصممة على تنفيذ الدرس بطريقة المشاركة، وكانت تنتظر منا التعليق حول المواضيع المملة التي كانت تفتحها. كنت لا أرفع رأسي من أمامي خوفاً من أن تطرح عليّ سؤالاً ما. كما كان هناك فقرة الغناء. كان يتكون رصيدنا المسرحي من المقطوعات المؤلفة من قبل أسوأ الموسيقيين في العالم من أجل المعتوهين الصغار القابلين للتعليم. وصراحةً كانت المواهب الموسيقية لزملائي في الصف أدنى من مستوى حماستهم بكثير. وأنا بطبيعة الحال بسبب رفضي المشاركة في هذا النشاز المستمر، كانت المعلمة تنده باسمي عند وقفات الأغنية ظناً منها أن تحفزني على الفن. كنت كما لو أنني سأنزل إلى أسفل الأرض من شدة خجلي. كان يراد مني أنا الذي أسمع "شوستاكوفيتش" في المنزل أن أصرخ "كستناء، زان، ضرم"(١). لحسن الحظ أن قلة اجتماعيتي وملامحي التي تعكس العواصف التي تدور بداخلي إلى الخارج، حكمت المعلمة علي أني مختل عقلياً، فأعتقتني.

كما أن قيلولة ساعتين في الظهيرة لم تكن تفرق عن عذاب جهنم. وضعت في الطابق الوسطي من السرير ثلاثي الطوابق. لم أستطع النوم دقيقةً واحدةً هناك. بقيت طيلة خمسة أشهر أنظر إلى الوجوه المخيفة التي وجدتها على اللوح الخشبي المضغوط أعلى رأسي والتي لم يلاحظها أحد غيري. كما أني كنت أموت من العطش. لأنهم لم يكونوا يقدمون الماء لنا قبل الظهيرة كيلا نتبول في فراشنا. كان الجميع ينام مطلقين الفساء. كنت أمتلئ بالنوائب في هذه المقبرة التي دفنت فيها حياً. عندما كانت تدخل المعلمة الغرفة بعد ساعتين وهي تهز جرسها، كنت أتظاهر أني أستيقظ متمطمطاً.

---

(١) أغنية للأطفال. [المترجم].

بعدها يحين دور أكثر الفعاليات حباً لدى الأولاد وهي وقت اللعب. ما إن يفتح باب غرفة الألعاب حتى يهجم الأطفال على الغرفة المليئة بأطوابها وكراتها وسياراتها الملونة الباهرة بالفعل والعديد من الألعاب الأخرى. في حين كانوا يرمون أعباءهم، كنت أنا وعدة بنات سخيفات فقط نأخذ مكاننا على رأس طاولة الأعمال اليدوية. كانت المعلمة تعلمنا نحن الطلاب الهادئين المزاجيين حرفة صناعة الأطواق من أوراق الروزنامة. مع اقتراب عيد الأم أصبح دخول كامل الصف إلى درس الأشغال اليدوية ضرورياً لعدة أيام. كي يتمكن الجميع من صناعة طوق من أوراق الروزنامة كهدية لأمه. في النتيجة كنت الطفل الوحيد الذي لم يتعلم صناعة الطوق. طبعاً لم يستغرب أحد هذه الحالة. أعطتني المعلمة الطوق الذي صنعته هي كنموذج كي آخذه لأمي (أعتقد أنها خططت لهذا منذ البداية)، ولكني رفضت هذا العرض بلهجة قاطعة. ورأت المعلمة الضرورة بإعلان الوضع على كامل الصف. «صديقكم لن يقدم هديةً لأمه يا أصدقاء». أردت الموت حينئذ. التقطت هذا الشيء الساذج من يدها قبل أن تطيل القضية أكثر. فأغلقت تلك العاهرة فمها.

تحدثت لأبي وأمي عن موضوع عطشي وهما بدورهما أتيا وأبلغا السيدة المديرة بالوضع. بناءً عليه تفضلت السيدة المديرة برفع حقي من الماء فترة وجبة العصر من نصف كأس إلى كأس كامل. للأسف لم تنفع هذه الآلية الجديدة سوى أنها جعلتني أشعر بسوء أكثر. كنت أجلس أسفل طاولة الطعام على طرف الجدار، ولم أكن أتمكن من الوصول إلى كأس الماء هذه المتميز فيها من الجميع والتي كانت تمد إلي. في حين كنت متقوقعاً في ركني، كان المعلمة تضطر إلى القول: «خذ ماءك يا بني» محاولةً إنقاذ كأسي من أيدي زملائي المشاغبين. كما أنهم، لا كثّر الله خيرهم، زادوا من استحقاقاتي في البسكويت دون وجود داع لذلك. ثلاثة للجميع وخمسة بسكويتات لي. «خذ طبقك يا بني!»

على أية حال. هناك حادثة أخرى عشتها في هذه الجحيم، إن الأضرار الناجمة في روحي التي سببها كل ما قصصته، تبقى صفراً على الشمال بجانبها. إن

الشيء الوحيد الذي لفت انتباهي كان يقف هناك في زاوية من زوايا غرفة الألعاب في الروضة: بيانو ناصع اللمعان بذيله الأسود. كان يأتي في كل مساء من يوم الجمعة هدهد جعل من نفسه مدرساً واضعاً علبةً من جل الشعر على رأسه مرتدياً ذات البدلات من ذات المزبلة ليعطي من يريد من الأطفال -ومن تكفي حالة والديه المادية- درس بيانو لمدة ساعتين. بطبيعة الحال لا شأن لي بذلك. أولاً، كانت كلفة الدرس باهظة جداً؛ ثانياً، كان الرجل يعزف بيانو بشكل رديء جداً. مع ذلك كنت أشعر برغبة لا تقاوم كي أضغط على أزرار هذه الآلة الباهرة. لا أعلم كيف تحولت هذه الرغبة إلى هاجس لدي؛ إذ دخلت خلسةً في أحد الأيام خلال فترة قيلولة الظهيرة غرفة الألعاب. اقتربت إلى جانب البيانو بهدوء، ورفعت الغطاء الذي يغطي لوحة المفاتيح. كنت سأتغوط بسروالي من شدة تلبكي. كان قلبي يخفق بشدة، ويداي ترتجفان. مررت أصابعي فوق الأزرار. كنت سأضغط على مفتاح واحد فقط كيلا يستيقظ أحد على أصوات الضجيج. كان سيكون هذا المفتاح أسود أو أبيض. أسود. بالطبع. تأوهت روحي قائلة "رادييز" مثل كلب شوارع مركول. انهمرت دمعة من عيني. من عيني اليسرى. في تلك الأثناء شعرت بدمدمة، والتفت إلى الخلف. كان عريف الصف السمين واقفاً يشاهدني بشهوة سادية من النوع الذي لدى الأطفال فقط. هز باتجاهي أحد أصابعه التي تشبه محشي الضولمة[1]. «سأشكوك!» كان يريد مني محاولة تلفيق كذبة بائسة كي يتمكن من الضغط علي أكثر. دفعت بهذا الدب، وهربت إلى الحمام. لم تقل المعلمة شيئاً بهذا الخصوص، ولكن أستطيع قراءة عينيها أنها علمت به. أقسمت ألّا أطأ قدمي إلى هناك مرة أخرى. وبعدها، كما قلت سابقاً، بدأت الأحاديث المصابة بالجنون في المنزل وما شابه.

طرحت أمي فكرة إرسالي إلى روضة أخرى. لم تكن تريدني أن أبقى في المنزل وحدي عندما تكون هي وأبي في العمل. لا أعلم ما سبب انجرارها خلف

(١) الضولمة: وجبة تركية منذ العهد العثماني وتتضمن سلق أو كرنب محشي بالرز. [المترجم]

الاعتقاد الغريب أني سوف أتناول جميع الأدوية في المنزل وأقتل نفسي. من يرتكب حماقة كهذه؟ في حين توجد إمكانية أن يرمي نفسه من النافذة إلى الأسفل. إنهم يتوهمون قضايا لا أساس لها. لأسباب تطورية. لن أدخل في التفاصيل. أما والدي، فقد كان واضح عليه أنه مدرك لحقيقة أن ذهابي إلى الروضة هذه أو تلك لن يغير شيئاً، وكان يدافع عن فكرة أن بقائي في المنزل وحيداً لن يشكل أي مشكلة. من يدري، ربما كان يريد، ضمنياً، التخلص من مصاريف الروضة. ولكن ما كنت مستاءً منه لذلك أبداً. في النهاية موظف الدولة لا لحم له ولا عظم. فليخجل أولئك الاستغلاليون القذرون الذين يطلبون نصف المعاش كي يعذبون أبناءهم. وأيضاً أولئك الذين يرون أن هذا المعاش يليق بهم. في النهاية أعلن أبي قراره الذي أنهى الموضوع وبشر بخلاصي: «اللعنة على آباء الروضات وأجدادهم!»

أستطيع القول إن أيام الأسبوعين أو الثلاثة اللاحقة الذين قضيتهم في المنزل دون وجود أناس يتجولون حولي ويحشرون أنفهم في عملي، هي أفضل أيام حياتي. كنت أستيقظ باكراً، أتناول الفطور، وأقرأ الكتب حتى وقت وجبة الغداء. دوستويفسكي، أوغوز أتاي[1] إضافةً إلى نيتشه بمنزلة المقبلات. (إني أمزح بالطبع، إنه رجل مكتنز عريض الشارب. إنه أمر مبهر أن يجعل الخوف الإنسان خلاق ومبدع إلى هذه الدرجة!) أما بعد الظهيرة، فكنت أقضي وقتي مع أصدقائي أو تحت الأريكة. وهكذا كنت أنسى الوقت.

بعدها حصلت مصيبة. عيد الميلاد ذاك. بينما كنت جالساً أعيش الحداد لأني بلغت سن الخامسة، غضبت كثيراً على أمي وأبي لأنهم أعطوا هذه المناسبة صبغة الاحتفال. طبعاً كنت مهماً بالنسبة لهم. برأيهم كانوا يحاولون إسعادي، ولكن أليس من المفروض عليهم أن يفكروا قليلاً أكثر من ذلك؟ ربما قلت لهم ألف مرة كم أشمئز من عادات البرجوازية الصغيرة هذه. ففي النتيجة امتلأ

---

(١) أوغوز أتاي: رائد في الرواية التركية الحديثة. [المترجم]

منزلنا بالأقارب والجيران والمعارف الذين لم أكن أريد رؤية وجوههم. وجميعهم جلبوا عدة أشياء قميئة بقصد الهدية. أعجبني فقط المسدس ماركة "دالاس كولد" الذي يرمي طلقات مطاطية بقوة معقولة والذي جلبته الخالة كونول صديقة الطفولة لأمي والتي قضت حياتها في غرفة السجلات في شعبة التجنيد. إن الغلاف المهدب وقبعة راعي البقر "الكوبوي" ونجم ضابط شرطة تكساس أشياء مثيرة للسخرية، أما هو فكان مختلفاً. كانت أمي قد قالت لي بلهجة خجولة إنه بإمكاني دعوة أصدقائي في الحي، ولكن لم أخبر أحداً منهم، لأني لم أكن أريدهم أن يروا هذه المهزلة.

إن الشخص الوحيد من بين الحاضرين الذين سأشعر بسرور لوجوده هي الأخت أليف جارتنا التي تسكن مع أمها في الكتلة التالية بالشقة الملاصقة لشقتنا. في الظاهر بعد أن أرسلت أمها السيدة رمزية زوجها إلى الآخرة، دخلت بعلاقة وثيقة مع جماعة "العياذ بالله". كان يأتي العديد من الرجال الذين أكل الدهر عليهم وشرب لزيارتها كي تخرج الجنان منهم[1]، وتسكب الرصاص لهم. كانت الأخت أليف بحدود العشرين عاماً من عمرها. كانت تدرس في التعليم المفتوح. إدارة أعمال. لا أعلم ماذا كانت ستدير. ربما كنت أشعر بالتقرب منها لأنها وحيدة أهلها مثلي أنا. وربما لأنها كانت النجوم تنزلق في عيونها المتألمة. كنت أراها أحياناً في شرفة منزلهم حين كانت تنشغل بأزهارها. كانت تفرش أوراق الصحف على الأرض، وتسكب فوقهم كيساً كبيراً من التراب. وبعدها كانت تملؤهُ في أصائص مستخدمة آلات بستنة مختلفة، وتضع بذور الأزهار بداخلها. حينها أتظاهر بأني خرجت إلى الشرفة بالمصادفة. كنا نبدأ بالتحدث. كانت تحب القراءة ولكنها غالباً كانت تقرأ كتباً مبتذلة. كانت تتلو لي قصصاً غبيةً أعرفها مسبقاً مثل "فلة" و "هانسل وكريتل". لم أكن أعترض. كان يعجبني سماعها منها. من ناحية أخرى كنت أشاهدها كيف كانت تغمر بذور الأزهار في

(١) جلسات إحضار الجن. [المترجم]

الأصائص بأصابعها الناعمة. على أي حال. كنت أكره الرومانسية. ربما بسبب المرارة التي يخلقها معنى وأهمية الحياة، ربما بسبب الخزي الذي أشعر به كوني كنت بطل هذا التنظيم البهلواني، لم أقترب كثيراً من جانبها بعيد ميلادي. وهي بدورها غادرت بعد أن جلست نحو نصف ساعة. وكأنه لو أبديت اهتماماً سيتغير الحال؟ غضبتُ بالكامل عندما ذهبتُ، وانسحبت إلى زاوية، وبدأت أتجهم. كنت أظن أني أخفيت ضعفي تجاه الأخت أليف بنجاح كبير، ولكن على ما يبدو أن أبي، الذي لطالما اعتقدت أنه المسؤول عن نزعاتي الطبيعية، قد أدرك الوضع. جاء إلى جانبي وقال: «حسناً، السنة القادمة ستصبح أنت أيضاً في المدرسة مثل الأخت أليف». أيها الماكر. باعتقاده أنه سيستغل الوضع وسيجعلني أشتهي المدرسة. وكأني كنت غبياً لدرجة أنني لا أستطيع رؤية أن هذا الشيء سيباعدنا أكثر.

كنت قد وصلت إلى نقطة الانفجار بسبب الضجر إلى أن اقترب مدير والدي السيد أردوغان إلى جانبي. إنه رجل أخرق يرتدي نظارات ملونة، ويملك شارباً رفيعاً بين شفتيه وأنفه لا يليق به أبداً، مربوع وليس لديه رقبة. إن أبي يكره هذا الرجل كثيراً. على ما يبدو أن أمي من دعته والتي كانت تعمل مع أبي بنفس الدائرة الحكومية ولكن في قسم آخر. لطالما كانت علاقة أمي جيدة مع السلطة. أساساً لم يكن يمتلك السيد المدير الهيئة التي توحي بأنه يتنازل لتلبية دعوات الموظفين. لم يكن ليشرفنا بزيارته إطلاقاً لولا أنه حل موضوع الفحص الطبي لوالدته، مريضة وسواس المرض، مجاناً عن طريق ابن خالتي الذي يعمل عميداً في المستشفى الجامعي. داعب رأسي ضاحكاً بتكشيرة. «قل أيها الصغير، ماذا تريد أن تعمل عندما تكبر؟»

«أفكر القيام بزراعة الأزهار في جهنم».

سحب يده فوراً من على رأسي. وبعدها انقلع وحل عن رأسي. بدأ بالحديث في زاوية مع شخص سخيف آخر لا أعلم من أين نبع. إن أحد رفاق

ذلك الشخص السخيف الآخر كان يريد أن يحصل على وظيفة حكومية، ولكن لأنهم يقبلون أصحاب "الواسطات" لم يتمكن من النجاح في الامتحانات، كذا وكذا. ولم يكن يهمل، عند كلامه على ذلك، زج مصطلحات انتفاع ضمن الحديث. من يدري كيف كان السيد أردوغان منتظراً منفعة حيث كان ينقبض عندما أخذ اسم وكنية الشخص المذكور: طوغرول تانير. كانوا يثيرون اشمئزازي.

في اليوم التالي لم أنهض من فراشي حتى الظهيرة. لم أكن أجد القوة في نفسي لمواجهة العالم. حينئذ رن الهاتف مطولاً، ولم أتمالك نفسي وأجبت عنه. كان المتصل هاكان: إنه الشخص الوحيد من الحي الذي تستلطف أمي صداقتي به. إنه ابن عائلة جيدة. سألني بصوت خجول: «كيف حالك؟»

«كنت نائماً».

«ويحك! أنا عدت من المدرسة منذ ساعة».

«يا لهذا الإنجاز الزفت». كان هاكان قد بدأ بالابتدائية للتو، وعمل على إتقان القراءة والكتابة بكامل قوته. ولكن، لم يكن ينجح بذلك لأنه كان أحمقاً. بحسب اعتقادي كان سيطلب مني أن أدرسه.

قال: «تعال إلينا، أمي أعدت فطائر لذيذةً جداً. كما أنه بإمكاننا أن ندرس قليلاً...»

كنت جائعاً جداً، وكنت أستصعب وضع المائدة وإعادتها. قبلت. بعد خمس دقائق كنت عندهم. استقبلتني أمه بفرح مبالغ فيه. كوني سأساعد ابنها.

«هيا يا هاكان اذهبوا إلى غرفتك. أنا سأجلب الشاي والفطائر لكم. ولكن لا تصدروا صوتاً عالياً، لقد أنمت الطفلة حديثاً».

مع دخولنا الغرفة أخذ هاكان مكانه عند طاولة الدراسة حيث يوجد كتاب مفتوح غلافه ودفتر. «إن هذا صعب جداً يا رجل!»

نظرت إلى الشيء الذي يقول عنه صعب. إنه مسودة كتاب باسم "أويا وكايا". ثماني صفحات بالمجموع. يوجد في النصف الأعلى من كل صفحة رسومات ملونة للأطفال البلهان أويا وكايا مصورة عند رأس البحيرة. وأسفلها مباشرةً كتابة من خمسة أو ستة أسطر مكتوبة بأحرف مثل النعال. سألت بضيق: «وما هذا؟»

«أعطتنا المعلمة وظيفة. سنقسم المصطلحات إلى هجاءاتها».

«لماذا لا تطلب المساعدة من والدتك؟ لا أعتقد أنه أمر صعب بالنسبة إليها».

قال متجهماَ وجهه: «ليس لديها وقت أبداً. إنها تهتم بالطفلة طيلة الوقت». كان هاكان يغار من أخته التي ولدت منذ ثلاثة أشهر.

قلت: «أنا لا أعرف تقسيم المصطلحات إلى هجاءاتها». فعلاً لم أكن أعرف.

«كم أنت كاذب يا هذا! إذن كيف لك أن تقرأ كل تلك الكتب الضخمة؟»

«أعرف القراءة، ولكن لا أعرف هجاء المصطلحات، هل هذا واضح؟»

أصيب بخيبة أمل كبيرة. كنت مدركاً أنه كان يريد معارضتي، ولكن لم يتمكن المسكين من إيجاد المخزون اللازم لذلك بسبب ضعف رصيده من المعلومات. قال بغضب: «عيونك مليئة بالرمص[1]».

تفقدتها. كان كلامه صحيحاً. «خرجت من المنزل دون غسل وجهي ...»

«يجب ألّا تخرج من المنزل أبداً دون أن تغسل وجهك».

«ولماذا ذلك؟»

كان يريد الغبي أن يعطيني درساً، فانبرى بسرعة: «لأنه يأتي الشيطان ليلاً أثناء نوم المرء ويلعق وجهه».

---

(١) الرمص: وسخ أبيض لَزِج يكون في مجرى الدَّمع من العين. [المترجم]

«من أين تعلمت هذا؟»

أجاب بتبختر: «المعلمة من قالت ذلك».

قلت: «معلومات معلمتك خاطئة، إن الشيطان يأتي ليلاً بالفعل، ولكنه لا يلعق وجه الإنسان بل قضيبه».

«دعك من هذا!» وقد وضع يده أمام سرواله لا إرادياً. إنه ساذج إلى هذا الحد. إنه يصدق كل ما أقوله.

«بالطبع. ألا تشعر أحياناً عند المساء دغدغة بالشيء الذي لديك؟»

«نعم، نعم... تحصل أشياء كهذه».

«ها هو، اعلم حينها أن الشيطان على رأس عمله. يجب أن تنهض فوراً، وتضع التهيج تحت ماء بارد كالثلج».

تنهد بضيق. من الواضح أن العضو كان يحب الحكة عند تدغدغه. دخلت أمه إلى الداخل في تلك الأثناء، وفي يدها طبق. كانت رائحة الفطائر تفتح الشهية. انحنيت فوراً نحو الطبق الذي وضع أمامي. «سلمت يداك خالتي نيرمين. إنها لذيذة جداً».

«بالصحة والعافية يا بني. كيف الحال؟ هل يدرس هاكان بشكل جيد؟»

قلت: «جداً. بل تعلم أشياء مفيدةً عديدةً في المدرسة».

لا يمكنني وصف كم فرحت المرأة. «لا تقلق. في السنة المقبلة أنت أيضاً ستتعلمها كلها».

«نعم».

«كما أن طفلاً ذكياً مثلك يتعلم أشياء أكثر...»

صرخت لاطماً الطاولة بمقبض سكيني: «قلت نعم». أعترف، كانت ردة فعل مبالغاً فيها. ولكنها أجادت نفعاً. صمتت وغادرت الغرفة بعبارات أشبه بالخوف في عينيها.

قال هاكان، الذي بقي دون أن يلمس فطيرته، بحزن عميق: «لن تدعني أمي أنزل إلى الشارع إن لم أنه واجباتي المدرسية. كما تعلم، فلدينا مباراة مع "شارع يابراك"».

كان هاكان حارس مرمى فريق الحي لكرة القدم. وكان جيداً للغاية. قلت: «أعطني هذا الكتاب لألقي نظرةً. ولكن أعود وأقولها. إني لا أجيد الأمر».

قال هاكان بفرح: «مهما كان، فستجيده أفضل مني».

«إذاً أعذر من أنذر». أمسكت بقلم رصاص، وبدأت بتقطيع النص عشوائياً. أثار ضحكي متابعة هاكان لي باهتمام رغم عدم فهمه شيئاً. لم أتمالك نفسي وضحكت. كانت أول مرة أضحك فيها ذلك اليوم. وضعت إحدى يديّ على رقبته بقوة وداعبته. «يا أخي الغالي».

سأل مبتسماً بغباء: «ماذا حصل؟»

فقلت: «لا شيء، لا شيء. لنعد إلى عملنا».

بعد أن خرجت من منزل هاكان، مررت ببناء "كوزيل يايلا". كالعادة كانت تتصاعد، من الشقة الرابعة في الطابق الأرضي، أصوات موسيقا صاخبة جداً أشبه بالصادرة عن أسلحة آلية أكثر من كونها صادرة عن جيتارات. كانا المستأجران هنا شابين ذوي شعر طويل، ويلبسان القرط ويلقبان أنفسهما باسمي "أركين" و"كوراي"[1]. نظرياً كانا شخصين، ولكن كان يبقى في المنزل دائماً، بحسب تعبير أمي "العديد من الذكور والإناث الطائشين المشكوك في أمرهم". كانت هذه النماذج على شجار دائم مع جيرانهم. كانت شكواهم في الظاهر الضجيج ولكن بالنسبة إلي كانت مشكلتهم الأساسية هي اعتقادهم أن هؤلاء الشبان يستمتعون بالحياة. برأيي كانوا مخطئين جداً. فقد راقبت هؤلاء أركين

(١) أركين كوراي: مغني روك تركي ويعد من مؤسسي موسيقا الروك في تركيا. [المترجم]

وكوراي كثيراً، عند سيرهم في الشارع، وعند شربهم المشروبات الغازية عند البقال. كانا يتحدثان دائماً حول شيء ما، ويطلقون القهقهات بعد كل مصطلح؛ وفي غالب الأحيان على الكلمات التي كانت تخرج من أفواههم. لا أعتقد أنهما كانا يحاولان فهم بعضهما بعضاً أو فهم أي شيء آخر. فقط كانا يضحكان بغباء. هكذا يكون الناس الذين يطلق عليهم مصطلح العبثيين. بالنسبة لهم الضحك هو نوع من المخدر، نوع من الضجة التي تمنعهم يشعرون بالصمت الموجود دائماً خلسة. إن الضحك يحميهم من مواجهة الحياة. ما أريد قوله، كانوا نماذج ضائعة مشوشة الرأس. صراحة لم أكن أبني الآمال عليهم. بعد عدة سنين سيدركون كم كانوا غريبين بالضحك على العشب والبراز، وثم سيستمرون بالاعتقاد كم كانوا مختلفين "في الأساس" ليخطوا خطوةً إلى طبقة حياة متوسطة بائسة.

كما توقعت، وجدت جلال فقير الدم وجمال الدين يلعبان الدحاحل في الحديقة الخلفية للمبنى. أساساً لم يفترقا قط. إن جلال، ألا يقولون "كيس من العظام؟" كان نموذجاً كهذا. كان بصحة ضعيفة، صاحب وجه أبيض، وصوت أجش، وشعر مثل الفرشاة. يعمل والده بمهنة رش المبيدات. لا أعرف ماذا يرش، ولكنه يذهب إلى العمل ويأتي بدراجته النارية. وفقير الدم هذا مولع بالدراجات النارية. تعرض كثيراً لضربات عصي لأنه عبث بالدراجة. أما جمال الدين فقد كان أحد الأبناء الثلاثمئة وخمسين ألفاً لعائلة البواب في مبنى "كوزيل يايلا". دائماً ما يمتد من شفته العليا نحو فتحتي أنفه طريق رطب. تظنون أنه يوجد في الداخل عش حشرة البزاق. يعيش مع أمه وأبيه وأخوته في منزل صغير مثل مستودع خرابة في إحدى زوايا تلك الحديقة. ولكن الحديقة كانت رائعة. إن الغرف الصغيرة المتلاصقة، التي تبدأ اعتباراً من الطرف اليميني بالنسبة للمدخل وترسم الحدود المقابلة للحديقة، تضيف الإثارة على ألعابنا الحربية الوحشية. ألقينا الكثير من أعبائنا على سطح هذه المنشأة بارتفاع مترين التي كان يستخدمها سكان المبنى كمستودع فحم قبل إنجاز تمديدات تدفئة الغاز الطبيعي. إن منشأة

صغيرة شبيهة بهذه، تتألف من أربعة غرف تبدأ مباشرةً من خلف القسم الخلفي لمنزل عائلة جمال الدين وتمتد نحو وسط الحديقة. إنها لعبة أطفال صغار اجتياز الأسلاك الشائكة فوق الجدار المقابل لمستودع الفحم والوصول إلى حديقة الجيران التي تغطيها الأعشاب البرية، من النوع الذي يصادف وجوده في المقابر المهملة، التي يصل طولها من طولي في بعض الأماكن. ولكن فقد هذا العمل شعبيته بيننا منذ مدة من كونه فعالية شعبية. إن سبب ترددنا هو السيد روحان غريب الأطوار الذي جاء وسكن في المنزل الخشبي المهترئ المؤلف من ثلاثة طوابق الموجود في وسط هذه الحديقة الضخمة، والذي يدعونه الأولاد بشكل مبالغ به "بالقصر". كان رجلاً بحدود الأربعين عاماً بشعره الأشهب وشاربه الضخم وهيئته الضخمة الغليظة. كان يركب شاحنته الأثرية بلباسه الرسمي الذي يبدو عليه كالأمانة، ويذهب في ساعات الصباح الباكر ويعود في وقت متأخر من الليل. كان يغلف نصف نوافذ بيته بأوراق الجرائد والورق المقوى. كما أنه لم يشاهد أحد منا مجيء أي ضيف إلي المنزل. في النتيجة، كان نموذجاً موحشاً من كل النواحي. وقررنا بشكل غريزي أنه من الأسلم البقاء بعيداً عنه.

كان جلال فقير الدم وجمال الدين أولاد حرام المنطقة. كانا يسخران مني كثيراً عند بداية انتقالنا إلى هنا السنة الماضية. في الحقيقة لم أكن أكترث كثيراً. كانا يريانني على أني "ابن مهلبية"(١). ربما كانا محقين. رأيتهما في أحد الأيام يتعرضان لمجنون الحي أرتان. كانا يدوران حول هذا المسكين مطلقين صرخات مقرفة ويوخزانه من هنا وهناك بالأعواد التي بيديهما. جن جنوني عند رؤية هذا المنظر. وصرخت قائلا: «دعوا الرجل وشأنه». نظر إلي جلال فقير الدم وقال لي بصوت أجش: «ما علاقتك. هل أنت محاميه؟» رددت عليه على النحو: «لا داعي أن أقبض النقود من أحد كي أقول ما أراه صحيحاً». طبعاً لم ينفع ردي هذا سوى أنه جعلني أقع بالكامل بموقع "ابن المؤخرة" بنظرهم. سار جمال الدين نحوي،

(١) مصطلح "ابن مهلبية": تستخدم في اللغة التركية للدلالة على سذاجة الشخص. [المترجم]

وبدأ يلوح عوده اتجاه أضلاعي. سحبت هذا المتسكع من يده وأبرحته أرضاً. بعدها انقضيت على حلق جلال فقير الدم. لم يأخذ من وقتي جعلهما تحت قدميّ أكثر من دقيقة واحدة. لا أعلم من أين اكتسبت هذه المهارة ولكني أقاتل بشكل جيد. سألتهم: «هل تستسلمون؟» وركبتاي فوق ظهريهما. قالوا: «نستسلم» فقمت من فوقهما. قلت: «لا أريد أن أراكما تعبثان مرة أخرى مع أرتان». انقضا علي عندما فتلت ظهري. تخلصت من أيديهما، ولقّنت أولئك السفلة درساً مرةً أخرى. هذه المرة لويت معصميهما حتى سالت الدموع من عيونهما، وقبل أن أتركهما جعلتهما يقسمان على ألّا يغدرا مرة أخرى. بدآ يكنان الاحترام لي بعد هذه الحادثة. علاقتنا الآن تعتبر جيدة ولكن أعرف أنه في حال سنحت لهما الفرصة لن يرحماني. أي أنهما ليسا نماذج موثوقة. ليست بمشكلة، على الأقل إنهما يعكسان الطبيعة الإنسانية بشكل جيد. كما أنهما ولدان ممتعان ومسليان للغاية بجميع أحوالهما. أتساءل أحياناً، يا ترى هل هما مدركان أنهما محكومان بالخسارة في الحياة؟

صاح جلال فقير الدم، الذي لم يتمكن من إصابة أي واحد من الدحاحل العشرة المصفوفة بعضها بجانب بعض من مسافة نصف متر: «يا للعجب!» بعد أن نفذ جمال الدين ضربته قفز من مكانه، وركض باتجاه الدحاحل، ساحباً مخاطه. من الواضح أنه كان يخشى أن يلتقطهم جلال فقير الدم ويهرب بهم. إني معجب بهما كثيراً. إن علاقتهما مبنية على عدم الثقة اللامتناهية. إنه مشروع لكليهما أن يقوما بأي نوع من أنواع الغدر بعضهما اتجاه بعض بأي لحظة من اللحظات. ليس هناك أي زعل أو استياء. فيهما شيء يذكر "بالإنسان المتفوق" لدى نيتشه.

ملأ جمال الدين، الذي ربح جميع الدحاحل بإصابة الدحلة التي في الرأس، كامل الغنيمة في حفنتيه بحملة واحدة بعد أن انحنى نحو الأرض بتقنية تجعل الصقور معجبة به. قذف فقير الدم بصاقة قائلاً: «لن ألعب يا لعين».

تجاهل جمال الدين الموضوع. «كما تشاء».

في تلك الأثناء لاحظ جلال فقير الدم وجودي. «كيف الحال؟ هل ستلعب في مباراة المساء؟»

قلت: «بالطبع». أحب لعب كرة القدم. إن هذه اللعبة تلبي حاجاتي للصراع البدني. ولا سيما متعة العودة إلى المنزل بعد مباراة قاسية ملطخاً بالدماء أمر مختلف تماماً. يشعر الإنسان بنفسه وكأنه محارب؛ كما أنه يصبح يدرك بشكل جيد موضوع أيهما يأتي في البدء، الوجود أم الجوهر؟ «وأنا جئت لأسأل إن تأكدت المباراة. ولكن يمكن لها كان ألّا يأتي».

قال جمال الدين: «دعك منه، لا داعي أن يأتي الغبي. هل تلعب الدحاحل؟»

قلت: «لا. سأذهب إلى المنزل. لدي عمل. نلتقي مساء».

زقزق من خلفي قائلاً: «يا للعجب. وما هو العمل الذي يمكن أن يقوم به طفل بحجم الساق؟»

أكملت طريقي قائلاً: «يجب أن أنقذ العالم».

كان كل شيء كما تركته في المنزل. طبعاً لم يكن هنالك شيء مثير للغرابة، ولكن في كل الأحوال أصبت بخيبة أمل. عند تجولي من غرفة إلى أخرى وقع ناظري على الصور ذات الأطر التي تقف على مائدة الزينة في غرفة والدي. نحو عشرين صورة تعود لذكريات تعتبرها أمي مهمة في حياتها. كان لأبي وجود في صورتين منها وأنا في واحدة. أظن أن أمي تعتقد، بالنظر إليها، بأنها ستقنعها بوجودها وبأنها تعيش شيئاً ما. كم كان خطأ فادحاً! كانت هذه الرسومات تثير اشمئزازي. غادرت غرفة النوم فوراً، ودخلت غرفة الجلوس. حاولت تشتيت أفكاري برمي كرة تنس إلى هنا وهناك والتقاطها لا أعلم من أين حصلت عليها. لم تكن تجدي نفعاً. كان ذلك الضيق في النفس المعروف جاهزاً للهجوم بكل شدته. لا أعلم لماذا خطر ببالي رمي الكرة على الطبق الجداري الذي تحبه أمي جداً. بكل تأكيد يجب أن أفكر أقل.

تذكرت حينئذ مسؤولياتي. نظرت إلى الساعة: إنها الثالثة. كان لدي الوقت الكافي. ذهبت إلى غرفتي مباشرةً. أخرجت سلة ثياب المغسولات أسفل الأريكة إلى الخارج، ودخلت المكان الذي فرغ.

- ٢ -

كم كنت جاراً جميلاً أنت يا عمي حجابي

مع بداية المباراة تلقينا الهدف. ولكن لم يكن مهماً أبداً. ففي النهاية كان لي طموح في الحياة. كنت أنتظر عرضية جميلة من الحياة. عرضية مقوسة أستطيع ركلها على الطاير. كنت أنتظر الفرصة المناسبة كي أحقق التعادل بالتفافي كالثعلب حول منطقة الجزاء. كنا نلعب بضغط ولكن كانت تنقطع أنفاسنا مع كل تسديدة يسددها فريق "شارع يابراك". لم يأت هاكان. في الظاهر أن والدته تفقدت واجباته المدرسية. أشعر بالذنب رغم أني حذرته منذ البداية. رغم أني في الواقع أشعر بالذنب دائماً. إنها حالة منذ الولادة. هذا موضوع آخر. ولأنه لم يوجد ساذج آخر متلهف للحراسة غير هاكان، فقد كنا نضطر أن يحل كل واحد منا في الحراسة لهدف واحد. استقبل جمال الدين -فقط كي يتخلص من حراسة المرمى حسب رأيي- بأول كرة جاءت متحنجلة، وكنا واثقين أنه سيتصرف جلال فقير الدم، الذي أخذ مكانه في الحراسة بتأفف، بنفس الطريقة. في الحقيقة كنا جميعاً لاعبين جيدين، ولكن روح الفريق معدومة.

لم يمر سوى عشر دقائق تقريباً حتى جاء البلاء. كان اسم البلاء الغضنفر؛ إنه الأخ الكبير ذو الرقم اثنين لجمال الدين. إنه متسكع محنك في الثامنة عشرة من العمر يتجول دائماً وعلى وجهه ابتسامة مريضة. يعمل ليلاً في سرقة مسجلات الصوت الآلية، ويقوم نهاراً بالعبث مع أولاد الحي. يظهر فجأةً ويسرق دحاحل الأولاد وكراتهم، وكان يضرب من يأتي لمواجهته بصحبة شتائم بحجم حمل سيارة. لا أعلم كيف تمكن من ترويض كلبين أجربين من كلاب الحي وجعلهما عبيداً له. أسماهم "آراب" و"كونت". هذا هو فقر الإبداع. مجرد ما قام الغضنفر

بإصدار صوت غريب من فمه أشبه بصوت الصفير وقيامه بالإشارة بإصبعه على أحدهم، تتحول هذه الحيوانات المسكينة إلى وحوش مسعورة، وتبدأ بمطاردة المسكين ناثرين الزبد من أفواههم. كان الغضنفر يشاهد هذا المنظر مقهقهاً. من يعلم كم مئة مرة اشتكوا لأهله ولكن دون جدوى. بات الجميع يخافون منه إذ إنه في إحدى المرات أشبع أخاه الكبير "ظافر" ضرباً في وسط الحي. عندما تكلمت مع شهود الحادثة، علمت أن ما أخاف الناس ليس قيام الغضنفر بجعل أخيه الكبير بحالة إسعافية، بل قيامه بشتم أمه كثيراً عند قيامه بهذا العمل. بالنسبة لهم كان يجن جنون الغضنفر عندما يتعارك لدرجة أنه كان ينسى أن تلك الأم هي والدته أيضاً في الوقت ذاته. طبعا كله هراء. كل القضية عبارة عن "عقدة أوديب" بسيطة. على أي حال، كان الجميع يتعوذون عند رؤية الغضنفر. ولكن جمال الدين كان يحبه بعض الشيء. كان يدافع عن أخيه الكبير بالقول أنه تعرض في صغره لالتهاب سحايا حاد، ولهذا السبب كان يتصرف بهذا الشكل. لم يكن هذا التفسير مقنعاً بالنسبة إليّ. كان الرجل مختلاً عقلياً بكل معنى الكلمة. احتك عدة مرات مع مجموعات كنت فيها ولكن لم نتواجه وجهاً لوجه قط. طبعاً كنت أعرف أن هذا سيتحقق في النهاية عاجلاً أم آجلاً. ها هو ذلك اليوم.

عندما ظهر الغضنفر وأتى وكلباه على جانبيه، قطع برهان المباراة فوراً والتقط الكرة بيده. في النتيجة كان هو صاحب الكرة. قال الغضنفر: «ما هذا أيها اللوطي، هل تقوم بتهريب الكرة من أخيك الغضنفر؟»

كان برهان بسن الثامنة، وكان الأكثر بسالة بيننا. وكان عصبياً للغاية. قال بوجه محمر: «تكلم بأدب».

عبرت البصاقة، التي أطلقها الغضنفر من بين أسنانه، مسافة أربعة أو خمسة أمتار التي بينهم والتصقت بوجه برهان. في المقابل قام برهان برمي حجر، التقطه عن الأرض، على رأسه بكل قوته. ولكن للأسف أخطأ الهدف. في اللحظة التي أعطى فيها الغضنفر أمر الهجوم لكلابه، قفزت على برهان

كالمسعورة. حاول برهان الهرب ولكن بلا جدوى. قامت الكلاب بطرح هذا المسكين أرضاً، وبدأت تعضه من كل مطرح. كان الولد يتمرغ أرضاً محاولاً حماية وجهه وعينيه بأيديه والكرة في يده. قال جمال الدين لأخيه ملتصقاً بسرواله: «كفى يا أخي، أرجوك!» لقد كان هذا خطأه. فما كان عليه أن يدخل في متناول اليد اليمنى لهذا المجنون. صفع الغضنفر أخاه قائلاً: «تباً لأمك».

توارى طاقم "شارع يابراك" عن الأنظار منذ زمن. وكان أصحابنا يتهيؤون شيئاً فشيئاً للهرب. اقترب مني جلال فقير الدم، «فلنهرب فوراً». ولكنني لم أتزحزح. كنت أشتعل من الداخل. كان ابن الزانية يستهلك أصدقائي واحداً تلو الآخر وأنا أشاهده مكتوف الأيدي. لم يكن لدي أدنى فرصة اتجاهه. كان مثلي حجمي بالطول والعرض. ولكن ما كنت أتقبل الدخول في خضم هذه الحسابات. بالنتيجة، أليست الأخلاق التعامل مع الجميع تقريباً بنفس الشكل؟ يجب علي أن أعمل اللازم. مهما كان هذا العمل غبياً.

ما زال برهان يتصارع مع الكلاب. وقفت أمام الغضنفر مواجهاً له بعد أن ذهبت إلى جانب برهان، والتقطت الكرة عن الأرض. «هل هذه ما أرادها؟» فتل عيونه المجنونة باتجاهي. ورميت الكرة فوق أنفه قائلاً: «خذ إذن هذه» قبل أن أعطيه الفرصة لقول شيء. أغلق وجهه بيده صارخاً بألم. كان أنفه ينزف. عندما فتحت فمي لأقوم بالمزيد من الغطرسة، التصق بياقتي وسحبني باتجاهه حيث عُتهت من شدة الارتجاج. رأيته بطرف عيني يرفع يده اليمنى. قلت في نفسي حسن، إلى هنا فقط. وداعاً لي. ولكنه لم يضرب. ربما خاف أن يصبح قاتلاً. ألم أقل إنه مختل. يكون هؤلاء دقيقي الحساب على عكس ما يعتقد. طبعاً تراجعه عن قتلي لا يعني أنني نجوت. ألصق أصبعي الإشارة بإصبعي الوسطى، وبدأ يضغطهما بيده مشرعاً بطريقة تعذيب غريبة. قاومت لمدة، حتى أنني حاولت ركله، ولكن كان هذا بمنزلة مزاح خفيف بالنسبة لهذا الرجل القذر. ضغط أصابعي أكثر. ركعت على ركبتيّ وأنا أتألم. كانت تذرف الدموع من عينيّ. بعد

فترة بدأت أبكي بجدية. ولكن كنت أبكي من الغضب وليس من الألم. في النهاية تركني. وصاح لكلابه لتأتي إليه. نظر إلى الأولاد وصرخ: «هل أتغوط الآن في أفواهكم جميعاً هنا؟» لم يتفوه أحد بشيء. ولكن كان يقرأ الغضب والحقد في عيونهم جميعاً. أعتقد أنني تمكنت من إثارة مشاعرهم. تمكنت ولكن ماذا أجدى ذلك؟ إنه عزاء ضئيل. في النتيجة كنا ثلاثة مصابي حرب الغضنفر نتضور أرضاً ملطخين بالمخاط واللعاب. ولا سيما أن برهان، الذي تمزق من رأسه حتى قدميه ملطخ بالدماء، كان يبدو بحالة سيئة. تجمع من بقي واقفاً على قدميه حولنا بعد أن شتمنا الغضنفر مرة أخرى ورحل. اكتسبت الكثير من تقديراتهم بسبب شجاعتي. كما أن إدمائي لأنف الغضنفر أثلج صدور الجميع. باستثناء جلال فقير الدم كان يدمدم قائلاً: «أنت مجنون يا أخي. هل من المعقول مجابهة الغضنفر؟ يا للعجب لهذا». ساعد شخصان برهان للاتكاء الذي كان يبكي من جهة ويتوعد بالانتقام من جهة أخرى. عدنا جميعاً إلى الحي. ثم شق الجميع طريق بيته.

كان أهلي في المنزل. فتحت أمي الباب. لم تلاحظ شيئاً كون الأضرار التي أحدثها الغضنفر بي ليست واضحة كالتي لدى برهان. اتجهت نحو الحمام سيراً على رؤوس أصابعي. تظن أمي أن المنزل سيتعرض لسيطرة الجراثيم إن جئت من الشارع وألقيت السلام دون غسل يديك وقدميك. تزوجت أخواتها الكبيرات في سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة إلا أنها لم تتزوج حتى الثلاثين من عمرها. (لا أعلم لماذا تفتخر بهذا). على ما يبدو أنها اكتسبت عادة تعويض خيبات أملها الجنسية بالمنظفات منذ تلك السنوات التي قضتها عزباء. فتحت الصنبور ووضعت أصابعي، التي كانت ما زالت تئن، تحت الماء البارد كالثلج. على ما يبدو أني سأعاني من هذا الألم لعدة أيام أخرى، ولكن لم يكن هناك حالة جدية. أساساً كنت أقلق حيال برهان. سيجن جنون أهله بلا شك عند رؤيته بهذا الحال. بحسب معرفتي لبرهان، لن يقبل لنفسه وشاية الغضنفر. كانوا

أجمعين سيغضبون على الولد. بالإضافة لإبر الكَلَب التي سيأخذها. طبعاً أسوأ شيء بالنسبة له، أن كل ما قام به سيبقى مكسباً لدى الغضنفر.

كان وجه أبي لا يفسر عند الغداء. شرب أول كأس من العرق بعدة رشفات. كان ذلك يعتبر غير اعتيادي. كان أبي يشرب كل ليلة ولكن كان يجري هذا ببطء. عندما كان والدي يجدد كأسه ويلقي الشتائم وحده، قالت أمي: «انتهينا، انتهينا». مهما كان السبب الذي أنهانا، فقد كان من الواضح أمي كانت فرحة لهذا الأمر. لا تستطيع أمي العيش دون زعل. إن الكوارث مصدر عيشها. أعتقد أنها تشعر بنفسها غير ضرورية عندما يكون كل شيء على ما يرام. يوجد مثل هذه النماذج. يجب إعطاؤهم حقهم؛ هؤلاء الناس يكونون بالفعل أقوياء جداً مقابل المواقف الصعبة.

سألت: «ماذا يحصل؟»

أجابت أمي عن سؤالي على النحو الآتي: «تناول السلطة أيضاً يا بني».

«لا تثير جنوني يا ماما!»

«لا يوجد شيء يا بني. سنذهب إلى أرزروم»[1].

انظر إلى هذا الكلام أيضاً... «لماذا؟ هل فتحت عصفورية جديدة في أرزروم؟»

قالت أمي: «سينقلون والدك» وهي تضع السلطة في طرف صحني بحركات غريبة.

نظرت إلى والدي: «هذا من صنع السيد أردوغان، أليس كذلك؟»

انبرت أمي فوراً. «ما ذنبه يا حبيبي؟ طلبوا موظفاً من الرجل المسكين. طبعاً هو مضطر ليرسل أحداً».

لاطفني والدي على رأسي. «لا تشغل بالك. لن نذهب إلى أي مكان».

---

(١) أرزوروم: مدينة في شمال شرق تركيا، واسمها الأصلي أرض الروم. [المترجم].

نظرت أمي إليه بانتصاب. «ماذا سنفعل إذن؟»

ابتلع أبي رشفة كبيرة من كأسه مقطباً وجهه. «سأستقيل إن اضطر الأمر».

قالت أمي: «إنك تفكر بشكل خاطئ. لندع الله أن يتوفر لي شاغر في الكادر فوراً. لكنه سيتوفر، أليس كذلك؟ طالما أن وظيفتك ستصبح هناك وأنا زوجتك».

من الناحية الزوجية. فسدت حياة الرجل بسبب الناحية الزوجية. قال بصوت يمزق داخلي: «لن أغادر اسطنبول».

وقع ناظري على الصورة التي على لصاقة زجاجة عرق "الكولوب". رجلين جالسين بلباس أنيق يشربان الخمر. يشبه البعض هذين الرجلين "بأتاتورك وإينونو"[1]. بالنسبة إلي كان أحدهما والدي والآخر أوزتورك. أوزتورك العضو الثابت في عصابة شارع "سيلالتي" التي قلبت بيشيكتاش[2] رأساً على عقب، وشقيق والدي بالدم. ليس على قيد الحياة كوالدي، أوزتورك الذي وقع مهزوماً لقلبه المثقوب من أحد عشر مطرحاً. إن أبي والآخر اللذين في الصورة، يثرثران من جهة ويستذكران كل تلك المغامرات الخارقة في أيام الشباب التي كانوا يعبرون فيها مياه المضيق الباردة كالثلج من ضفة إلى ضفة داخل إطارات سيارات مربوطة بحبال طويلة خلف القوارب البحرية الآلية، بعيداً عن جميع أنواع المآسي الزمانية والمكانية. لا يقترب أحد منهما. لا أردوغان الدبر ولا غيره.

بالنسبة إلي، إن المكان الذي لا يمكن لوالدي مفارقته هو بيشيكتاش وليس إسطنبول. أصر كثيراً على العيش هناك بعد ارتكابه غلطة عمره وتزوجه.

---

(١) مصطفى كمال أتاتورك وعصمت إينونو: يعد إينونو ثانى رئيس فى تاريخ الجمهورية التركية، بعد أتاتورك قائد الحركة التركية الوطنية التى حدثت في أعقاب الحرب العالمية الأولى، الذي أسس الجمهورية التركية الحديثة [المترجم].

(٢) بيشيكتاش: إحدى بلديات مدينة إسطنبول، وأهم وأشهر بلداتها. [المترجم].

ولكنهم استأجروا منزلاً في ضفة الأناضول لأن أجور المنازل أنسب بالإضافة إلى القرب من مكان العمل. ولم يغادروا هذه الضفة مرة أخرى. ولكن مازال أبي مستمراً في الذهاب إلى بيشيكتاش. بات أمر لقائه مع أصدقائه القدامى لعبةً بيد القدر. كان هذا الشيء الوحيد الذي يربطه بالحياة. لم يكن شيئاً كثيراً ولكن هذا أيضاً أرادوا سحبه من يده. قال أبي عندما قام عن المائدة مع قدحه الثالث من العرق الذي ملأه للتو: «سأشاهد المباراة». قالت أمي بزعل وهي تنظر إلى طبق والدي الملآن بالفاصوليا: «لم تأكل».

لم يجب أبي. ذهب وانهار على الأريكة مقابل التلفاز. جلست بجانبه. نظر إلي وغمزني. «ماذا ستنتهي المباراة؟» تلك الليلة كانت مباراة بيشيكتاش في الكأس الأوربية. كنا سنخسر بكل تأكيد. وضعت يدي على كتفه وقلت: «سنربح ثلاثة مقابل صفر».

قمت وساعدت أمي في جمع المائدة. بعدها زجت أمي نفسها في الحمام كالعادة بعد أن قالت إنه عليها غسل الثياب. وأنا بدوري ذهبت إلى المطبخ، وبدأت أشرب المتبقي في أسفل عشرات من قوارير البيرة وطنية الصنع المصفوفة خلف البراد. فكرت بوالدي. قد تدمرت حياته. ستتدمر حياتي أيضاً في يوم من الأيام. فكرت أنه سيموت إن تحقق موضوع النقل. ستصبح أرزروم بالنسبة له قبراً. اكتأبت كثيراً. وفتل رأسي بعض الشيء على ما أظن. خرجت إلى البلكون. كان قد حل الظلام، واشتعلت مصابيح الشارع. لم يكن يبدو الكثير من الناس في الجوار. ألقيت نظرةً على شرفة المنزل المجاور. لم تكن الأخت أليف موجودة، ولكن أزهارها موجودة. أخذت نفساً عميقاً. صرخت بأعلى صوتي: «أردوغان الدبررررر». شربت إحدى القوارير الأخرى. «أردوغان دبر مزدوج». ما كان علي السماح له بقتل أبي. امتلأت فجأة برغبة رمي نفسي إلى الخارج. ذهبت فوراً إلى جانب والدي. كانت المباراة قد بدأت. سأل: «ألن تشاهد المباراة؟»

قلت: «لا، سأخرج قليلاً لأشم الهواء».

نظر إلى وجهي. «هل أنت من كان يصرخ منذ قليل؟»

«هل كان أحد يصرخ؟ وماذا كان يقول؟»

أدار ناظريه باتجاه التلفاز ضاحكاً. «لا تتأخر كثيراً».

لم يكن لدي عادة الخروج بعد حلول الظلام، ولكنني أستمتع حين أقوم بهذا بين الحين والآخر. عادةً كنت أجول الأحياء التي في الأسفل وأعود. كنت أصادف بعض الأحيان أحد أصدقائي. من يدري لأي سبب خرج هو أيضاً في تلك الساعة. لم تكن مسامراتنا الليلية صاخبة كالتي تكون في النهار. في أغلب الأحيان كنا نجلس في زاوية ما ونتسامر بهدوء. كان الليل يقربنا جميعاً من مخاوفنا وآلامنا أكثر. حتى إنني أصاب بالدهشة في كل مرة عند سماعي على ماذا يعلق كل من جمال الدين الهزل وجلال فقير الدم. هذا هو الزمان الأنسب لفهم الإنسان حاجته في التقرب من الآخر على الرغم من كل شيء.

لم تكن لدي الرغبة في التجول. جلست على درج مدخل المبنى، وجعلت ظهري على الباب. كان يتم بث المباراة على كل الحي من منزل الطابق الأخير لضابط الأمن المتقاعد السيد حجابي. كان السيد حجابي ذو الستينات من عمره يرفع صوت التلفاز في كل مرة حتى الأخير لأنه كان أصم مثل الحائط. كانت ملكية المنزل ذي الطابقين تعود له بالكامل، ولكنه لم يكن يجد مستأجراً للطابق السفلي بسبب الضجة التي كان يحدثها ولأنه كان رجلاً لا يطاق، لذلك كانت هذه الدار تبقى فارغة. كما أنه كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن النظام العام للحي بعادة موروثة من مهنته. كان يفرق الأولاد المتشاجرين، يتشاكل مع الذين يرمون القمامة في المكان الخاطئ، وينظم العلاقات بين الجيران. كان الحي فارغاً بالكامل. النشاط الوحيد الذي رصدته هو الكلاب التي تعبث في القمامة. نظرت ورأيت آراب وكونت بينهم. خطر ببالي أن أركض إلى الأعلى، وأجلب سم الفئران لأزجه في القمامة التي يأكلون منها ولكن لم أجد ذلك مناسباً لي. لا أعرف ربما تكاسلت فقط. تلك الأثناء وقع على مسامعي أصوات خطوات. كانت

خطوات أحد يمشي مسرعاً. فتلت رأسي بذلك الاتجاه ورأيت طيفاً نحيلاً وطويلاً يدخل على أحد المباني في صف مبانينا. تراءى لي أن المبنى الذي دخله هو مبنى كوزيل يورت، ولكن لم أكن متأكداً. نهضت كي أنظر. لم أر شيئاً. كما أنه انقطعت أصوات الخطوات. خطوت خطوتين باتجاه مبنى كوزيل يورت لربما كان جمال الدين في الحديقة كي نتسامر بعض الشيء حتى صاح أحدهم: «أنت يا فتى!» كنت أعرف الصوت جيداً. رفعت رأسي فوراً. كانت الأخت أليف تنظر إلي من البلكونة. «ماذا تفعل في الخارج؟»

«خرجت قليلاً لأشم الهواء».

«في هذه الساعة؟»

لو كان أحد آخر لأجبته إجابة غير ملائمة، ولكني اكتفيت بهز رأسي بمعنى الإيجاب. «يا لك من ولد غريب، هل أرافقك؟»

بالطبع كنت أفضلها أكثر بألف مرة من جمال الدين. قلت: «طبعاً، بانتظارك».

«حسنا سأنزل الآن إلى الأسفل».

جاءت إلي قبل مرور دقيقة واحدة. وضعت ممسحة الأحذية التي بيدها على الدرجة التي أمام الباب. «لن نبرد إن جلسنا على هذه».

انحشرنا بصعوبة فوق هذه الممسحة الصغيرة. كانت مؤخراتنا يلامس بعضهما بعضاً. لسبب ما لم أكن أجد ذلك مثيراً. على العكس كنت مستاءً من ذلك. يا ترى هل أُصبت بخيبة أمل بسبب إدراكي أن الأخت أليف تملك مؤخرةً أيضاً؟ كانت وكأنها غاضبة بعض الشيء. لم تكن تتكلم. رغم أنها كانت دائماً تجد شيئاً لتتكلم به. تشكل توتر غريب بيننا بسبب هذه الملامسة التي لا معنى لها. قلت فجأةً: «ليس مهماً بالنسبة إلي فارق العمر».

أدارت عينيها المفتوحتين كحجر الفأل باتجاهي. «ماذا؟»

تنهدتُ مرتين. «إني أمزح».

وهي أيضا تنهدتْ مرتين. ولكن لم يكن صمتها له معنى؛ كان بشرود. ثم بدأت تقهقه. قالت: «الله عليك يا ولد!» ووضعت يدها على كتفي. «ولكنه صحيح... كل ما هنالك أربعة عشر عاماً بيننا. عندما تكون في الثامنة عشرة سأصبح في الثانية والثلاثين من عمري. يعتبر مناسباً!»

يعتبر مناسباً على ماذا؟ بالفعل هؤلاء النساء مخلوقات غريبات. لم يبق سوى أن تقع ويغمى عليها من المزحة التي قلتها قبل قليل والآن تفوهت بعبارات منفتحة على تداعيات قليلة أدب أكثر. لو كان ولد آخر مكاني لجرحت مشاعره لهذا السبب. من الجيد أني اجتزت هذه المواضيع منذ زمن طويل. إضافةً إلى ذلك، أتساءل عندما أصل إلى هذا العمر، هل سيبقى أثر من هذه الفتاة المليئة بالنشاط والمفعمة بالحياة؟ سحبت يدها حين شعرت بأنني تحركت باضطراب. «هل هناك شيء أحزنك؟»

«سينقلون والدي».

«حقاً؟ إلى أين؟»

«إلى أرزروم».

«أمر محزن». أصبحت جدية أكثر في حديثها. «كنت ستبدأ في المدرسة العام القادم».

سألت بأمل غبي: «ألا يوجد مدارس في أرزروم؟»

قالت: «أيعقل ألَّا يوجد يا حبيبي؟ يوجد ولكن برأيي التعليم ليس جيداً كما هنا».

قلت: «فلتذهب المدرسة إلى الجحيم،» كيلا تطيل الموضوع أكثر. ماذا كانت تظن هذا الشيء الذي يسمى تعليماً؟ الشيء الأساسي الذي يجب أن يتعلمه الإنسان في المدرسة ليست الدروس المشروحة، بل أن يتعلم كيف يصمت عند

شرح الدرس. وأنا كنت واثقاً أنهم سينفذون هذا الأمر على أحسن وجه في أرزروم. «يقلقني وضع أبي».

بقينا صامتين لعدة دقائق أخرى. سألتني الأخت أليف: «هل قصصت لك "ملكة الثلوج"؟» قصة؟ على ما يبدو لم تكن مواضيعي تثير اهتمام الفتاة. وقفت قائلاً: «في الحقيقة لست بمزاج لأسمع الحكايا. أفضّل السير قليلاً». امتدت نحوي ومسكت يدي. شعرت بحرارة غريبة داخلي. ربما كنت متسرعاً في انجراري لليأس بخصوص الحياة لهذه الدرجة. ربما هناك مفاجآت جميلة تنتظر طريقي. ألم تكن يدي هذه قبل عدة ساعات بين يدي ولد سادي؟ جلست بمكاني بهدوء مرة أخرى.

قالت: «إنها قصة جميلة جداً، كما أنها تخصنا كلينا قليلاً».

حقاً؟ إذن تخصنا نحن. كلينا. كنت قد عضضت خدي لدرجة أني كنت أشعر بطعم الدماء المتدفقة إلى داخل فمي. هل هذا ممكن؟ هل ستتمكن الأخت أليف من جعلي أحب هذه الدنيا الباهتة؟ بعد سنوات وعند نظري إلى الوراء، هل سأتمكن من القول كانت هذه الحياة جيدة بالرغم من كل شيء، وتستحق أن أتحول إلى واحد من أولئك الرجال الذين يمرون في الشارع؟ وبعدها هل ستمتد أرواحنا إلى اللانهاية ماسكة بعضهما بأيدي بعض؟ «قصي إذاً».

كانت القصة التي روتها لي طويلة جداً، وقد قرأتها قبل عدة سنوات. كانت ملكة الثلوج ساحرة لابونية شغلها الشاغل الخيانة والفتنة. كانت الامرأة القذرة المعنية قد صنعت مرآة، كانت جميع المشاهد المنعكسة على هذه المرآة تفقد جماليتها وتتحول إلى أشياء قذرة وشريرة؛ من يرون العالم مرة واحدة من هذه المرآة يصبحون أناساً فظيعين متحجري القلب. كان مريدو ملكة الثلوج يأخذون الموجة إلى جميع أنحاء الأرض ويسلطونها على وجوه الناس. وكانت الملكة تستمتع بهذا بشكل شذوذي. في يوم من الأيام أسقط هؤلاء المريدون الأغبياء، الذين كانوا يتجولون طيراناً حسب استنتاجي، المرآة من أيديهم وكسروها.

ولكن لم يصب هذا الحادث في مصلحة البشرية. انتشر غبار المرآة المحطمة مع الرياح الشمالية في جميع أطراف العالم، ودخلت في عيون هذا وذاك؛ وبات المكان يعج بالناس القميئة. كان الشاب "كاي" والفتاة "جيردا" أبناء عائلتين طيبتين تعيشان في فجوتي سقفي منزلين متجاورين وكان يحب بعضهما بعضاً كثيراً. كان يوجد صندوق على جانب كل من نافذتي غرفتيهما المقابلتين بعضهما لبعض. وكان يوجد في كلا الصندوقين غرستا ورد جوري كرمز لحبهما. كانا يقضيان وقتهما معاً خلال أشهر الصيف، ويقفزان ويتجولان في المروج، في أغلب الأحيان كانا يدخلان إلى منازل بعضهما بعضاً من خلال الشرفة، وكانا، اللهم عافنا من الخطأ، على ما أظن يمارسان أشياءً قبيحةً. غير أنهما لم يكونا يلتقيان ويتناغشان شتاءً لأن والديهما لم يكونا يسمحان لهما بالخروج. كما أن الثلج المتراكم على نوافذهما كان يمنعهما من رؤية بعضهما بعض. ولكنهما لم ييأسا، كانا يسخنان قطعة نقود معدنية في موقد الحطب ويلصقانها على النافذة. كانا يضعان عينيهما على الثقب المكون في النافذة وينظر بعضهما إلى بعض من خلاله. أي إنهما كانا مهوسين لهذه الدرجة. كما كانت هناك أغنية غبية تغنيها جيردا فجأة. "ستتفتح الأزهار وتذبل وستمتلئ السماء بالملائكة". كما تتوقعون، في يوم من الأيام دخلت إحدى ذرات هذه المرآة في عين كاي وتحول هذا الشاب اللطيف المفعم بالحياة لشاب متكبر متعجرف مهوس في الجنس. وبعد مدة قصيرة ذهب إلى قصر ملكة الثلوج في لابونيا. وعلى ما يبدو قامت جيردا باللحاق به خوفاً من عدم إيجاد غبي آخر ليتزوجها. اجتازت العديد من الكوارث خلال الطريق، والتقت كثيراً من الناس. اللصوص، الشريرين، الغربان الناطقة، الساحرات السحاقية... في الحقيقة أن حكاية أحد هؤلاء قد أثرت بي قليلاً. لن أمر دون الحديث عنها. عندما كانت جيردا تنجر من هنا إلى هناك، قرعت باب منزل لديه حديقة مليئة بأشجار الفواكه وبجميع أنواع الأزهار. كانت صاحبة المنزل ساحرة عجوز طيبة القلب. أدخلت الامرأة جيردا إلى منزلها بعد أن استمعت إلى حكايتها. خصصت لها غرفة خارقة، وملأت بطنها بأطيب المأكولات، ومشطت لها شعرها

بمشط من الذهب، إلخ... إذ إنها كانت تتمنى أن يكون لها ابنة منذ زمن طويل. ولهذا السبب تعلقت بجيردا. أساساً كون أن جيردا كانت صاحبة حنجرة أنثوية بحتة، عندما كانت تعيش ببساطة، وبالقليل من تأثير سحر المرأة، نسيت من أين أتت وإلى أين هي ذاهبة. ولكن المرأة الساحرة كانت لا تزال تخاف أن تتركها جيردا من أجل ذلك الغبي كاي. ذهبت في إحدى الليالي، وهرست جميع أزهار الجوري الجميلة الذي في حديقتها كيلا تقوم جيردا خلال تجولها في الحديقة برؤية أزهار الجوري التي هي رمز حبها مع كاي ومن ثم تتذكر كل شيء. إلا أن جيردا رأت في يوم من الأيام وردة جورية منسوجة على بيرية الساحرة العجوز، واستعادت ذاكرتها. ناكرة المعروف، هربت من هناك منهكة بالبكاء دون أن تتشكر المرأة المسكينة على ما فعلته معها. في هذه الأثناء كان كاي يعيش أجمل أيامه في لابونيا. لا أعرف ماذا كانت تجد ملكة الثلوج في هذا، حيث كانت لا ترفض طلباً له. كان كاي، في الأوقات التي يجدها خارج أوقات قيامه بالعادة السرية، يقوم بصنع تماثيل من الثلج. ظهرت جيردا فجأةً في وقت لم تكن فيه ملكـة الثلـوج موجـودةً في "المنـزل". بطبيعة الحال لم يكن كاي في مزاجه. إلا أن الفتاة لم تكترث لذلك. آلاف الأنواع من التملقات؛ احتضان كاي، والتغنج عليه. رأى كاي أن الفتاة لا تفهم من الكلام، بدأ يناولها بالعصي، دون القول أنها خلقة ربه من النوع كل ولا تأكل. ولكن أساليب الفتاة كثيرة. وبدأت تشدو: "ستتفتح الأزهار وتذبل، ستمتلئ السماء بالملائكة". انهارت دمعة من عيني كاي الذي سمع هذه الأغنية. في تلك الأثناء خرجت قطعة الزجاج التي كانت قد دخلت في عينه. حينها بدأ يرى العالم كما في السابق، وتذكر كم هو يحب جيردا ومن هذا القبيل. عادا كلاهما، بعد كل هذه المغامرات التي عاشاها، إلى منازلهما، عند ركبتي جدتيهما كطفلين تافهين لم ينضجا بمقدار درهم.

بعد أن قامت الأخت أليف بإنهاء الحكاية بطريقتها، جلست وفكرت بنية صافية ما علاقة هذا بنا. علي القول إني لم أتوصل إلى نتيجة منطقية جداً. حسناً فلنقل إن كاي وجيردا اللذين يعيشان في منازل مجاورة يمثلوننا كلينا. في الحقيقة

يمكن القول أيضاً إني أرى العالم من تلك المرآة الملعونة. حسناً، من تكن ملكة الثلوج؟ لا بد أنها السيد أردوغان. أي إني إذا ذهبت إلى أرزروم أو إلى جهنم، هل كانت ستأتي الأخت أليف وتجدني؟ هل هذا المقصود؟ لم أكن متأكداً من أنها كانت تسمع الكلام الذي يخرج من فمها. قلت: «قصة جميلة جداً». قالت الأخت أليف وهي تزيح جديلة صفراء قد سقطت أمام عينيها: «كانت هذه القصة المفضلة لديّ عندما كنت صغيرة». أمسكت يدي مجدداً وأنهضتني. «هيا فلندخل إلى الداخل».

في الأثناء التي نهضت فيها لأخرج مفاتيحي من جيبي كي أفتح الباب، سمعت في البداية قعقعة مذهلة وبعدها صوت شيء يسقط على الأرض ويتحطم. قفزت فوراً إلى وسط الشارع، وحققت في سبب الضجة. كان هناك جهاز مذياع من الطراز القديم محطم على الرصيف المقابل. عندما رفعت رأسي رأيت إحدى نوافذ الطابق العلوي، الذي يسكنه السيد حجابي، قد تكسر. في تلك اللحظة سقطت لوحة من نافذة أخرى لنفس المنزل بعد أن حطمت زجاجه. بعد عدة ثوان كانت تهطل على الشارع أصائص وأطر صور وألف نوع من الأشياء الأخرى. تحركت مسرعاً إلى مكان الحادث. كانت تصيح الأخت أليف من خلفي: «إلى أين تذهب؟ توقف!» بركضة واحدة دخلت البناء وصعدت إلى شقة السيد حجابي. كان الباب نصف مفتوح. كانت الأصوات الهستيرية المجلجلة المتصاعدة من الداخل تمتزج مع الأصوات المدوية لمعلق المباراة في التلفاز. تمالكت شجاعتي ودخلت إلى الداخل. كانت شماعة الألبسة ودولاب الأحذية مقلوبة على الأرض. كذلك الوضع بالنسبة للكراسي حول مائدة الطعام التي كانت في الأمام. كانت الأرض مليئة بحطام الزجاج. عندما حاولت معرفة ما يحدث، قفز فجأة من الناحية اليسارية التي بقيت خارج مجال الرؤية مطلقاً صرخات عفريتية مخيفة. لم يكن هذا المخلوق الغريب، الذي بات يدور حول مائدة الطعام عامداً على أغنية مهوسة ذات كلمات على النحو "لول، لول"، سوى أرتان المجنون. سألت بعد أن رميت عن نفسي الدهشة الأولى: «ما هذا يا أرتان؟»

لم تكن تبدو النية لدى أرتان ليرد علي. كان مشغولاً برمي الأطباق التي على الطاولة شمالاً ويميناً. خطوت عدة خطوات أخرى واقياً وجهي وعيني. كان صوت التلفاز يأتي من المكان الذي ذهب إليه أرتان قبل قليل. عندما فتلت نحو الشمال، رأيت التلفاز الذي يصيح ومقابله تماما كانت الأريكة الثنائية تقف عكساً لي. كانت الجهة الخلفية لعنق السيد حجابي الحليقة مستندة إلى الرأس الأيمن للأريكة. ندهت له ولكن لم يحرك ساكناً. كان أصمّ بطبيعة الحال. ذهبت إليه. كان ينظر إلى التلفاز دون أن يرف جفنه. كان فمه مفتوحاً. كان يوجد صحن فواكه على الطاولة الطويلة الموضوعة بشكل مواز للأريكة. لمست كتفه بهدوء. كان مازال لا يتحرك. لفت انتباهي فجأة الشق الأحمر الذي في رقبته. بعدها استطعت تمييز أن ألوان قميصه والوسادة التي حشرها تحت إبطه لم تكن حمراء. صدم عقلي حقاً. بات السيد حجابي جثةً هامدةً. أحدهم قد ذبح حنجرته. بوساطة سكين الخبز الموجود على الأرض عند أحد أرجل الطاولة. أحدهم؟ فتلت ظهري بدهشة. كان أرتان المجنون ماداً ذراعيه الملطختين بالدماء يركض باتجاهي. لم أتمكن لا من التحرك من مكاني ولا إصدار صوت. قد تجمد الدم في عروقي. بعد أن لف أرتان المجنون يديه حول خاصرتي ورفعني، بدأ يدور حول نفسه. كنت أعتقد أنه سوف يقتلني بصدم رأسي بمكان ما. ولكنه لم يؤذني رغم دورانه بهذا الشكل نحو خمسة أطوار. كان فقط يصيح "لول، لول". في حقيقة الأمر، أستطيع القول إنه كان يحضنني بعناية فائقة وحتى بحب أيضاً. ربما بسبب خمود مخاوفي قد اجتازت الأصوات الصادرة من التلفاز مجال إدراكي الحسي. فهمت الوضع عندما نظرت إلى التلفاز بطرف عيني. كان أرتان المجنون يشاركني فقط فرحه بالهدف الذي أحرزه نادي بيشيكتاش. تنفست الصعداء. كانت هذه المرة الثانية في هذا اليوم أمزق فيها الكفن. خطر ببالي فجأةً سؤال غريب. هل شاهد السيد حجابي الهدف قبل أن يموت؟

- ٣ -

العدالة الإلهية، أنت الحياة

عند الوصول إلى المخفر، كانت الشرطة تنزل أرتان المجنون من باص كبير محكمين الإمساك به. أما أنا ووالدي، فقد أنزلونا من سيارة رينو طراز قديم وبطريقة يمكن اعتبارها أكثر لطفاً. في حين كان يُرسل أرتان المجنون إلى النظارة، أشار لنا أحد موظفي الشرطة بأن نتبعه. مشينا معاً حتى باب أحد الغرف في الطرف الخلفي للطابق الأرضي للمخفر. كنت أنا ووالدي لم نتفوه منذ ساعة بكلمة واحدة. رغم ذلك وجد الشرطي ضرورة أن يضع إصبع سبابته على فمه ليعطينا إيعازاً أن نكون صامتين. من الواضح أنه كان متردداً من الذي في الغرفة. طرق الباب بهدوء ومد رأسه إلى الداخل. «سيدي المحقق، هل الأخ آدم موجود؟»

قال الذي في الداخل: «نزل إلى المقهى لكي يحضر المباراة. برأيي أنه سيهرب من بعدها إلى المنزل».

«يوجد هنا طفل. كان شاهداً على جريمة. سيدلي بإفادته».

«ألم يأت النائب العام إلى مكان الحادثة؟»

قال الشخص الذي يرافقنا: «لا». وأردف قائلاً: «الرفاق ينتظرون. نعتقد أنه سيأتي بعد المباراة. برأيي من الأفضل أن تخبر الضابط. كيلا نقع بوضع حرج إذا جاء النائب العام فجأةً في منتصف الليل وطلب معلومات». فكرت قائلاً "يا له من بلد"، هناك جريمة قد وقعت، والشرطة والنواب جالسون أمام التلفاز لا يحركون إصبعهم قبل انتهاء المباراة. والغريب في الأمر، أن هذه الحالة لا تؤدي إلى أي مشكلة لأن المجرمين أيضاً يفعلون الشيء نفسه في مكان الجريمة.

أجاب الآخر بغضب احترافي: «ما علاقتي أنا! وهل أنا راعي الضابط؟»

التفت الشرطي إلينا وقال: «ادخلوا إلى الداخل. ستنتظرون هنا». وأضاف وكأن الحديث الذي جرى بينه وبين زميله آنفاً لم يجر أمامنا: «إن الضابط يحقق في مكان الحادثة. سيأتي بعد قليل». طبعاً أنا لا ألومه. إن إعطاء الشعور للمواطن بأن كل شيء على ما يرام هو جزء من عمله. أما في موضوع الإقناع لديه، ويمكن أن نعزو عدم امتلاكه لأساليب أكثر تطوراً لطبيعة عمله.

كان في الغرفة التي دخلناها طاولتان حكوميتان نموذجيتان موضوعتان بطريقة تتعامد فيها بعضها مع بعض. من الواضح أن التي كانت أكبر بعض الشيء وفارغة، تعود للضابط. وكان يجلس على الأخرى شرطي بجوار الأربعين من العمر بشعره الأشيب، ويرتدي نظارات كبيرة بعض الشيء على وجهه المليء بالتجاعيد. إنه الأخ آدم. قال لنا دون أن يرفع رأسه عن الصحيفة المطوية أربع طيّات التي يمسكها بيد واحدة: «اجلسوا». فعلنا ما توجب فعله.

سأل والدي: «ألا يمكنكم أنتم أن تأخذوا الإفادة؟»

نظر إليه "قوة القانون" بغضب: «سيأخذها الضابط».

جهم والدي وجهه، وسحب واحدة من ركام الجرائد التي على الطاولة، وفتح على صفحة الكلمات المتقاطعة. وأنا بدأت أقرأ من مكان جلوسي محضر واقعة انتحار معلق على اللوحة التي خلف مقام الضابط تماماً. علي القول إن علاقة الشخص الذي حضر المحضر بالكتابة والقراءة أسوأ من التي لدى هاكان. ولكن الواقعة كانت غريبة للغاية. كانت ممرضة ضحت بنفسها بالثالثة والثلاثين من عمرها. كانت الامرأة تعيش الحب الممنوع مع طبيب جراحة قلبية متزوج يعمل معها في نفس المستشفى. وإذ بالرجل يهجرها. فتدخل الامرأة ذات يوم وبيدها مسدس إلى غرفة الرجل. وتطلق النار على قلبها بعد قولها "انظر إلى قلبي". أخذ الطبيب الامرأة إلى غرفة العمليات فوراً. لم ينقذ حياة الممرضة ولكنه تمكن بلا جدوى من رؤية قلبها. فكرت بأن هذه المجزرة الذاتية هي

ليست برغبة مغادرة الدنيا والرحيل عنها، بل تعني استمراراً في الحياة بشكل من الأشكال. بتعبير آخر، حتى لو مات جسد الممرضة، فالوجود الروحي لها لم يكن ليفارق الطبيب حتى أنفاسها الأخيرة.

قاطعني سؤال والدي عن أفكاري. «يتحدث عن غناء أو عزف النوتات في المقطوعة الواحدة دون فواصل بشكل موصول بعضها ببعض بستة أحرف والحرف الثالث "g"».

قلت: «Legato».

نظر إلي "مخلب العدالة" من خلف نظاراته الكبيرة. لم تكن أسئلة أبي قد انتهت. «هيدرو كربون مشبع. الحرف الأخير "ن"».

«إيتان».

نظف "صديق الأخيار، وعدو الأشرار القاسي" فمه بطريقة مضجة وسألني بعنف: «كم عمرك أنت؟» وكأنه كان يسألني إن كنت أنا من ارتكب الجريمة أم لا.

نظرت إلى عينيه بأكثر حالاتي المثيرة للغضب نحو خمس ثواني دون تكلم ثم التفت إلى والدي وسألته: «كم عمري أنا يا أبي؟»

ضحك والدي من تحت شاربيه. «خمسة».

أظهرت "للمدافع الناري عن العدالة" ثلاثة أصابع من يدي اليسرى. «خمسة باسم القانون».

التفت "القبضة الحديدية التي داخل الكف المخملي" باتجاه والدي وهمهم بالقول: «أي نوع من الأطفال هذا؟»

قال والدي وهو يفتل قلم المداد بين أصابعه: «من هذا النوع من الأطفال».

مرت النصف ساعة المعقبة برد "رجل القانون" على الهاتف قائلاً: «ألو» بصيغة تهديدية بعد أن رن للمرة العشرين، وإجرائه حواراً لطيفاً مع المتصل بعد

أن عرف أنه صديقه، وبالضجيج المتقطع الآتي من الخارج الذي غير معروف ما هو. وإذ بالباب يُفتح وينهض "المحارب الوحيد" واقفاً فجأةً. من جهة أخرى كان يحاول بتوتر أن يطفئ سيجارته في صحن السجائر. «سيدي!» اتجه الشرطي الشاب والمغرور الذي أدى إلى قلق "بطل الشعب" إلى طاولته بعد أن حيانا برأسه. في هذه الأثناء، كان "حامي أرواحنا وأموالنا" يقدم له التقرير وهو يرتب بزته الرسمية. «سيدي، بما يخص الجريمة يا سيدي... هؤلاء شهود يا سيدي. إن الطفل رأى الجريمة يا سيدي...»

قال الذي جاء حديثاً: «حسناً حسناً، اتصلوا وأخبروني عبر الهاتف». مد يده إلى والدي وعرف عن نفسه. «مساعد المحقق أونور تشاليشكان. لدي بعض الأسئلة لكم».

قال والدي: «بدايةً أنا عندي سؤال لكم إن سمحتم».

نظر الشرطي الشاب إليه باستغراب. «تفضل».

«كم انتهت المباراة؟» أجاب مساعد المحقق بوجه عبوس: «خسر بيشيكتاش أربعة مقابل هدف».

باشرت قوى الأمن بالإجراءات بعد أن استمعوا باحترام لشتائم والدي على لاعبي وإداريي وألوان وماضي وحاضر الفريق الذي يشجعه. تكلمت بكل شيء بعد تسجيل تفاصيل مثل بيانات الهوية والعنوان وما إلى هنالك. ولكن قلت لهم إني كنت جالساً وحدي أمام الباب عندما بدأت تتساقط الأشياء من منزل السيد حجابي. لم أكن أريد إقحام الأخت أليف بهذا الأمر بلا جدوى.

سأل أونور تشاليشكان: «وماذا كنت تفعل في تلك الساعة في الخارج؟»

غضبت قائلاً: «هل هذا جرم؟» لا أحب الذين يحشرون أنوفهم بأموري.

لم ينغظ كما كنت أتوقع، ولكن الرجل ضحك ضحكة عالية. «فقط أردنا أن نعلم إن كان السبب هو فتاة ما».

أعتقد أن لوني أصبح أحمر مثل الشمندر. تدخل والدي فوراً. «إنه يجتمع ورفاقه أمام الباب في بعض الليالي».

نظر أونور تشاليشكان إلي بأسلوب محبب تقريباً. «مع من كنت هذا المساء؟»

«كما قلت، كنت وحيداً».

في هذه الأثناء، كان "القوة الرادعة" يسجل بالحسبان ما يخرج من أفواهنا. الله أعلم ما الذي سمعه وما الذي لفّقه من تلقاء نفسه. قال الضابط المساعد: «حسناً. والآن دعونا نتكلم عن المقتول. ماذا تعرفون عنه؟»

قال والدي: «إنه مدير أمن سابق».

ضرب أونور تشاليشكان قبضته على الطاولة بغضب، إذ جعل "الفارس ذا النظارات" يقفز من مكانه. «كيف لا تبلغني أن المقتول رجل أمن؟»

«والله إني سألتهم، لم يخبروني بشيء أنا أيضاً يا سيدي...»

لقد فعلها وباعنا فوراً "تمثال القوة والشجاعة". قلت في تلقاء نفسي "ويل لك". ولكن كان من الواضح أنه لن ينجو بسهولة من رئيسه. «كيف لا يخبرون! هل أنت مدرك ما الذي تقول يا آدم؟ ستحكي مشكلتك إلى المحقق العام».

شن "قوة التدخل السريع" بإرادته الفولاذية حملة عليه وهو يهجس قائلاً: «سيدي، ليس بهذا الشكل». لم يبق أي أثر من غطرسته عندما قال لصديقه "هل أنا راعٍ له؟" كان وكأنه سيبكي إن لمسته. أنا واثق أنه كان سيركع عند أقدام الضابط لولا وجودنا هناك. كيف يمكن للمرء أن ينظر في المرآة بعد أن يقع في هذه الحالات؟ لا بد أنه ينظر كما ينظر مئات الملايين من الناس.

قال والدي: «فلنذهب نحن إن انتهينا. سيزداد قلق أمه عليه». لقد أزعج والدي أنه كان شاهداً على "المشاكل العائلية" هذه.

تنفس أونور تشاليشكان الصعداء العميق مدخلاً أصابعه في شعره. لقد فهمنا نحن أنه كان يحاول السيطرة على أعصابه. إنهم يتعلمون هذه الحيل من الأفلام الأميركية دائماً. «متأسف. لم ينته بعد. سأرسلكما بعد خمس دقائق. سيوصلكما الرفاق إلى منزلكما. والآن حدثاني بكل ما تعرفانه بخصوص السيد جحابي».

قال والدي واضعاً يديه في جيبه: «ولكن نحن هنا منذ ساعة، وقد نسيت عبوة السجائر في المنزل من العجلة».

قفز "ضابط رعاة البقر الشجاع" من مكانه وضيف والدي سيجارة صامصون وأشعلها. «أنتم لا تدخنون، أليس كذلك يا سيدي؟»

قال أونور تشاليشكان: «لا، لا أدخن».

بدأ والدي الحديث نافخاً دخان سيجارته في الهواء وقال: «صراحةً، لم يكن لدينا المعرفة القوية معه». ثم أكمل: «كل ما هنالك أننا تحدثنا نحو خمس مرات على الأقدام. كنا نتبادل السلام عندما نلتقي في الشارع. هذا كل شيء. كان يعيش وحيداً. كانت هناك زوجته الأصغر سناً منه بكثير ولكنها تُوفيت قبل نحو ثلاث سنين. في حادث مرور على ما أظن. أساساً إن ابنه الكبير ضابط. لم يكن يبدو في الأوساط باستثناء عطل نهاية الأسبوع والعطل الرسمية. والآخر قد سجل في بداية هذه السنة في جامعة خارج إسطنبول، ورحل. ولكن إن سألتموني أين، لا أعرف ذلك».

«أسماء أولاده؟»

قلت: «الكبير شامي، والصغير ربيع». إنها أسماء من النوع الذي لا يمكن نسيانه طيلة الحياة. «إن الأخ ربيع يدرس في جامعة أولوداغ. في بورصة». كان الأخ ربيع أكثر الناس خارقي الذكاء الذين عرفتهم في حياتي. كان يصنع مظلات قفز من المظلات، ويقفز من الطابق الثالث. وقد تحدثت عدة مرات معه. وقد تعلمت منه أنه هناك ممر سري يربط مستودعات فحم العديد من المباني الموجودة

في الحي. وبحسب قوله، إن هناك نفقاً، الله أعلم بأي غاية حفر قبل عدة سنوات تحت الأرض، يمكن اجتياز الشوارع من عدة نقاط من جانب إلى الجانب الآخر. الله أعلم كم تعذب وصنع خريطة عملاقة لها. وكتب عليها بالقلم الكحولي "*top-secret*". كان يعمل ليلاً ونهاراً على خطط ومشاريع كيفية الهرب إن داهم الجنود اليونانيون منزله. كان عنده "خوف يوناني" مجنون من هذا النوع.

«وهل تعرفون أحداً يمكننا أن نحصل منه على معلومات تفصيلية أكثر حول السيد حجابي؟»

أعطى والدي أسماء عدد من جيرانه. إضافةً إلى اسم البقال. فعلاً كان البقال يعقوب والمرحوم يتحدثان كثيراً. بالأحرى، كان السيد حجابي يتحدث باستمرار حول أحوال البلد، وكان يعقوب يهز رأسه.

اتجه أونور تشاليشكان بحالات حيرة باتجاهي. «هل تمكنت من ملاحظة إن كان الباب قد خلع أو لا؟»

«لم أنتبه كثيراً ولكن لا أذكر شيئاً يدل على أنه خلع».

«إن كان هذا صحيحاً فالقاتل... ماذا كان اسمه؟»

قلت: «أرتان المجنون».

«هذا يعني أنه أدخل أرتان المجنون بنفسه إلى الداخل. هل تعرف أي شيء يسبب قيام أرتان المجنون هذا بسن أسنانه على السيد حجابي؟»

هززت رأسي بكلا الطرفين. «أذكر أنه وبخ أرتان المجنون عدة مرات، ولكن أساساً كان السيد حجابي يوبخ الجميع».

«أي نوع من التوبيخ؟ هل كان يقتله مثلاً؟»

«لا. كان يصرخ عليه. لا تفعل هذا ولا تقم بذلك. وإن سألتني عن رأيي، هو لم يكن يدرك أنه يصرخ. لأن سمع السيد حجابي ثقيل جداً».

«وهل يخطر ببالك أي علاقة أخرى بينهما؟»

توقفت للحظة وفكرت. «نعم كلاهما كانا مجنونين».

ترك "ملك المحققين" الكتابة عندما سمع تصريحي حول رجل أمن سابق، ونظر في عيني قائده كي يعرف يا ترى هل يجب أن يلقي القبض علي. ولكنه ابتسم مثل الرأس المطبوخ عندما رآه يضحك. لا بد لي أن أستنفد فرصي. وأضفت: «ولكن كلاهما مجنونان غير ضارين».

حك أونور تشاليشكان رأسه. «لا أعرف عن المرحوم، ولكن من الواضح أنه لا يمكن القول عن الآخر إنه عديم الضرر».

قلت: «أنا لا أعتقد أن أرتان المجنون سيرتكب شيئاً كهذا».

وافقني والدي قائلاً: «في الحقيقة، أرتان المجنون لا يؤذي نملة».

«يصعب عليكما معرفة هذا». قالها "رجل التحري السمي" موجهاً قلمه نحو أنف والدي. «يا للرجال الذين رأيناهم هنا قد ارتكبوا أشياء كثيرة».

قال أونور تشاليشكان: «حدثاني قليلاً عن أرتان المجنون هذا. منذ متى يقطن في حيكم؟ هل من قريب له؟»

قال والدي: «مر على انتقالنا إلى الحي أكثر من سنتين. لا أذكر سوى أن أرتان كان يجول في أحيائنا. إنه شخص مسكين. بحسب علمي لا يملك أقرباء. كان يتجول محدثاً نفسه وهو ينظر إلى الهواء. يعيش صيفاً في الشوارع، وشتاءً تحت السرادق. يعطيه سكان الحي ألبسة قديمة وبعض الأطعمة. لم أر حتى الآن أي عدائية عنده. أساساً كان جباناً جداً. إذا صرخت فيه يبحث عن ثقب ليختبئ».

قلت: «هذا صحيح. حتى إنه كان يخاف من الأولاد. وكان أصحابي عديمو الأخلاق يؤذونه كثيراً. لذلك إن كان سيقتل أحدهم، كان سيأتي دور جلال فقير الدم وجمال الدين قبل السيد حجابي بكثير».

«وهل حصل أي شيء لفت انتباهك قبل تحطم النوافذ؟ أحد الأشخاص المشبوهين الذين دخلوا وخرجوا من مبنى السيد حجابي أو كان يتجول في الأوساط؟»

صحت قائلاً: «هذا صحيح. كيف راح عن بالي هذا!»

انحنى الضابط المساعد باتجاهي قائلاً: «ماذا؟ ماذا؟»

«أعتقد أنه قبل الحادثة بنحو خمس عشرة دقيقة أو عشرين دقيقة. رأيت أحدهم يبتعد راكضاً من ذلك الاتجاه».

«كيف كان هذا؟»

«لا أعرف. أساساً لقد سمعت خطوات الأقدام. ثم دخل إلى...» كان قد زاد حماس الشرطي الشاب. «هيا يا بني تكلم. إلى أين دخل؟»

إن حقائق الإفادة التي سأدلي بها مرت برأسي بسرعة البرق. كان أشبه بالأكيد أن الغضنفر سيذهب ضحية إن أعطيت اسم مبنى كوزيل يايلا. كنت بلا شك سأستمتع كثيراً بقيام الشرطة بقتله بشكل جيد. ولكن لم أكن أريد التبلي على شخص بريء. من ناحية أخرى لم تكن هناك في تلك اللحظة طريقة أخرى لأبعد الشكوك عن أرتان المجنون ولو بقليل. أعطيت قراري. «أعتقد إلى مبنى كوزيل يايلا. ولكني لست متأكداً».

نهض أونور تشاليشكان، وانحنى باتجاهي قائلاً: «قل الحقيقة. هل تعرف ذلك الشخص؟» يعتقد أنه سيطبق علي ضغطاً نفسياً. ما الفائدة لو أصبح كله كتلة من الضغط النفسي؟ ما كان يؤنبني هو محاسبتي لنفسي.

أمسك والدي بالشرطي المتحمس من كتفه. «اهدأ يا سيادة الشرطي. ها هو الولد يحكي ما يعرفه».

يبدو أن أونور تشاليشكان أدرك أنه تصرف بسخافة حيث أنه اعتذر وجلس مكانه. صراحةً، أقدر له لطافته غير الموجودة لدى أغلب زملائه.

قلت: «كما قلت، لم أره جيداً. كل ما أستطيع قوله إنه كان نحيفاً وطويل القامة».

«هل تعرفون أحداً يقطن هناك يتطابق مع هذه المواصفات؟»

ها قد وصلنا إلى الموضوع الجدي. لم أستطع أن أقرر ما الذي عليّ فعله. هل كان علي أن أعطي اسم الغضنفر يا ترى؟ حقيقة الأمر أن كلاً من أركين وكوراي والأخ ظافر يتطابقون مع هذه المواصفات كثيراً. حتى إني فكرت أنه يجب أن أبكي. لا بأس، فقد لحق والدي لنجدتي مرة أخرى. «أنتم من سيجده. ألا ترون الحالة التي وقع فيها الطفل؟ دعونا نذهب!»

انهمر أونور تشاليشكان على كرسيه بعد لحظة تردد صغيرة. بلا شك أنه كان يلعن قدره لأنه كان مناوباً في تلك الليلة. «إنكم على حق. حسناً. ربما عرف الرفاق بعض الشيء من المجنون. يا آدم! اذهب واسأل عن الوضع».

ركض "سيف العدالة" لينفذ واجبه بعد أن صاح «أمرك سيدي» منتهزاً الفرصة المناسبة لينسي قائده الإهمال الذي بدر منه.

قلت: «حتى لو نفذت الجريمة أمام عينيه، فلا أعتقد أنه سيكون بمقدوره إعطاؤكم معلومات. لقد أغمي عليه مرتين عندما كان يُجلب إلى هنا. عليكم معاملته بشكل ألطف إن كنتم تريدون معرفة شيء».

سأل أونور تشاليشكان والدي موجهاً إصبعه باتجاهي: «ماذا تغذون هذا؟»

قلت: «لقد تعبت كثيراً». كنت قد تعبت فعلاً.

قال الشرطي: «حسناً أيها الصغير. بات بإمكانك الذهاب. ولكن يمكن أن يطلب النائب العام لقاءك. فليكن هذا بعلمك. والآن سأجري اتصالاً وأدبر سيارة لكم».

قال والدي وهو ينهض: «شكراً. لا داعي للسيارة. سنذهب راجلين».

قال أونور تشاليشكان قبل أن نخرج لوالدي شيئاً بهمس. أعتقد أنها أشياء على شاكلة ألّا نغادر البلدة، وأن يعتنوا بي بشكل جيد. كان الضابط المساعد أونور تشاليشكان يبدو لا بأس به مقارنةً مع أمثال الشرطي آدم. كانت تجارب الحياة يمكن أن تجعله أنضج بعض الشيء. أو أن تلوثه أيضاً. أساساً إن هذا الاحتمال كان يبدو أقرب إلى العقل.

لم أتحدث أنا ووالدي طيلة طريق العودة إلى المنزل. واثق أنه هو أيضاً كان قلقاً، وهناك أشياء يريد أن يسألني إياها، ولكنه فضل أن يحترم صمتي. وأنا بدوري قدمت له "مرحى" من تلقاء نفسي. ولكن لم أكن واثقاً أن أمي ستتصرف بنفس المشاعر اتجاهي. على الأقل كنت أدعو ألّا تضغط علي في تلك الليلة.

تحركت باتجاه الحمام في اللحظة التي فتحت أمي الباب دون أن أنظر إلى وجهها. «أنا منهك. سأنام فوراً».

أغلقت على نفسي باب الغرفة بعد أن غسلت وجهي ويدي وبعد تنظيف أسناني. كنت أستطيع سماع أمي وهي تمطر أبي بالأسئلة. ارتديت ألبسة النوم ودخلت الفراش. كنت بحاجة لأستريح. ولكن لم أكن أستطيع الاسترخاء. كان عقلي يلقي صور الأحداث التي عشتها خلال اليوم بشكل متقطع وعشوائي. في حين كنت أحاول طرد هذه الأشباح الظلامية من عقلي، كانت تهاجمني بشكل أشد. فقدت جميع حواسي السيطرة. صوت أمي، الوسادة الملامسة خدي، الثريا المتدلية من السقف... كلها كانت تثير جنوني. كنت بحالة يرثى لها. ثم كففت عن الصراع وخرجت من الفراش. ذهبت وأخرجت من السحاب المسدس اللعبة الذي هو هدية الخالة كونول. وضعت في المخزن رصاصات بلاستيكية حمراء اللون وعدت إلى الفراش. كشفت، وأنا في حالة الجلوس، ستائر النافذة التي تقع على يميني، ونظرت إلى الخارج. أساساً أنا أفعل هذا كل ليلة تقريباً. كان عندي شعور غير وكأني سأرى الرب في الطرف الآخر من النافذة، وسيوضح لي أن كل شيء عبارة عن مزحة. ولا سيما أن هذا الرب، الذي أتخيله

برأس على هيئة الكمان وشعره المتدلي من صدغه، الذي كان ينساب في الهواء، كان يشبه إلى حد كبير جارنا في الدور العلوي العم حسن. أدركت سبب هذا منذ مدة قصيرة. عندما كان يحدثني والدي عن الخالق العظيم، كان يخبرني أنه يسكن في الأعلى. بالنسبة إلي كان الشخص الذي يسكن في الأعلى هو العم حسن. لماذا العم حسن وليست زوجته الخالة سيفيم؟ هل بسبب ثقافة الهيمنة الذكورية. كيف يتم زج هذا في العقول؟ سحبت اللحاف على رأسي فجأةً، ووضعت المسدس على صدغي، وضغط على الزناد. شعرت بوخزة لذيذة في رأسي. إن الألم الجسدي شتت الأفكار المؤلمة. لا أذكر البقية.

- ٤ -

الرجل المعتل اجتماعياً الذي في المكتب

عندما استيقظت في اليوم التالي كان الوقت قد أصبح الظهيرة. ذهبت إلى الصالون فوراً، وتفقدت الشارع من النافذة. لم تكن توجد حركة خاصة تلفت الانتباه. رفعت رأسي ونظرت إلى منزل السيد حجابي. كانت النوافذ محطمة. نعم، إن ما عشته يوم الأمس كان حقيقياً. ولكن ما المقصود بالحقيقي؟ تناولت الفطور بسرعة، ونزلت إلى الأسفل. كنت أريد أن أجد الأولاد فوراً. بما أنهم ليسوا في الأوساط، فهم إما في حديقة منزل جمال الدين وإما لدى يوكسيل. صراحةً لم أكن أجرؤ على الذهاب إلى بناء كوزيل يايلا. فذهبت إلى العنوان الثاني مباشرةً. كان والد يوكسيل مصوراً فوتوغرافياً. لم يكن فناناً ولكنه كان يعمل ضمن إستديو بحجم المؤخرة منذ الصباح حتى المساء وهو يصور صور وثائق. كانوا يسكنون في منزل مستقل بطابقين يقع على الشارع الذي يقطع زقاقنا بشكل عمودي. كان عندهم حديقة فائقة العناية مليئة بالنباتات المتسلقة ونباتات الزينة والعديد من النباتات الأخرى التي غطت سقفها ولا سيما الفراغ أسفل الأدراج التي تصعد إلى مدخل المنزل، كان مكاناً رائعاً للاجتماعات. لهذا السبب كنا نستخدم المكان هناك كقاعدة في حروب الأحياء. دخلت الحديقة قافزاً من فوق البوابة. كان فقير الدم وهاكان ويوكسيل أسفل الأدراج. كان يرتدي هاكان اللباس المدرسي. وقد رمى بحقيبته في إحدى الزوايا. إذن قد خرج من المدرسة، وجاء إلى هنا مباشرةً. ذهبت إلى جانبهم وقلت: «مرحباً». طبعاً لم أهمل إلقاء سلام خاص على هاكان. «ما أخبار أويا وكايا؟»

جهّم هاكان وجهه. «لا تسأل يا هذا... لقد أعطتني المعلمة عدة واجبات أخرى».

كان يتحضر ليقدم لي تفاصيل عن محتوى الواجبات عندما قاطعته قائلاً: «إياك،» وأكملت: «أبعدها عني».

قال جلال فقير الدم: «قد قُتل العم حجابي في البارحة، وأنت نائم».

قلت: «أعرف، فقد كنت هناك عندما ذُبحت حنجرته».

التفت هاكان بعينيه الدامعتين منذ الولادة باتجاهي. وقال يوكسيل بصوته الإنفلونزي المخنوق كالعادة: «ماذا؟»

وضع جلال فقير الدم ثقله فوراً بطبيعة الحال وضحك قائلاً: «دعك من الكذب يا أخي». رغم ذلك، كنت متأكداً أن كلماتي قد أيقظت الفضول لديه.

قلت: «أقول الحقيقة. فطيلة ليل أمس كنت في المخفر مع والدي». كنت مدركاً أني أخطأت بتبيان هذا، ولكن لم أكن أقف بوجه رغبتي في إحداث تأثير قوي. فكرت بأنه بما أنني أبليت بهذا، فلأستمتع به. انتزعت غصناً صغيراً من شجرة الضراط التي في متناولي، ووضعته بين أسناني. انهمرت بحركات ثقيلة على المرتفع الحجري الذي بجانب الأدراج. وبدأت بالنظر نحو البعيد. كنت سأتصدع من شدة التبختر. وحدثتهم عن كل ما جرى بعد أن تكتلوا جميعهم حولي مجتازاً فصل الرجل الغريب الغامض الذي دخل مبنى كوزيل يايلا. لم أكن أتقبل بعد مخاطرة وصول الحديث إلى مسامع الغضنفر.

بقوا يفكرون لمدة من الزمن بعد أن انتهيت. على ما يبدو أنهم غاروا مني بعض الشيء على ما عشته. كان يوكسيل أول المتحدثين. «انظروا لأرتان المجنون كيف قطع الرجل قطعاً قطعاً!»

«وأنا أيضاً لا يتقبل عقلي هذا». قالها فقير الدم الذي كان يجلس على أحد الأدراج وينكش بأنفه. «أي إنه شيء مثير للحيرة».

قال هاكان: «الرجل مجنون يا أخي. اسم على مسمى، أرتان المجنون».

قلت: «إن أردتم رأيي، فلا علاقة للأمر بجنونه. فقد قال لي إنه خطط لهذه الجريمة منذ عدة أشهر».

قفز هاكان الأبله قائلاً: «حقاً يا هذا؟ وهل قال شيئاً آخر؟»

«طبعاً. هذه بداية فقط. وقال أنه سيثأر من جميع الذين يعبثون معي فرداً فرداً.» نظرت خلسةً إلى جلال فقير الدم. كان يرمقني ليعرف إن كنت جاداً أم لا.

قال يوكسيل: «ما بالك يا فقير الدم؟ فقد شحب لونك فجأةً».

لم أتمالك نفسي، وبدأت بالضحك. وشاركني يوكسيل وهاكان أيضاً. رد علينا جلال فقير الدم بشتيمة. إن اشتعلت الأجواء بيننا قليلاً فلا بد من المزاح بالأيدي. عندما رأيت يوكسيل ينقر أذن جلال بأصبعه بشكل وحشي، صارعتُ هاكان فوراً. من ناحية، كان فقير الدم يشن هجوماً معاكساً على الصفوف الأمامية ليوكسيل، ومن ناحية أخرى كان يصيح قائلاً: «شششت انظر! كنت تمزح أليس كذلك؟ أساساً لم يقل أرتان شيئاً كهذا، أليس كذلك؟»

في حين كنا نتصارع، بان جمال الدين وأتى. رغم محاولة فقير الدم اعتراضه فوراً محاولاً ضمه إلى احتفالاتنا، فقد دفعه جمال الدين وقال: «ابتعد عني يا أخي، لا يمكنني العبث معك الآن».

سأل فقير الدم: «ماذا يحصل يا جيمو؟»

كان وجه جمال الدين متألماً. استنشق مخاطه بألم شديد. «أخذتْ الشرطة أخي الغضنفر».

قال فقير الدم: «بلا شك أن عائلة برهان قد اشتكت عليه. إنهم محقون».

قال جمال الدين: «ربما». أنا لم أكن متأكداً من هذا. فسألته: «ألم تقل الشرطة لكم لماذا أخذوا أخاك؟»

«لا. فقد أخذوه ورحلوا».

تضايقت قليلاً. كنت أوشك أن أقول شيئاً يفضح أمري إلا أن هاكان قال: «لم تنهوا مباراة البارحة».

قال فقير الدم مشيراً إلى جمال الدين: «جاء أَخَ هذا المختل وخرب المباراة».

قال هاكان بحماس: «هل نلعب مباراة هذا المساء؟ كما أني يمكنني اللعب هذه المرة».

قال فقير الدم بغضب: «لا نريد حارساً ليناً».

قال يوكسيل: «اذهب والعب لعبة الحجلة مع البنات».

غضب هاكان كثيراً. «ماذا تقول أنت؟» استمر يوكسيل بمهاجمته قائلاً: «أنت مثل النسوة، هل هذا كذب؟»

إن العبث مع هاكان قد شتت ضيق جمال الدين. فقد بدأ ينكش شعر هاكان بطريقة مثيرة للغضب صائحاً: «مثل النسوة! مثل النسوة!»

أمسك هاكان حقيبته بحماس شديد ونهض. «أيها السافلون!» ذهب راكضاً بعد أن نظر إلى وجهي للحظة بعينيه التي تراكمت الدموع فيهما.

كانت متعة الرفاق في قمتها. كانت تبرق عيونهم عندما يجدون فرصة سحق أحدهم. ولا سيما أنهم لن ينالوا شيئاً. كانوا يفعلون هذا فقط لتحقير الآخرين. بقصد المتعة. كنت أستغرب من عقول الذين ينظرون إلى الأطفال ويسطرون أدبيات البراءة والبساطة والجمال. عندما أنظر أنا إلى الرفاق لا أرى شيئاً سوى أكثر الحالات العارية والواضحة لأسفل ما يمكن أن يقوم به الإنسان. إني لا أصنف نفسي في مكان بعيد عنهم. أنا فقط تمكنت بحسب القدر أن أطور أساليب أكثر نقاوة لعكس البشاعة التي في داخلي إلى الخارج.

عدت إلى المنزل بعد أن قضيت هناك عدة ساعات أخرى. لم أكن أريد فعل شيء. تناولت كتاباً، واستلقيت على الأريكة التي في غرفتي. لقد غفوت. نهضت عند المساء وجهزت المائدة. وضعت قبل ساعة وصول أبويّ إلى المنزل بنحو عشر دقائق الطعام الباقي منذ البارحة لكي يسخن. قدرت أمي تصرفي هذا كثيراً. إلا أني لاحظت أني أخطأت بعد قيامي عن المائدة مباشرةً. كنا قد تناولنا الطعام قبل موعده المعتاد بسبب تصرفاتي الفضولية هذه، وهذا يعني أن هناك ستين دقيقة إضافية بالنسبة للجميع غير معروف كيف سيتم قضاؤها. كان فم أمي يتثاءب أكثر بضعفين عن المعتاد. ووالدي الذي يعقب السيجارة بالسيجارة كان يتمشى منفخاً. كنت قد خربت الروتين الرائع الذي يؤمن موت اليوم بشكل أقل ألماً. أي ساعة يتم تناول الطعام، من متى إلى متى تتم مشاهدة التلفاز، أي ساعة يتم الذهاب إلى الحمام، أي ساعة يتم التقوقع والنوم... كانت العلاقة بين الفعاليات المنفذة والزمن نتيجة لمرحلة تطورية، إن الوقوف في وجه التطور ليس عملاً يقوم به إنسان عاقل.

كنت أخطط أن أرمي نفسي من النافذة كي أنهي الصمت المليء بالعذاب في المنزل حتى إن رن الجرس. هبت من فم أمي، التي فتحت الباب، صرخة تفاجئ صغيرة. كان الفتى ذو المترين تقريباً، الذي اضطر لحني رأسه عند دخوله من المدخل إلى غرفة الجلوس، ليس إلا الأخ ربيع.

احتضنه والدي بالقول: «ربيع، أهلاً بك يا بني. البقية بحياتك».

قال الأخ ربيع: «حياتكم الباقية».

أمي أيضاً أبدت حزنها بطريقتها: «آه يا بني، كيف تورمت عيناك. اغسل يديك ووجهك واستعد صحوتك». وكانت تشير بيدها إلى الحمام.

جلس الأخ ربيع مع جراثيمه على أحد الكراسي قائلاً: «لا داعي يا خالة. أنا بخير. ضايقتكم في هذه الساعة، متأسف...» قال أبويّ بصوت واحد شيئاً يبين أن هذا غير مهم أبداً.

«سمعت بالخبر صباح اليوم. لم أتمكن من الترجل من الحافلة سوى بعد الظهيرة. تارةً المستشفى، وتارةً المخفر حتى أصبحت الساعة هكذا. مازال أخي شامي مشغولاً بمراسم الجنازة. كان قد أوصى أبي بدفنه بجانب والدتي ولكن جانب أمي ممتلئ...»

قالت أمي: «ما أهمية ذلك يا بني، لأجهز شيئاً سريعاً لك إن كنت جائعاً. وأنت تغسل يديك وتجلس على المائدة فوراً».

«لا تكلفي نفسك. لست بحالة أستطيع الأكل فيها».

سحبت أمي، التي فقدت الأمل في إرساله إلى الحمام، كرسياً لنفسها وتكتفت. «كيف حال الدراسة؟ هل هي على ما يرام؟»

أتساءل إلى متى سيبقى الأخ ربيع يتصرف وكأنه جاء إلينا فقط بزيارة معايدة.

بالرغم من كامل لطافة الأخ ربيع، فقد تجاهل هذا السؤال وتوجه إلي. «كيف حالك أنت؟»

«بخير يا أخي ربيع». «أنت من وجد ذلك "الشيء" البارحة. هكذا قالوا في المخفر...»

لم تكن أجواء الجريمة التي انبثقت في الوسط فجأة شيئاً محتملاً بالنسبة لأمي. انتصبت على قدميها أمام مصطلح "الشيء" الذي مرره الأخ ربيع وكأنه مقابل للجثة. «إذاً لأحضر القهوة أنا».

همهم أبي قائلاً: «أصبت».

قال الأخ ربيع: «لا أستطيع التصديق». واضعاً رأسه بين يديه. «كيف جرى ذلك؟» وكأنه إذا أقنع نفسه بعدم منطقية كل شيء سيتمكن من نفي حقيقة الأحداث التي جرت.

قال أبي: «دعك من التفكير في ذلك، لا فائدة منه».

«ماذا أراد أرتان المجنون من أبي؟»

لم يكن الوقت مناسباً ولا المكان لأدلي بشبهاتي بخصوص هوية القاتل. لهذا السبب أغلقت فمي.

همهم الأخ ربيع محدقاً بي: «أيها المسكين، ستبقى طيلة الحياة...»

لم أستطع القول "لا تحزن، لن يؤثر بي". سألت: «هل حصلتم من الشرطة على معلومة ما خارج الشهادة التي أدليت بها؟»

هز الأخ ربيع كتفيه. «حاولوا استنطاق المجنون لماذا ارتكب الجريمة ولكن بلا جدوى. قال النائب العام إنه من المحتمل ستتم إحالته إلى مستشفى المجانين بعد المحكمة. أساساً هو أيضاً لا يرضى بإحالته إلى السجن لأن وضعه العقلي ليس بمكانه. سيستمر توقيفه في نظارة المخفر حتى يوم المحاكمة. سيخلون سبيله بعد سنة تقريباً من المعالجة. هل تتخيلون ذلك؟»

في حين توجد إمكانية لإعدام الرجل، أليس كذلك؟ كنت أتقبل بتفهم ألم الأخ ربيع، ولكن حقيقة حتى لو كان مجرماً، لم أكن أفهم كيف يمكن لمشاعر العدالة أن تكون مطمئنة بأذية شخص مسكين. ألن أتقابل في هذا العالم مع امرئ يستطيع إيجاد الإبرة في كومة القش؟

قال الأخ ربيع مغمضاً عينيه بريبة: «ربما تم استخدامه».

طبعاً. من قبل اليونانيين[1]. لم أتمالك نفسي وقلت: «إن استخدامه صعب قليلاً. في الحقيقة لو أردت ذبح حلق أحدهم، لما كنت لأستخدم أحداً مختلاً عقلياً. أي أنه كيف يمكن أن تشير إلى الهدف؟ دعك من معرفة من يكون السيد حجابي، لو سألت أين يكون الحلق سيشير إلى المؤخرة».

بعد أن ابتلع الأخ ربيع ريقه قال: «الحلق؟» وأجهش بالبكاء. في الحقيقة كنت أنتظر ذلك. استخدمت ذلك المصطلح مرتين من أجل أن يستعيد وعيه.

---

(١) بسبب العداء بين الأتراك واليونان. [المترجم]

خلقت أمي فجأة منديلاً ورقياً من العدم وألحقته به كيلا يملأ الأرض بالمخاط. بعد أن درأ الأخ ربيع إفرازاته في المنديل، استقام مطيحاً بالكرسي على الأرض. «آه، متأسف... فلأذهب. أساساً كنت قد مررت لأعرف وضع الطفل. عكّرت مزاجكم في هذا الليل...»

ذهبت بأنظاري إلى مكان آخر. كان يؤنبني ضميري لأني وضعته في هذا الحال. كما قلت، إني شخص سافل كباقي الأطفال.

كان أبي قد أدخل يده بيد الأخ ربيع. «دعك من هذا يا بني. اجلس قليلاً. اشرب قهوتك على الأقل».

«لا لا. فلأذهب أنا».

«أين ستبقى؟»

نشق الأخ ربيع أنفه. «سأستأجر غرفة».

«هل سيأتي شامي أيضاً؟»

«أعتقد أنه في الجانب الآخر[1]، سيبقى في نادي الضباط».

قال أبي: «إذاً لا تبقى وحدك في هذا الحال. ستقضي هذه الليلة هنا. سنجهز الأريكة التي في غرفة الصبي». وأنا سأجعله يبكي حتى الصباح وأرسله إلى جانب والده.

وافق الأخ ربيع على المبيت عندنا في تلك الليلة بعد مشاركة أمي لإلحاح والدي. لم نتكلم كثيراً بعدها. أعطت أمي للأخ ربيع أحد ألبسة نوم والدي الرياضية التي كانت قد ارتخت كثيراً نتيجة غسلها آلاف المرات. في الساعات المقبلة، فتحنا التلفاز، وتعلقنا بفيلم باقتراح من أبي كي نشتت أذهاننا. لسوء الحظ أن مع تقدمنا بالمشاهدة اتضح أنه فيلم بوليسي، كان الشرطي الشهم من نيويورك يحاول إلقاء القبض على قاتل مختل ارتكب سلسلة جرائم. كانت العظام

(١) الجانب الآخر من إسطنبول، أحد قسمي إسطنبول الأناضول أو تركيا. [المترجم]

المكسرة والجثث المثقبة والرؤوس المفصومة مبعثرةً في كل مكان، وكانت الدماء تتصبب في كل مشهد. ولا سيما أن المخرج صور هذا الفيلم وكأنه ليثبت صحة مقولة "الروح الإنسانية لا تخرج بسهولة". كانت تعرض الجرائم مطولاً دون تخطي أي تفصيل بخصوص عناصر الوحشية المحتواة فيها. مثلاً سيفتت القاتل دماغاً بالشمعدان النحاسي، اضرب واضرب واضرب، يشتغل لمدة أربع دقائق ونصف على الضحية. كنت أنتظر اللحظة التي سيدخل فيها ضيفنا المتوتر في نوبة عصبية. إلا أنه لم يحدث ما كنت أخافه. كان يبدو الأخ ربيع منهمكاً جداً في الفيلم. من الواضح أن كلماتي أحدثت نوعاً من التأثير اللقاحي عليه. إضافةً إلى أنه شاهد جميع مشاهد الذبح ببرودة دم كبيرة، كما أنه بعد فترة بدأ يحلل تحليلات حول هوية القاتل. كان يدعي أن صاحب السفينة اليوناني من ارتكب الجريمة. المضحك في الأمر أنه كان محقاً.

بعد أن أعلنت أمي أنه بإمكاننا النوم بعد غسل أيدينا ووجهنا وأقدامنا، قلت لأبي: «أريد الذهاب معك إلى المكتب غداً».

قال أبي: «حسناً، ولكن ليكن بعلمك، إن لم تنهض من الفراش فوراً لن أحاول معك كثيراً».

قلت: «اتفقنا».

عندما أنهيت عملي في الحمام ودخلت غرفتي، كان الأخ ربيع قد نام. كانت قدماه ممتدة خارج الأريكة. كنت أريد مداواة قلبه الذي جرحته بشكل من الأشكال ولكن لم أكن أعرف تماماً ماذا كنت سأقول. ذهبت بهدوء نحو النافذة، ونظرت إلى الخارج. لم يلفت انتباهي شيء سوى براز العصافير الذي على إطار النافذة. كالعادة لم يكن الرب موجوداً في الأوساط. كنت بلا جدوى سأنتظر الليلة التالية. رفعت الغطاء ودخلت الفراش. كنت على وشك أن أغط في النوم حتى سمعت صوتاً: «أعرف، إن الكثير من الناس يكرهونني أنا وعائلتي».

كانت هذه الكلمات قد فاجأتني من جهة، وأخافتني من جهة أخرى. أزحت الستار وتفقدت الخارج مرة أخرى قبل الرد مقابل أي احتمال ممكن. لم

يكن الرب. لا بد أنه الأخ ربيع. قلت له بهدف تعزيته: «لا يوجد الكثير من الناس البغيضين في العالم». قررت بشكل قاطع، بعد أن تفوهت بهذه الكلمات، أنني لن أفلح أبداً في الحياة. كنت أنوي مواساته في الحسبان. وأضفت كي أنقذ الموقف: «كما أن العم حجابي كان لطيفاً جداً».

كان واضحاً جداً أن الكلمات الأخيرة تفوهت بها دون قناعة، ولكن كالكثير من الناس صدق هذا الساذج ما أراد سماعه. «برأيي أنا أيضاً كذلك. الكثير من الناس لا يعرفون ولكن لديه جانب لطيف جداً».

صححت له: «كان لديه». فلتلسعني الدبابير في لساني.

طبعاً بدأ بالبكاء مجدداً. همهم بالقول محدقاً بالسقف بعد أن هدأ: «لم يكن أباً لنا وحدنا، بل كان يقوم بواجب الأبوة حتى على المساكين الذين اضطروا على ارتكاب هذه الجريمة. كان يطعمهم، يضع النقود في جيوبهم، حتى أنه كان يحضر بعضهم إلى المنزل إلى أن يجدوا مطرحاً يناموا فيه وعملاً لهم. من يدري كم شاباً أكسبهم إلى المجتمع».

فكرت أنه يبالغ بلا شك. «إنه تصرف أصيل بالفعل».

«هو الآن بمكان أفضل بكثير».

قيمت هذا الادعاء قليلاً كي أتمكن من موافقته الرأي حتى ولو لمرة واحدة. اللامكان أيضاً يعد مكاناً، حسناً. قلت: «نعم». نعست كثيراً. إن قلة النوم يترك أثراً عليّ يشبه تأثير السُّكْر. «أظهرت لنا مفارقة راسل[1] بوضوح أن كل شيء موجود في اللاشيء. لا أعرف، هل أنا عديم المشاعر؟»

«ماذا؟ لم أفهم».

---

(١) مفارقة راسل أو "راسل بارادوكس": المعروفة أيضاً بتناقض قوانين راسل التي وضعها برتراند راسل في عام ١٩٠١، توضّح أن نظرية المجموعات المبسطة التي وضعها جورج كانتور تؤدي إلى التناقض. [المترجم]

كان واضح جداً أن هذا الحديث لن يحقق أي هدف. «لا شيء أخي ربيع. أقول إنك محق. أنا واثق أن والدك ما كان يريدك أن تزعل أكثر. لا أنت ولا الأخ شامي ولا... البقال يعقوب». أساساً لم أكن متأكداً من زعل البقال يعقوب، ولكن لم يخطر ببالي قريب آخر لديه.

«صحيح. لا بد أن الأخ يعقوب منهار أيضاً».

كان علي أن أصمت كيلا أذل لساني أكثر من ذلك. «أنت متعب جداً يا أخي ربيع. حاول أن تنام قليلاً».

قال: «يبدو أني لن أستطيع النوم جيداً رغم ذلك عمت مساءً». بعد خمس دقائق كان يشخر. كان يصدر ضجيجاً كبيراً لدرجة أني اضطررت لسحب وسادته خمس مرات تقريباً قبل أن أسلم نفسي لأيدي شقيق الموت.

استيقظت منذ الصباح الباكر بتحريض من أبي. كنت أنوي ضمنياً القول له أن يدعني وشأني ولكن اكتفيت برفع يدي. بقيت لمدة في الفراش دون فتح عيني بعد أن ذهب. بعد أن أخذت نفساً عميقاً، استقمت على فراشي بحزم كبير. كان الأخ ربيع، الذي تقوقع جيداً في الأريكة كي تتسع له، ينام وفمه مفتوح. نهضت وذهبت إلى الحمام. وضعت وجهي تحت الماء البارد كالثلج ونظفت عيني المرمصة والبصاق الجاف من على أطراف فمي بشكل جيد. من الواضح أن الشيطان عمل بجد في تلك الليلة. تناولت فطوراً مكتنزاً على عكس العادة على أمل أن يكسبني الطاقة الإيجابية التي سأحتاج إليها هذا اليوم. ارتديت شيئاً ملائماً علي، غسلت أسناني. حتى إني سرّحت شعري. بت بريقاً صغيراً من الطاقة الإيجابية من رأسي حتى أخمص قدميّ. كنت جاهزاً لألقن العالم درساً.

رغم أن أمي سعت قبل الخروج من المنزل لإيقاظ الأخ ربيع. أوقفها أبي بالقول: «دعي الفتى ينام». وعليه كتبت أمي له رسالة، وألصقت الورقة على باب المدخل "لا تخرج قبل تناول الفطور يا بني. كل شيء من عند الله. كل شيء في الثلاجة. اسحب البوابة بعزم ثلاث مرات. اخرج مع البسملة يا بني". بعد أن

خرجت أمي إلى الخارج نزعت الورقة من المكان الذي ألصقته فيه دون انتباهها ورميتها في جيبي. لم أمزقها ولكن لا أعلم لماذا. ربما كنت سأرسل هذه الوثيقة مستقبلاً إلى مؤتمر الأطباء النفسيين العالمية كي يتم تحليل جميع المعاني السرية التي تتضمنها ولتفسير قيمتها الحقيقية.

انطلقت مع العائلة. وصلنا بعد سير لمدة عشر دقائق إلى رأس الجسر الذي يقطع طريق أنقرة الإسفلتي، لا أدري من بعد كم كيلومتراً من المسافة. نزلنا من سلالم مصطنعة إلى جانب الإسفلت، وبدأنا ننتظر حافلة النقل. جاءت حافلة النقل السوداء الصغيرة قبل مرور الكثير من الوقت. مع لحظة فتح الباب ضرب وجهي هواء بحرارة أربعين درجة على الأقل مليء بروائح أفواه موظفي الدائرة. انحشر قليلاً الذين في المقعد الخلفي، وفتحوا مجالاً لأبي وأمي، وأنا بدوري دخلت، وجلست على النفور الذي فوق إطار الحافلة. كان قسم كبير من الركاب يحاولون إكمال قيلولتهم المنقطعة في المكان الذي يجلسون فيه، والبقية كانوا يعبسون. إن الشخص الوحيد الذي كان ضمن فرط نشاط لا معنى له هو زميل أمي في الغرفة السيد ثريا. كان قد حشر رئيس القسم السيد سادات على جانب الشباك، يحكي له بحرارة أنه لن يأتي بعد شون كونري بشخصية جيمس بوند. كان السيد سادات يوافق أقواله بطاعة، ولكن كنت واثقاً أنه في الأساس كان يريد خنق الرجل. كانت الأغنية الخامدة، ذات الصوت المنخفض التي تصدر من المذياع، تزيد من ثقل الجو الممرض في الوسط. نظرت من المرآة العاكسة إلى السائق "مطيع الله". كان شخصاً ضخماً مخيفاً يحمل في عينيه الزرقاء ملامح قاسيةً جداً. وبحسب قول أبي إن مهنته الأساسية هي سائق مسافات طويلة، وكان يقضي أوقات السنة بالذهاب والمجيء إلى الشرق[1]. كانوا يسلمونه حافلة النقل في بعض الأحيان كيلا يبقى بلا عمل. كان لا يخلع معطفه البني اللون عن ظهره أبداً. كان قليل الكلام، وعندما كان يتحدث كان يترك أثراً وكأنه يكره

(١) شرق الأناضول: منطقة شرق تركيا. [المترجم]

الناس لأنهم كانوا يجبرونه على ذلك. كانت هذه الحالات تليق به. كان رجلاً وحيداً. على عكس البقية، لم يكن يعيرني اهتماماً خاصاً، ولم يكن يفاجأ أمام أي شيء كنت أقوله. كنت أكن له الاحترام. هكذا الحال. في حين كانت حافلة مليئة بحياة مدمّرة، بقيادة القبطان المهيب مطيع الله أكتشابل، بمتوسط سرعة سبعين كيلومتر في الساعة، تتقدم بهم نحو خانة العذاب، التي سيستهلكون القليل منها بين الأوراق الواردة والصادرة، ما زالت البراغيث تتواثب على مؤخرة شون كونري الغارق في أحلام حفلة الكوكائين والجنس التي نظمها قبل ليلة في قصره.

ترجلنا من الحافلة عند حديقة المكتب، وافترقت أمي نحو المبنى الجديد الذي تعمل فيه. واتجهت أنا ووالدي نحو مستودع كبير فيه وسائل نقل ضخمة. في الأيام التي كنت أذهب فيها إلى المكتب، في حين ظل والدي يعمل في مكتبه، كنت عادةً أقفز على الشاحنات وسيارات النقل المتوسطة والصغيرة مبتكراً لعبة السائق لكن لم أفعل هكذا في ذلك اليوم. أغلقنا الباب أنا وأبي على أنفسنا في الغرفة وذهبت إلى خلف الآلة الكاتبة بأمل ربما أتمكن من كتابة منظومتين حين يكون يعمل هو. "أفكر بديكارت[1] وعيوني مغلقة / إما يأتيني الإلهام أو تأتيني سكتة دماغية"... ما تشكل في النتيجة، هو هراء يستمر على هذا النحو. للأسف إن ملاك الوحي كان بعيداً عني كما في كل مرة.

كنت قد مزقت للتو ورقة الملف التي كتبت عليها تحفتي لخمسمئة واثنتي عشرة قطعة حين سألني والدي: «لدي بعض الأعمال في مؤسسة الصحافة. هل تريد المجيء؟»

هززت رأسي بمعنى الرفض.

«حسناً إذن. إذا ما عدت حتى الظهيرة تناول الطعام مع أمك».

«أعرف مكان المطعم».

---

(١) جان ديكارت: رسام من مملكة إيطاليا والإمبراطورية النمساوية المجرية. [المترجم].

«أخبر كريم إذا احتجت شيئاً».

«حسناً لا تقلق».

عندما بقيت وحيداً في الغرفة رميت قصاصات الورق التي فوق المكتب في القمامة، وتنشقت عميقاً الهواء برائحة الرطوبة. فكرت بالعمل الذي يجب أن أنجزه. كان خطيراً ولكن لم يكن هناك خيار آخر. ولكن لم أشعر بأنني كنت جاهزاً بعد للتحرك. قررت اللهو مزيداً في الغرفة. انتقلت إلى كرسي والدي كي أرى العالم من هناك أيضاً.

كان على الطاولة الصغيرة التي في الجانب الأيمن حاسوب من العصر القديم بشاشة عرض بالألوان الأسود والأبيض. كنت واثقاً أنه لا ينفع شيئاً. كانوا قد وضعوه هناك كي تبرز الحداثة التي في دوائر الدولة. ظلت الفوضى التي فوق الطاولة بالمجمل مثيرةً للكآبة. دباغ طاولة بني اللون، مجموعة المداد، اللوحة النحاسية التي يكتب عليها اسم والدي... والأكثر مأساوية هي الصورة المحشورة بين الطاولة ولوح البلور الثقيل الذي يغطيها. صورة طفل صحته جيدة بنحو الثلاث سنوات من العمر، طفل موحش جالس على كرسي تحت نافذة مفتوحة يشاهد خارج الصورة بنظرات مظلمة بكنزته المقلمة وسرواله القصير الذي يبدو عليه أكبر من مقاسه، صورتي أنا، كنت وكأني سأختنق. لا أعرف كيف رميت نفسي خارجاً.

خُلق الحاجب كريم فوق رأسي فوراً في اللحظة التي خرجت فيها من المستودع. سأل وهو يحاول بلا جدوى تعديل ياقة بزة العمل زرقاء اللون بأزرارها المبكلة بشكل خاطئ: «هل كنت تريد الذهاب إلى أمك؟»

من الواضح أن أبي أمّنه بي. جميل جداً. يا ترى بمن أمّن كريم؟ «سأخرج قليلاً إلى الحديقة لأشم الهواء».

كان قد اكفهر وجه كريم فجأةً. طبعاً. كان يعرف كيف سيتصرف إن أردت شـيئاً أو أردت الذهـاب إلى الحمام أو إلى أمي ولكن لم تكن لديه أدنى

فكرة عن كيفية التعامل مع هذه الحالة التي بقيت خارج القن الذي في رأسه الذي يرسل تنبيهات تحذيرية. قلت للمسكين: «دعنا نتمشى معاً إن لم يكن لديك عمل». كيلا يتخبط أكثر. في المحصلة لم تكن بنيته معتادة كثيراً التفكير.

نظر خلفه، حك رأسه. قال بأسلوب متوتر: «حسناً».

خرجنا معاً وبدأنا السير نحو المبنى الجديد. خطونا نحو خمس عشرة أو عشرين خطوة حتى أتى السؤال الذي أنتظره. «متى ستبدأ في المدرسة».؟

«لن أذهب إلى المدرسة».

ضحك كريم على سذاجتي. «هل يعقل عدم الذهاب إلى المدرسة؟ يجب أن تدرس كي تصبح رجلاً».

«أنت ألست رجلاً».

«نحن رجال بالطبع، ولكن...»

قلت: «دعك من هذه الأمور أخي كريم. أي حزب تؤيد؟»

نظر إلى وجهي باستغراب. أعتقد أنه ظن بأني جاسوس للإدارة. رفع رأسه وقال: «حزب الخبز».

قلت: «لا يوجد حزب بهذا الاسم».

وعليه غير أقواله بالقول: «لا أؤيد أي حزب». هذا سيشعل ثورة، وأنا سأرى ذلك.

«إذن هل أنت يميني أم يساري؟»

«ليس في فلسفتنا يمين ويسار».

فلسفة؟ «ماذا يوجد في فلسفتك يا أخي كريم».

وأخيراً انفعل بابتهاج لأنه تواجه بسؤال جوابه جاهز «يسموني كريم، آكل اليوم ما أجده اليوم، وللغد الله كريم».

مر في خاطري: "يا معلم ماركس العظيم، أخرج من قبرك، وانظر كيف يكون الديالكتيك!" سرنا حتى وصلنا إلى أمام المبنى الجديد. قلت: «سأصعد إلى أمي. شكراً لك لأنك أوصلتني».

كان يبدو كريم مرتاحاً لأنه نفذ واجبه على ما ينبغي، وتخلص مني. قال لي: «حسناً إذن... أنا سأخبر والدك، أنك مع أمك». وعاد وهو يردد أغنية عن الجداء والخراف.

صعدت السلالم التي تصعد إلى المبنى درجتين درجتين، ودخلت إلى الداخل. قفزت إلى المصعد فوراً، وضغطت على زر الطابق الرابع، ليس على الطابق الثالث التي فيه غرفة أمي. خفق قلبي بسرعة عندما وضعت قدمي في الطابق الرابع الذي قلما زرته سابقاً. كان وحي بداخلي يخبرني "هذا ضرب من الجنون، ستنزع كل شيء أكثر مما هو منزوع". رغم ذلك دخلت الممر وبدأت أتقدم قارئاً الأسماء التي فوق الأبواب. وجدت الاسم الذي كنت أبحث عنه فوق باب أكبر وأبهر من البقية: "أردوغان ش. باي كورت المدير العام". قرعت الباب فوراً بقوة كيلا أتراجع عن كل شيء. لا جواب. مرة أخرى. النتيجة ذاتها. لم أكن أنوي العودة فارغ اليدين بعد أن وصلت إلى هنا. فتحت الباب ودخلت إلى الداخل. لم يكن السيد المدير موجوداً في الأوساط. مقارنة مع غرفة أبي كانت غرفة أكبر بكثير. طبعاً كانت تملك طاولة أكبر وكرسياً أكبر أيضاً. كما أنه كانت توجد ستائر مضجرة بنية اللون على النوافذ بدلاً من الستائر المعدنية وعلى الأرض سجادة ملطخة من هنا وهناك. ذهبت إلى جانب الطاولة وألقيت نظرة على ورقة الملف الموجودة فوق دباغ الطاولة. إنها لائحة الناجحين بحق المباشرة كموظفين حكوميين في الدائرة نتيجة المسابقة التي أجريت بالتاريخ الفلاني. كأنني أذكر الاسم الأول في مكان ما. "طوغرول تانير". فكرت قليلاً طبعاً، إنه الصديق الذي لا يفيد بشيء لهذا الثرثار الذي كان يتسامر معه السيد أردوغان في عيد ميلادي.

تعالى في تلك اللحظة صوت برائحة القرفة من خلفي. «عافاك الله يا فتى!».

تراجعت خطوة إلى الخلف بطبيعة ردة الفعل. أخذ السيد أردوغان مكانه خلف الطاولة، ورمى الورقة في أحد الجرارات. رمقني من الأعلى إلى الأسفل مقطباً حاجبيه بعد أن حشر في كرسيه الضخمة مؤخرته الأضخم. «هل وجدت ما تبحث عنه؟»

لم أقل شيئاً. كيلا نبدأ بداية سيئة.

قال: «تفضل واجلس هنا». مشيراً إلى الكرسي الوطيئة التي أمام المكتب. «دعني أطلب لك العصير».

جلست على أحد الكراسي. كان الكرسي طرياً، ورغم ذلك كنت أشعر بعدم الارتياح. قلت: «لا داعي للعصير. إن لديكم القليل من الوقت أريد التحدث حول موضوع».

ارتسمت ابتسامة مقرفة على وجهه. فكرت أنه فهم ماهية الموضوع جيداً. سأل ذلك الديوث الحاقد: «كيف الحال في جهنم إذاً».؟

«لم يتغير الشيء الكثير. إننا نترقب مجيئك». كانت البدايات السيئة في قدري. كنت أستطيع رؤية تقلب عينيه في حجرتيها رغم عدسات نظاراته الشمسية. ما هذا الخطأ الفظيع الذي ارتكبه وكأنه وقع في غرام النزاع اللفظي معي؟ أم إنني أنا كنت قد وقعت في غرام تلقينه درساً؟

قال بحقد: «لماذا أتيت إلى هنا».؟

كان يتساقط في عقلي مئات الإجابات من النوع الذي يستحقه، ولكن لم يكن له معنى جعله مسعوراً أكثر من ذلك. ولا سيما أني قد قرعت بابه من موضع التضرع. قلت: «لأحكي في قضية نقل والدي». مطأطئاً رأسي إلى أمامي بأمل أنه سيعجب بذلك.

قال بهيئة استحقار: «الآن بات واضحاً». أشعل سيجارة ونفخ دخانها في وجهي. إذن أرسلك والدك إلى هنا لكي يستعطفني».

جاء دوري في تلقينه درساً. دائماً ما تجد هذه الأنماط طريقة ما في جعل الإنسان في وضع مخجل أكثر مما يعتقد. قلت بهدوء مصطنع: «لم يرسلني أحد إلى هنا. لا أمي ولا أبي، لديهم خبر بمجيئي إليك».

قال رافعاً صوته: «دعك من إلقاء المواويل يا بني. مررنا من هذا الطريق منذ زمن».

فكرت مبتلعاً ريقي بأنه، ربما معجزة تغير كل شيء. «لو خبر والدي لما سمح لي بالمجيء إليكم قطعاً. أرجوكم لا ترسلوه إلى أرزروم. أساساً إنه يتحمل بصعوبة. إنه يفني نفسه من أجلي. كي يربيني...»

قاطعني بالقول: «متى حررت إسطنبول»؟ تغابيت فجأةً. هل تحققت المعجزة التي انتظرها؟ هل كان سيسحب أمر نقل والدي إن أجبت بشكل صحيح يا ترى؟ لا بد أنه سؤال متوه. كان علي أن أفكر جيداً. هممت قائلاً: «تحررت إسطنبول عدة مرات. أي منهم تسألون عنها؟»

هز رأسه السيد أردوغان. «هكذا أطفال يربون أمثال والدك. تجيد الرد على الجميع بلسانك بطول الحذاء، ولكنك تجهل تاريخ أمتك المجيد...» ما كان علي أن أنجر إلى استفزازاته. يجب أن أعير انتباهي إلى السؤال. تحرير إسطنبول... بلا شك أنه سؤال متوه. لا بد أنه يقصد المرة الأولى. كان ما زال يستمر. «اذهب وقل لوالدك، بدلاً من أن يركض خلف حسابات بسيطة مثل هذه، فليتحمل مسؤولية الخدمة وليحاول أن يكون لائقاً لوطنه وأمته...» أغمضت عيني. كان رأسي وكأنه سيتصدع. لا نفع في التفكير كيف وضعت نفسي وأبي في موقف ذليل كي أوقظ رحمة هذا الرجل الدنيء. وكيف كنت شخص غبياً. كان علي أن أجد الإجابة الصحيحة. أشعر أني اقتربت. «فليتوخَ الحذر في المكان الذي

سيذهب إليه. وليلزم حدوده، لا ينم ويقل بحق الدولة هكذا وبحق حكامها. ليس الجميع أصحاب رحمة مثلي. وإلا فسيمزقون الرجل مثل...»

صرخت قافزاً من مكاني: «١٢٠٤! أثناء الحملة الصليبية الرابعة!»

أخرج السيد أردوغان ملفّاً من جراره، وخبطه بالطاولة. «إنها وثائق نقل والدك. كنت أفكر أن أرسلها إلى أنقرة الأسبوع المقبل ولكن الآن غيرت رأيي».

حقاً أني لا أصدق. نجحت. كنت قد حللت لغز "أبو الهول". امتلأت عيناي بمشاعر الفخر والامتنان. «شكراً يا سيدي».

غمر السيد المدير سيجارته في المنفضة. «سأرسلها الآن في هذه اللحظة كي يرسلوكم قاطبةً إلى أرزروم فوراً».

- ٥ -

الدولة المنعشة

مع مغادرة أبويّ العزيزين المنزل في صباح اليوم التالي، رميت نفسي من الفراش الذي كنت أتصارع فيه مع البراغيث والصراصير. كنت أريد الخروج إلى الشارع فوراً، ولكن لم تبد زخات المطر أنها كانت ستسمح بذلك لمدة عدة ساعات. استثمرت هذه المدة تحت الأريكة، وتفقدت الخارج من النافذة مرة أخرى. للأسف ما زالت الرياح تصر والسيول تجري في كل مكان. كان من المستحيل الخروج إلى الشارع دون الأخذ بعين الاعتبار البلل حتى النخاع. لم يكن لدي خيار غير القيلولة في المنزل. تناولت الجريدة التي كنت قد تصفحتها صباحاً، وبدأت أقلب فيها عشوائياً. كان نبأ استنساخ الإنسان بات مسألة وقت، موجود مباشرةً مقابل الصفحة التي أعلن فيها دفن السيد حجابي بعد الصلاة التي ستقام يوم الجمعة المعقب لذلك اليوم. يا ترى هل كان أبناؤه سيقرؤون هذا الخبر، وسيقدمون على قطع عضو والدهم، وأخذه قبل إرساله إلى رحلته الأخيرة؟ تراءى أمام عيوني جلبة مئات الآلاف من السيد حجابي بعمر الثالثة والنصف يغيرون على مخزون السكاكر والعلكة في بقالية البقال يعقوب. كان صوت رنين الهاتف قد قطعني عن تخيلاتي المنحرفة.

«ألو؟»

«ألو؟»

كنت أعرف جيداً الفحيح الخاص بالناس ضعيفي الأعصاب المقترن مع المصطلحات. «الوردة الحساسة؟»

توقف الذي في المقابل للحظة. «ألو؟ أنا هاكان».

«صباح الخير يا هاكان. كيف حالك؟»

«لا بأس. ماذا عنك؟»

قلت: «جيد جداً. بدؤوا باستنساخ البشر».

«فرحت على هذا». لا أعلم على ماذا فرح. «هل أمر إليك؟»

«ولكن؟ كنت أخطط للخروج من المنزل مع توقف الأمطار. سأذهب لأستنسخ نفسي».

تحسس فوراً بطبيعة الحال. «قلت ذلك ربما تحتاج إليّ...»

«طبعاً أنا بحاجة إليك. من سيشرح لي نظرية الفوضى إن لم تكن أنت؟»

«حقاً؟»

«هيا تعال».

قال صديقي العزيز بلهفة: «سأنهي كأس الحليب وآتي فوراً». وندم بعد لحظة على زلة لسانه بالسبب الذي سيجعلني أستعوقه. «إن كأساً من الحليب تكون جيدةً بعد المدرسة».

قلت: «اسكب ذلك الحليب في المغسلة وتعال». وأغلقت الهاتف.

جاء هاكان بعد عشر دقائق وعلى وجهه ملامح حامضة، وكأنه تلقى لكمة قاسية على معدته. «قلت لك إنه لا يجوز عليك شرب ذلك الحليب».

قال: «لا أريد أمي أن تزعل» محاولاً تعليق معطفه المبلل على شماعة الألبسة. «إنها سريعة الغضب في هذه الفترات. إن الطفلة تتعبها كثيراً. ثم إنها تتجادل كثيراً مع أبي في هذه الفترات».

أخذت المعطف من يده، وعلقته خلف أحد الكراسي في المدخل. وذهبت مباشرةً إلى غرفتي، ورميت نفسي على الأريكة التي كان قد نام عليها الأخ ربيع قبل ليلتين. نظرت، فرأيت الغبي واقفاً أمام الباب. طبعاً. مستحيل أن يجلس

دون أن يشار له إلى مكان. مستقبلاً، لن تتشاركه البنات المتلهفات للزواج. إنه يملك كل شيء ينتظره من مساحيق الغسيل الخاصة بالنساء. «تفضلوا بالجلوس». ركز مؤخرته بشكل مؤقت على الكرسي الذي أمام مكتبي الصغير. «لم تظهر في الأوساط البارحة؟»

«ذهبت مع عائلتي إلى المكتب».

طأطأ هاكان رأسه أمامه بعد أن تقلب مرتين. «عرفنا كل شيء».

فكرت أنهم عرفوا إذاً. لم يعد سراً أني آخذ الدمية التي تقف فوق التلفاز إلى فراشي ليلاً عدة مرات خلال الأسبوع لأداعبها. ولكن هل يعقل أن تكون مصادر الأخبار قوية إلى هذا الحد؟ «ما الذي عرفتموه؟»

قال هاكان: «إنك أنت من وشى بالأخ الغضنفر». مستمراً في إحصاء حجارة الرقعة في الأرضية. وكأنه لم يكن يريد إحراجي أكثر بالنظر إلى وجهي. كما قلت، إنه طفل محترم.

قلت: «لم أش بأحد». كيف عرفوا يا ترى؟

لم يجب هاكان عن السؤال الذي أدليت به. بل عن السؤال الذي مر ببالي. «قد قلت إنك رأيته يخرج من منزل العم حجابي. قد علم جمال الدين ذلك من الأخ الغضنفر الذي علم من الشرطة».

الشرطة! لم أصدق ما أسمعه. هممت بالقول: «ولكن كيف؟»

أضحى جواب هاكان بطريقة غبية بقدر سؤالي على الأقل. «نعم» بما أنها أثبتت تهمتي، تستطيع عينا الخروف الأضحية التحديق بأصحابي. «كما أنهم اعتقلوا الأخ كوراي. لم يجدوا الأخ أركين. إنهم يلاحقونه الآن».

جدّدت القول ضاغطاً على أسناني: «أنا لم أش بأحد».

أكد هاكان عدم الجدوى من إنكار ذنبي بالقول: «برأيي أنك تصرفت بصواب. لو كنت مكانك لفعلت الشيء نفسه».

فكرت أن لو كنت مكاني لما كنت لتفعل شيئاً سوى أن تعملها تحتك. قلت بغضب: «يا صديقي الغبي العزيز. لو أني أعطيت اسم الغضنفر لماذا تلاحق الشرطة أركين وكوراي أيضاً؟»

قال: «لا أعلم ذلك والله» مشيراً بسلوك وقح إلى أن تلك مشكلتي أنا.

بقي رمق لأحطم رأسه حتى رن الهاتف مرة أخرى. ركضت إلى غرفة الجلوس فوراً ورفعت السماعة. «ألو؟»

«ألو؟ أنا الضابط المساعد أونور تشالشكان...»

قلت: «والتر ماثاو»(١)

«ماذا؟ لم أفهم ما قلته؟»

قلت: «أعتقد أنكم اتصلتم لتخبروني بأنه ألحقت ببرنامج حماية الشهود. طبعاً هناك حاجة لتغيير وجهي بعملية تجميلية. لطالما أردت أن أملك وجهاً كوجه والتر ماثاو».

سمعت صوت قهقهة. كان الشرطي الشاب في هزلية الموضوع. «فلتعش كثيراً، من أين يخطر ببالك هذا؟»

«ومن أين يخطر ببالكم أن تقولوا إني سلمت ذلك المختل عقلياً؟»

أبدى أونور تشالشكان بعد أن سعل وعطس مرتين توضيحاً يبين فيه أن دولتنا تقف خلفي بكل قوتها. «قال الأصدقاء ذلك لأن ذلك... لا تقلق أنت».

«فليكن كذلك. لماذا اتصلتم؟»

«هل يمكن أن تعطيني والدك لدقيقة؟»

«لا يمكنني. فأبي وأمي في العمل».

صاح أونور تشالشكان: «يا للحظ !» كم كان أمراً غير متوقع أن يكون شخصان بالأربعين من عمرهما في مكان العمل في وضح النهار!

---

(١) والتر ماثاو: يعد والتر ماتاو سيد الكوميديا الأميركية. [المترجم].

«ربما بإمكاني مساعدتكم أنا».

قال بعد أن قام بتقييم الموضوع مصدراً بعض الحروف الصوتية: «أساساً كنت سأطلب من والدك أن يجلبك إلى هنا. هل يمكنك أن تأتي وحدك؟»

«يمكن. لماذا؟»

«يمكن مناقشة ذلك عندما تأتي إلى هنا إذا أمكن».

أزحت الستارة، ونظرت إلى الخارج. قد خف المطر أخيراً. «اتفقنا».

قال بفرح واضح: «سأرسل فوراً وسيلة نقل لتأتي بك إلى هنا».

صحت قائلاً: «إياكم أن تقوموا بشيء كهذا. أساساً قد سمِي عليّ أني واش في الحي». فلا أريد أبداً أن أظهر وأنا أذهب إلى هنا وهناك بسيارة الشرطة.

قال أونور تشالشكان بأكثر حالاته كالرسوم المتحركة: «حسناً حسناً لا تغضب». في الحقيقة كان يضايقني أن أجعله يستمتع إلى هذا الحد. لم يكن شيئاً أتقبله أن يضعني في موضع المخلوق البدائي الشقي هكذا. لا أريد أن أكون مهرجاً لأحد. ولا سيما لشرطي، أبداً. كنت مشبعاً من تمثيليات الشرطي اللطيف أونور تشالشكان. كنت واثقاً كما أنا واثق من اسمي أنه كان سيكرهني لو كنت أكبر بخمسة عشر عاماً. كنت أشعر أنه يجب علي لاحقاً أن أجرح قلب الفتى كي يضع عقله في رأسه إن لم أضع مسافةً بيننا فوراً. قلت بصوت بارد «سأكون هناك بعد عشرين دقيقة،» وأغلقت الهاتف.

كان قد لحقني هاكان وتموضع على أحد الكراسي التي حول مائدة الطعام. سأل بفضول: «مع من كنت تتكلم أنت؟»

قلت وأنا أدخل الممر: «مع الشرطة».

«تكذب!»

ما كان علي أن أعبث معه. توجهت مباشرة إلى الباب دون أن أقول شيئاً، وارتديت معطفاً مناسباً للظروف الإقليمية. «يجب عليك أن تسحب الباب مبسملاً ثلاث مرات بعد أن تخرج إذا أردت أن تبقى هنا».

خلق بجانبي قائلاً: «أرجوك توقف لدقيقة». كان بيده قطعة ورقية وقلم مداد لم أفهم من أين أخرجهما.

«لدي عمل مستعجل يا هاكان».

قال بتلك الابتسامة الفاترة التي تغطي وجهه في كل مرة يتحدث فيها عن المدرسة: «تعلمنا اليوم في المدرسة كتابة الرسائل. طلبت المعلمة منا أن يكتب كل منا رسالة إلى صديقه». كنت أوشك أن أبدأ أشتم معلمته حتى أكمل حديثه بعجلة: «لا تقلق، كتبتها».

«وماذا تريد مني؟ أن أكتب رداً؟»

هز رأسه إلى كلتا الجهتين. كانت عيناه تبرقان.

«كتبت الرسالة لك».

قلت: «فهمنا ذلك. ضعها هناك في مطرح ما، سأقرؤها عند عودتي،» مخرجاً أحذيتي ذات الساق الطويل من خزانة الأحذية. قال: «لا يجوز هذا. سأرسلها لك بالبريد». لم يكن ذا معنى أن أسأله عن السبب. كنت أعرف أن صديقي العزيز قد نال نصيبه من العناء الخاص بأولئك أصحاب رؤوس الإوز[1]. «افعل ما شئت يا هاكان».

«ولكن لم يبق ظروف عند البقال. هل يمكنك أن تعطيني واحداً إن كان لديكم؟» لن يصدق إن قلت له إنه لا يوجد لأنه يعرف أن كلاً من أبي وأمي كانا يجلبان إلى المنزل كميات كبيرة من القرطاسية من مكان العمل. رميت أحذيتي جانباً بغضب، وذهبت إلى غرفة أبويّ وأخرجت حقيبة ماركة "Air France" ذات الثلاثين عاماً تحتوي على الأوراق والأقلام، من مكانها تحت الخزانة. أخرجت إحدى الظروف الصفراء المعنونة بعنوان الدائرة الحكومية التي يعمل بها أبوي وأخذتها لهاكان. نظر هاكان إلى الظرف المعنون مجهماً وجهه. «هل يصلح هذا الظرف؟»

(١) تقال للشخص ضعيف التعلم الغبي الذي لا يفهم مهما كررت عليه. [المترجم].

«إن لم يعجبْك، اذهب إلى القرطاسية، واخترْ واحداً مناسباً لك».

قال: «حسناً حسناً. ولكن هناك أمر آخر. أكتب عليه عنوانك أيضاً لطفاً» واضعاً القلم في يدي. «كتابتي سيئة جداً. أخشى ألّا يقرأها ساعي البريد».

وضعت الظرف فوق خزانة الأحذية وفعلت ما أراده. «انتهى؟»

كان ينظر على الظرف الذي أخذه بسرعة مبتسماً وكأنه أكثر الأشياء قيمةً في العالم. ربطت حبال أحذيتي معتبراً ذلك بمعنى الموافقة وخرجت فوراً. وهو أيضاً لبس بسرعة ولحق بي. وكما لاحظت أنه لم يتوان بالبسملة عندما أغلق الباب. نزلت الأدراج راكضاً، وبدأت أسير باتجاه طريق المخفر. صاح لي هاكان من خلفي: «وأنا ذاهب إلى البريد».

كنت أخاف، عند دخول غرفة أونور تشالشكان، من استقبالي بهتافات جياشة ولكن هذا لم يتم. صافحني بابتسامة لكن ببرودة أعصاب، وعرفني الرجل الذي يدقق بعض الوثائق على الطاولة الوحيدة الموضوعة في الغرفة. «ها هو الطفل الذي حدثتك عنه سيدي». ثم التفت إلي. «هنالك شيء مهم يريد السيد النائب العام أن تقوم به». النائب العام! إذن هذا هو سبب تصرفاته الموزونة.

صمت. حتى أن السيد النائب العام لم يرفع رأسه عن الورقة التي يقرؤها، وفي النهاية ترك الورقة على الطاولة ونظر إلينا. كان ذا مظهر ظريف تقريباً بحلاقة ذقنه الناعمة وشواربه الممشطة بعناية وبطقمه الرسمي الأنيق الملائم لجسمه النحيل. ولكن كم كان مظهراً خادعاً. كانت تتدفق منه السلطة من كل مكان. كان من الممكن قراءة ذكائه من خلال عينيه اللتين تحاولان التغلغل إلى روحي بهدوء ومن قراءة قسوة هذا الذكاء من خلال ثنايا شفاهه. كان رجلاً من النوع الذي ستكون صداقته أخطر بكثير من عداوة الغضنفر. زرّ عينه اليمنى بطريقة تهديدية عندما لاحظني أكيله. لاحظت عند استمراره في التحديق باستمرار. هكذا نلعب لعبة من يخطف نظره أولاً. هذه الأنماط تحب هذا. يظنون بنفسهم أنهم شيء عظيم عندما يشعر أحدهم بالحياء أمام وجوههم المشؤومة.

أدرت رأسي نحو السماء كي يطمئن. ولكن بسبب الغيظ الذي عندي، قمت بهذه الحركة بشكل مبالغ فيه وكأنه لفت انتباهي عصفور دخل فجأة إلى الغرفة. وعندما قلداني السيد النائب العام وأونور تشالشكان لرؤية هذا العصفور الوهمي، ظهر منظراً مضحكاً في الأوساط. لم أتمالك نفسي فضحكت.

سأل السيد النائب العام بحدة واضحة: «ألا يوجد أهل لهذا الطفل يا أيها الضابط؟ كيف يُحضر طفل في الخامسة من عمره وحده ليدلي بإفادته؟»

كان الضابط المساعد المسكين يتخبط ليجد شيئاً ليقوله وكأنه كان يريد التبول. فكرت أنه من الأفضل أن يبقى صامتاً. من المحتمل أن كل شيء سيقوله لن ينفع سوى أن يزيد من غضب النائب العام. كان الرجل قد وطّن نفسه ليتلقى توبيخاً شديداً. قلت: «هم موظفون حكوميون مثلك، لا يستطيعون أن يتغيبوا عن العمل كما يشاؤون». وخرجت من الوسط.

قال أونور تشالشكان: «كنا قد بينا عملهم في التقرير سيدي. إن لم يُرسل طلب استدعاء لهم من النيابة...» بذلك حول تمريرتي إلى هدف بحالة مرتاح فيها.

أدار المدعي العام أنظاره إليّ فوراً، ودخل في صلب الموضوع بعد أن فهم أنه لن يستطيع فش خلقه، الذي توقعت أنه يشكل أساس وجوده، من الضابط. «قلت إنك رأيت شخصاً يمر راكضاً في الشارع قبل الجريمة». قالها بنبرة تبين أنه يعلم تماماً أن ذلك كذب.

وافقت قائلاً: «صحيح».

«ولكنك لا تعرف من؟»

«صحيح».

«وهل ستعرفه إن رأيته مرة أخرى؟»

«لا أعتقد». أخرج نحو أربع صور من أسفل كومة الأوراق التي أمامه ورماها أمامي. «هل كان أحد منهم؟»

أخذت الصور ونظرت إليها. أركين، كوراي، الغضنفر وشخصان آخران لا أعرفهما. كان أركين فقط يضحك؛ لأنه أخذ وضعية الصورة في إستوديو، وليس في مخفر. نفضت كتفي قائلاً: «ربما».

كما توقعت، قال السيد النائب العام: «إنك تكذب». ربما هذه أكثر جملة كان يستخدمها في الحياة.

جاء أونور تشالشكان إلى عندي، ووضع يده على كتفي كي يعطيني القوة. «انظر جيداً. ربما تتذكر شيئاً ما».

هززت رأسي إلى كلا الطرفين. «مستحيل أن أتعرفه. كان المكان مظلماً برمته، ورأيت الرجل ثانيةً واحدةً كحد أعظم».

نهض النائب العام واقفاً وقال: «أنت لم تر أحداً». اقترب مني متجولاً من حول الطاولة. «أساساً لم تذكر شيئاً كهذا في إفادتك الأولى. عندما سئلت إن رأيت أحداً قلت إنك رأيت. إنك تكذب كي تلفت الانتباه».

ما كان علي أن أصغر كي أرد على تفاهة كهذه. كانت مشكلته واضحة. كان مكلفاً بالقيام بالتحقيق في جريمة مهمة. في يده جثة وبجانب الجثة مختل قد ألقي القبض عليه في حالة ميؤوسة. إن الشيء الوحيد الذي يمنع إكساب الرسمية للرابط بينهما هي إفادتي. بالأحرى، التفصيل الصغير ولكنه المقرف الذي في إفادتي. يبدو أنه يهتم بإغلاق الملف بسهولة أكثر من اهتمامه بالحقائق. إلا أنه كان يجب على السيد النائب العام أن ينتظر أكثر كي أفرز مخاطاً وأعترف بأنني كاذب.

قام النائب العام وتناول معطفه من شماعة الثياب بعد أن عرف أنه لن يسحب من فمي قولاً آخراً. أعطى تعليماته الأخيرة لأونور تشالشكان عند خروجه دون أن ينظر إلى وجهينا كلينا. «أخلوا سبيل المشتبهين».

بعد خروجه، أطلق الضابط المساعد الهواء الذي في رئتيه الذي لا أحد يعلم منذ متى كان يحبسه. فات وانهمر على كرسيه. كانت حالته وكأنه تعرض للضرب. همهم قائلاً: «انظر إلى حظنا. لم يظهر أمامنا إلا "متين بلكين"».

«متين بلكين؟»

وضّح أونور تشالشكان مفركاً صدغيه: «النائب العام. لم يأت أحد بمثيله. ينشف عروق المرء. لم يظهر المدير في الأوساط منذ أن علم أنه هو من كلف بهذا الأمر. ووقع الفأس في رأسنا».

جلس على الكرسي الذي أمام الطاولة. أشرت إلى اللوحة النحاسية التي يكتب عليها اسمه. «أبي أيضاً يملك واحدة من هذه».

«حقا؟ ماذا يعمل والدك بالضبط؟»

«نفس ما تفعلونه. أن يفقد عقله شيئاً فشيئاً».

رمقني أونور تشالشكان باهتمام. «هل حقاً عمرك خمس سنوات؟»

«ما قصدي أن أعلمكم عملكم ولكن برأيي واجهوا هذه الأنماط التي قبضتم عليها مع أرتان المجنون».

«قمنا بهذا العمل منذ زمن أيها السيد الفطين».

الفطين؟ تقبلتها لصغر سنه. «النتيجة؟»

«قد شتم قليلاً عندما رأى الغضنفر فقط. لم يبال بالآخرين حتى».

قلت: «شتيمته للغضنفر لا تعني شيئاً. قد لوّع قليل الناموس هذا المجنون المسكين». «وما رأيكم أنتم؟»

مررّ قدماه على طاولته بأجواء من "مايك هامر"[1]. «أنا أصدق ما تقوله، ولكن يبدو أنه من المؤكد أن أرتان المجنون هو من ارتكب الجريمة. كان ملطخاً بالكامل بدماء السيد حجابي. كما وجدت بصماته على السكين».

«هل أخذ السيد النائب العام إفادة أرتان المجنون؟»

---

(١) مايك هامر: برنامج تلفزيوني أميركي محدد يعتمد على مغامرات المحقق الخاص الوهمي *مايك هامر*، من تأليف الروائي ميكي سبيلان [المترجم].

«طبعاً. قام هو نفسه بأخذ إفادته كي يرينا كيف يكون التحقيق».

«النتيجة؟» قال أونور تشالشكان بطريقة استهزائية واضحة: «حصل على معلومة قيمة جداً. قد اعترف له أرتان المجنون عن سبب ذهابه إلى منزل السيد حجابي في تلك الليلة».

تمالكت تشوقي. سألته: «حقاً؟ ولماذا ذهب إذن؟» عازفاً نفس وتر السخرية معه.

«ليلتقي مع حبيبته!» أطلق الضابط المساعد قهقهات بعد ذلك.

ضحكت أنا أيضاً لا إرادياً. همست بالقول: «أرتان المسكين. لا شك أن متين بلكين قد أنساه الحليب الذي رضعه من أمه».

قال أونور تشالشكان: «لا، هل يوسخ يديه من أجل شيء كهذا؟» كان سيحكي المزيد ربما، ولكنه سكت عندما استذكر فجأة أن الذي أمامه ولد بطول الساق.

وقفت قائلاً: «فلأذهب أنا».

«حسناً. تعال بين الحين والآخر. نتحدث قليلاً»

التفت إلى صديقي الشرطي قبل أن أخرج من الباب. «عدني».

«بخصوص ماذا؟»

«ستستقيلون من هذه المهمة إذا قتلني الغضنفر».

نفس الضحكة الطائشة. «لا شيء يدعو لأن تقلق. لن يمس الغضنفر شعرة منك».

اكتشفت قبل مغادرة المخفر لماذا كنت أستلطف أونور تشالشكان ذا النصف عقل. كان لديه أشياء معينة تذكرني بهاكان. أما لماذا كنت أستلطف هاكان، فالله يعلم.

عليّ الاعتراف أن في الرائحة، التي تغطي أجواء بعد المطر، شيء ينعش قلب الإنسان حتى لو كان يعيش في وسط مدينة كبيرة. لم يمر كثيراً من الوقت، فبعد عدة أسابيع فقط سيكون أرتان المجنون قد سلّم إلى أيدي الأطباء النفسيين لتُخصى روحه، وستتمكن الديدان من كفن السيد حجابي وتصل إلى روحه، وسيأتي أمر نقل والدي، وستكون مؤخرتي قد مزقت من كلاب الغضنفر. وخلال حدوث كل ذلك ستكون أمي تغسل الثياب طيلة الوقت. من يدري كم غسلة؟ ورغم ذلك كله كنت أسير ببلاهة ضمن، ما لا نسميه سعادة بل امتناناً، أعزف بالصفير مقطعاً من معزوفة موسيقار الموسيقا الكلاسيكية الصيني "Wu Zhaoji" باسم "أصوات الربيع". بعد سير نصف ساعة لاحظت أن قدمي قد قادتني إلى بوابة المقبرة. يبدو أن صلاة الجمعة قد أقيمت حديثاً. دخلت أرض الموتى مفكراً أنه إذا أسرعت قليلاً سألحق بوفد المشيعين الذين وفوا بواجبهم الأخير اتجاه السيد حجابي.

كان هذا المكان جميلاً وخاصاً بالفعل بأشجاره ذات العناية العالية، وأحجاره المرمر الخاصة بالقبور، ونصبه التذكارية وبطريقه النظيف الملتف بين كل ذلك. ولكن لم أكن أفهم تماماً بأي منطق وضعت على بعض أحجار المقابر صور شخصية للموتى. ثم إنه تم استخدام بالمجمل صور الشباب للسادة الأموات الكرام للتعريف عليهم. ربما وضعت على المقابر لتظهر لأولئك الوقحين، الذين ينظرون إلى المقابر عندما يمرون من الطريق، ويفكرون بأن هؤلاء أموات وأنا حي، فينساقون إلى فرحة معيبة. إن الشخص النائم هناك إن كان حياً في وقت من الأوقات فسيكون أصلب بأضعاف منه. أو ربما هذه الصور التي تعود إلى المراحل التي أرسلت إلى أعماق درجات اللاوعي، كانت تريد أن تعطينا درساً يظهر لنا عن الحالة التي وصل إليها هؤلاء الأشخاص. لم أكن أستطع التوقع بالضبط مشكلة الذين يقومون بهذا الإجراء، ولكن هذه الوجوه التي لم تعد موجودة، بكل صدق، إضافةً إلى أنها لم توقظ بداخلي أي احترام، لم تكن تخبرني شيئاً على نحو "عش يومك" أو ما شابه. دعوني أخبركم، لا أعتقد

أن الأموات سينزعجون لذلك أبداً. إن التفكير بأنهم سيأخذون الحياة على محمل الجد إلى هذه الدرجة، برأيي أنه تفكير أخرق بكل صراحة.

مقارنة مع توقعاتي، كانت المقبرة كبيرةً جداً، وعدد الذين سيدفنون بعد صلاة الجمعة كثير. في تلك الأثناء وقع على ناظري طفل أكبر مني بنحو ثلاث سنوات تقريباً بألبسة ممزقة وبيده إبريق بلاستيكي يمسك بألبسة الذين يأتون لزيارة المقابر. كان يقدم خدمة ترطيب المقابر الجافة مقابل ما يقدمونه من خاطرهم. «أنت يا بن بلدي!»

حدق بوجهي باستمرار. لم أكن زبوناً. هل يا ترى من الممكن أن أكون شركة منافسة له؟ «ماذا تريد؟»

«كنت قد دعيت إلى جنازة ولكني تأخرت. هل رأيت تجمعاً كبيراً هنا؟ بينهم رجال شرطة». اضطرب وابتعد من جانبي عندما سمع كلمة شرطة. ركضت خلفه. «لحظة يا أخي، توقف لدقيقة...»

تجاهلني تماماً. إذن، ما دمت لجأت إلى التحقيق، يجب أن أعطيه حقه. أخرجت بعض النقود المعدنية من جيبي وخشخشتها. توقف الرجل فجأةً بأرضه. قدم لي وصفاً بمساندة وافرة بالأيدي والأذرع بعد أن خطف الذين بحفنتي. «اتبع الطريق، استمر من جانب المقبرة العائلية لعائلة فردوس، اقطع إلى الجهة المقابلة عندما ترى مقبرة عائلة شمشير واستمر بالسير، اصعد فوق قبر "خالص دوجي" وانظر، ستراهم».

لم يكن لدي خيار آخر غير تصديقه. قلت: «شكراً لك»، وبدأت أتقدم نحو الاتجاه الذي دلني عليه.

نادى من خلفي: «أيها الطفل!» التفت ونظرت. «هل سيلزمك الماء؟»

قلت: «هل تسخر؟ لم يدفن الرجل بعد. كما أنه ماذا سيفعل الناس بمائك بعد مطر الصباح؟» وأكملت طريقي. جاء ولزم يدي ابن العاهرة. «كما يمكنني قراءة القرآن».

«لا أريد يا أخي. لدينا إمامنا الخاص بالعائلة». إلا أنه بات يترنح يميناً وشمالاً متجاهلاً كلامي، وشرع بقراءة القرآن بصوته الأشبه بصوت الغراب. كان لا يزال يمسك ذراعي بحزم. سحبت ذراعي بعنف من يد الإمام الساقي الصغير، وقلت: «انصرف».

كنت قد ابتعدت نحو عشرة أمتار حتى سمعته ينده من خلفي. «سأبصق على قبوركم!»

لحسن الحظ، الوصف الذي أعطاني إياه كان صحيحاً. لم يعد لي الحاجة لأتسلق القبر العظيم فعلاً للزوج الصالح وتاجر الأقمشة الأنيق "خالص دواجي" الذي كان نموذجاً لأشراف "سيوورك"[1]، كما يتسنى لي رؤية موكب الجنازة المهيب الذي ملأه العديد من ذوي البزة الرسمية. إضافةً إلى ولدي السيد حجابي اللذين يشبهان برجين، كان يوجد ضمن الذين يقرؤون الفاتحة على روح المرحوم البقال يعقوب وعائلته وعدة أشخاص آخرين أعرفهم من الحي. دخلت الصفوف الأولى فوراً دافعاً بالقوم، وبدأت أدقق بوجوه الناس. إن كان القاتل بيننا اعتباطياً، سيكشف نفسه بإيماء غاضب أو حركة خاطئة. إنه أسلوب مأساوي من أجل متحر خفي بالطبع، ولكن لم يخطر ببالي الأفضل.

بعد أن أكمل الإمام كلمته، المزينة بمصطلحات ربما تليق باللغة العربية ولكنها تبدو عبثية على المسامع في اللغة التركية، جاء دور وضع جثة السيد حجابي الهامدة في القبر. تصرف الحانوتي هش البنية رامياً الفأس والمعول جانباً، ولكن أوقفوه عندما قال أحدهم إنه يجب على أكثر المقربين من المرحوم القيام بهذا العمل. مسك الأخ شامي طرف الكفن الذي يلف البدن الذي كان ملكاً لوالده في أحد الأيام. عندما بقي الطرف الآخر الذي يجب أن يحمل فارغاً لمدة طويلة، التفتت الأنظار إلى الأخ ربيع الذي كان ينتظر منه تحمل هذا العمل. بدا حينها وجه الابن الأصغر قد خطف إلى اللون الأخضر، حتى إنه بحسب البعض

---

(١) سيوورك: بلدة الثقافة والعراقة في الجنوب الشرقي لتركيا. [المترجم].

سمع أنيناً خافتاً من حلقه. من الواضح أن فكرة نزول القبر وفي حضنه جسد والده قد جنن المسكين. كان الجميع قد وصل إلى قناعة أنه لم يكن بالكفء المطلوب للقيام بواجبه بما يليق، إذ كنت أنا أيضاً أؤيد هذه القناعة، حتى تقدم الأخ ربيع إلى الأمام ونزل القبر. كان على وشك أن ينجح بإخجالنا جميعاً. إلا أنه عندما لاحظ وجود شيء تحت قدمه وانحنى وعاد ووقف، رأينا أنه يمسك بيده جمجمةً كبيرةً. رمق الأخ هاملت هذه الجمجمة بنظرات تمعن لمدة من الزمن. ابتلع ريقه. اهتز تارةً إلى الأمام وتارةً إلى الخلف قائلاً "أمـ...مي!" وهوى مغمى عليه فوق مرقد والده مثل ناطحة سحاب فجرت أساساتها بالديناميت.

علمت من الصياح والنياح أنه اتخذ قرار دفن السيد حجابي في حضن زوجته العزيزة، بسبب أن المساحة التي حول قبر السيدة الخالة نجلاء ليست بالاتساع الذي يسمح بحفر قبر جديد. وبذلك تكون نفذت وصية المرحوم بأحسن وجه. كان رجلاً ناصحاً أعتقد أنه من إداريي المقبرة قد التصق بياقة الحانوتي ويصرخ. «يا بني، ألم أقل لك إن تجمع العظام التي في الأسفل جيد!»

كان الحانوتي قد دخل في خضم نكران طبيعي على شاكلة: «سيدي، أقسم بالله إني نظرت مساء أمس، لم يكن يوجد شيء...»

سُحِبَ الأخ ربيع على عجل جانباً. بدأت النساء العجزة بمحاولات إعادته إلى وعيه بوابل من الكولونيا. ولكن عند قيامهن بهذا العمل كنّ يصدرن ضجة كبيرة لدرجة أنه لو أفاق المسكين مصادفةً، كان سيجن جنونه معتقداً أنه مات وسقط بين العفاريت. إلا أنه بفضل مساعدات البقال يعقوب القيمة استطاع الأخ شامي في النهاية وضع والده في مكانه ليأتي ويفرق العجزة الشمطاوات. وبعدها أطلق على وجه أخيه العزيز صفعتين قاسيتين بوجه يده وبعكسها بإرادة عالية. من الواضح أن التدريبات العسكرية أكسبت الرجل موهبة سرعة اتخاذ القرار وسرعة التحرك. كما أنني لم أتجاهل التفكير بأن الوضع بالحسبان أن الضربات التي تغمي شخصاً واعياً لتصحي رجلاً مغمىً عليه نابعة من نفس التدريبات. استقام الأخ ربيع من مكان جلوسه بعد تأففه لعدة مرات.

وهذا يثبت إما صحة التشخيص أو صحة العلاج. إنّ الابن الحزين الذي استعاد وعيه قائلاً: «بسببي أنا، بسببي أنا». في اللحظة التي قال هذا، تلقى صفعةً أخرى من أخيه الكبير، وحملت المراسم عن طريق بعض من رجال الشرطة بالزّيّ الرسمي، ووضعت في المقعد الخلفي لإحدى السيارات.

غريب ولكن هذه الحادثة قد شتتت فجأةً ثقل الأجواء في الوسط. بعد أن تقبل الأخ شامي التعازي، قد انتشر بين الجموع التهامسات المبهجة والثرثرات والنميمة بحق المرحوم. ومن يدري، ربما ولدت حادثة إغماء الأخ ربيع شعور الراحة لدى الجميع في حين كانت تسود أحاسيس الحزن اتجاه المتوفي. كان يجول في الأوساط العديد من الأقاويل بحق شخصية السيد حجابي، وماضيه، وعلاقاته مع عائلته، وقضية مقتله، وظاهرة الموت. بعد أن قامت إحدى النساء بالحديث عن ضعف الأخ ربيع المتأصل فيه منذ القدم، تدخل البقال يعقوب للدفاع عنه فوراً. كانت قد بدت قرابته بكل وضوح من السيد المتوفى وعائلته. «ماذا يمكن لهذا الولد المسكين أن يفعل؟ أمه انتحرت، أحد المختلين قد قتل والده... هل هذا أسهل؟»

استقامت أذني فجأة. قد انتحرت والدة الأخ ربيع؟ قفزت فوراً إلى عند البقال يعقوب وفضلت اللعب على وتر التحدي لأني كنت أتوقع أنه لن يخاطبني إذا سألته السؤال الذي يخطر ببالي. قلت بأسلوبي الواثق تماماً: «ماتت والدة الأخ ربيع بحادث سير».

رمقني البقال يعقوب، وضحك باستهزائية الأشخاص الذين يعرفون حقيقة الأمر. «فليعتقد الجميع هكذا. ولكن انفلق رأسها كما بطيخة ديار بكر عندما سقطت من الطابق الثالث على الرصيف».

انبرى أحد سكان الحي قائلاً: «كم أنت عديم اللباقة يا يعقوب».

انزعج البقال يعقوب والتفت أمامه. ولكنه لم يكن الثرثار والأرعن الوحيد بين الجمع. أنّت إحدى الشمطاوات اللاتي كنّ قد تجمعن فوق رأس

الأخ ربيع وهي تشدشد بغطاء رأسها قائلةً: «آه يا ست نجلاء آه! كم كانت امرأة رائعة. كما أنها كانت تطهي "يالنجي" إذ كنت تأكل أصابعك معها». واستمرت بعد إلقاء نظرة على قبر السيد حجابي الذي كان قد ملأ بالكامل تقريباً من قبل الحانوتي. «لا أريد أن يصل الحديث إلى ترابه، إن السيد حجابي لم يقصر في تلويع المرأة المسكينة...»

ظهر البقال يعقوب مجدداً الذي كان قد أغلق فمه ثانيتين عنوةً. «ها هم قد اجتمعا مجدداً. فليكن مصير كليهما الجنة».

لم يعد لدي الشك أبداً عندما ابتعدت مسرعاً من عندهم اتجاه بوابة المقبرة. كان "سارتر" محقاً. إذن المقصود "بالآخر" جهنم.

- ٦ -

كلّ بوذيّ يركع لفاشي

كان يوم السبت كما كل أيام السبت الماطرة. راح أبي، بعد فطور متأخر، يحل الأحجية تلو الأحجية، وأمي تغسل الثياب. كانوا يقضون أيام عملهم، كما جميع عمال الطبقة الوسطى بالاشتياق لنهاية الأسبوع، ويقضون نهاية الأسبوع بالاشتياق لأيام العمل. حتى إنهم لا يشعرون بمجيء الدقيقة الأخيرة من عمرهم. إنه انتصار النظام.

طرحت أمي فكرة الذهاب إلى زيارة الخالة "كونول" التي تسكن في الضفة المقابلة حينما لم يتبقّ ثياب لتغسل ولا أحجيات لتحل. وافق أبي على هذا الاقتراح فوراً؛ إذ كان يتفق بشكل جيد مع زوج الخالة كونول. أما بالنسبة إليّ فقد كانت زيادة كمية البالغين في الأوساط أمراً لا يحتمل. لم يكن صعباً إقناعهم على تركي في المنزل.

بعد أن انشغلت لعدة ساعات ببرامج تلفزيونية فارغة، نظرت، فرأيت المطر كان قد توقف. وضعت مسدسي طراز دالاس كولد في خصري، وخرجت إلى الشارع. كنت أعرف أني لن أجد أحداً من أصدقائي. كانت أمهاتهم لا تدعهم ينزلون إلى الشارع بهذه السهولة في نهاية الأسبوع. كي يرى الآباء أولادهم، الذين هم جيناتهم المختارة وأيامهم الناكسة، كيف يسمنون، كي يضفوا الشرعية ولو قليلاً على حياة العبودية التي هم فيها. إنها مساواة بلباقة تليق بالنساء. ولكني لا أتهمهم. لو لم يكن أولئك الرجال راضين بتلك العبودية لما كانت أي من تكتيكاتهم لتنجح.

ذهبت مباشرةً إلى حديقة منزل يوكسيل، وتمددت على العشب غير مبال بأنه مبلل، ورحت أفكر حول الجريمة. كنت على دراية بأن كامل ادعائي بأن أرتان المجنون لم يقتل السيد حجابي نابعاً من ردة فعل عاطفية. ولكني لا أتكلم على شعور من النوع "إني أشعر أن القاتل ليس هو". إن تحميل مسؤولية الذنب المرتكب إلى مجنون ليس أسهل بالنسبة للسلطة فقط، بل يصب في مصلحتها أيضاً. كان سيريحهم حل القضية بالقول "أساساً إن القاتل شخص مجنون". أي إن النظام كان مكتملاً لدرجة أنهم كانوا يجرون الأمر إلى القول إن الشخص الذي يعارض قوانين هذا النظام يجب الشك في عقله. إن ما يمرضني هو هذه الحيثية. أساساً لم أكن أبالي بمن ارتكب الجريمة. كان الحكم بالتعفن على أرواح الناس، ودفعهم للبحث عن عزاء لهم عند زجاجات المشروبات وعالم الأحلام جريمة أكبر بكثير، وكنت أريد ضرب وجوههم الجافة للذين يقومون بهذا بازدواجيتهم. كنت أريدهم أن يعرفوا أن أكثر العاقلين فيهم وليس المجانين يمكن أن يدخلوا إلى منازلهم ويذبحونهم. وأريدهم ألّا يناموا الليالي بأريحية. كنت وحشاً ممتلئاً بالكراهية. كلما رأيت مدى امتلائي بالكراهية كنت أكره نفسي أكثر. كنت سأجعلهم يدفعون الثمن.

مسحت مخاطي بيدي، ونهضت عن الأرض، وبدأت أركض نحو بناء كوزيل يايلا. كان نفسي يكاد ينقطع حينما كنت أقرع باب الشقة رقم أربعة. فتحت الباب فتاة صهباء شاحبة الوجه بلباس أسود من الرأس حتى القدمين نحو ستة عشر من العمر. لاحظت أنها تجد صعوبة في تحقيق توازنها. وبعدها مباشرة كانت رائحة الكحول التي جابت أنفي تفسر هذا. نظر بعضنا إلى بعض بلا معنى لمدة من الزمن. قلت: «أردت مقابلة الأخ كوراي».

«كوراي غير موجود في المنزل. أنت...» كانت تحاول أن تسألني من أكون.

«أنا الشخص الذي كان سبباً في اعتقال الشرطة له. علي التكلم معه. متى يأتي يا ترى؟»

كانت تنظر بلا معنى لدرجة أني فكرت أنها تجهل اعتقال الأخ كوراي، ويجري البحث عن الأخ أركين. قالت وهي تهز كتفها: «ذهب إلى البقالية. لا بد أن يأتي. ادخل إن أردت».

قبلت دعوتها، ودخلت المنزل. تفضلت بدعوتي إلى غرفة بأريكة وحيدة تحت مسمى مكان لأجلس فيه. كان الداخل مظلماً جداً لأن الستائر جميعها كانت مغلقة، وربما لم يعرض المكان للتهوية منذ مئة عام تقريباً. والأكثر رعباً كان صوت الضجيج الصادر من المجموعة الصوتية. إنه نوع من الموسيقا الوحشية التي لا تعطي مزاجاً سوى تدمير آلاتها والمنتجة من قبل، أخص بالكلام، شخصاً يغني ممزقاً مؤخرته. فتحت الفتاة علبة جعة، وتمددت على الأريكة. سألت مشيراً إلى مجموعة الصوت: «هل يمكنني إخفاض صوت هذا قليلاً؟»

قالت الفتاة كرد: «الخفقات».

قبلت هذا على أنه موافقة وقلت وأنا أخفض الصوت: «بالطبع، تزداد خفقات قلب الإنسان عند سماع هذا».

أطلقتْ ضحكة كالأطفال. «لم أقصد هذا! إنه اسم الفرقة: الأفكان!» تجرعت الجعة بطريقة أعتقد أنها أنهت نصفها الممتلئ. «لديهم موسيقا رائعة. ولا سيما مغنيهم يؤدي غناءً بشكل رائع».

«زيادة على ذلك فقد بدا لي وكأنهم ينهقون». أمسكت بوسادة من على الأريكة، ورميتها على الأرض، ووضعت مؤخرتي الصغيرة عليها.

قالت: «عليك أن تشعر بالموسيقا،» راسمة بيدها إشارة 8 عملاقة بشكل ملائم مع الإيقاع، إنه يعبر عن الألم عندما يصرخ.

قلت: «إن الألم الحقيقي صامت، كما دار العجزة!»

حاولت الاستقامة دافعةً بقوتها إلى يديها ولكنها صدمت رأسها بذراع الأريكة عندما انزلق كوعها من مكان استناده. أخذت يدها إلى رأسها متألمة،

وفركت مكان الصدمة. وإذ بردة فعلها تأخذ شيئاً فشيئاً حالة غاضبة، وفي النهاية بدأت تبكي بشكل صريح. ومن ناحية أخرى كانت تصيح قائلةً: «يا إلهي، أريد الموت، أريد الموت!»

كان اعتقادي مطلقاً بأن البكاء، بالنسبة للمرأة، هو حالة روحية يتم السعي للوصول إليها دائماً. إنه شيء شبيه بنزعة سقوط جسم على الأرض كان قد رمي في الهواء. لذلك تركتها وشأنها. سكتت بعد مدة. أنهت ما تبقى من علبة جعتها، واستقامت بصعوبة. كانت نظراتها ثابتة ومخيفة بعض الشيء. همهمت قائلةً: «مثل دار عجزة».

قلت بضيق: «لا تبالي كثيراً بما أقوله، إني أرمي كلاماً هكذا باستمرار».

خرجت من الغرفة وهي تجر قدميها وعندما عادت كان بيدها علبة جعة جديدة. ولكن هذه المرة لم تتمدد على الأريكة، جلست ورمت قدمها أسفلها. تجرعت العلبة بالتهور نفسه. نهنهت عدة مرات. «ماذا ستتكلم مع كوراي؟»

قلت: «على ما يبدو لا شيء إن كان يشرب كثيراً مثلك».

«هل أنت قزم؟»

«لا أعلم. الزمن سيظهر ذلك».

قالت: «قزم أنت» مواظبة على الشرب. «أنا أضحك كثيراً على الأقزام».

جاشت أعصابي فجأة. «ولكنك كنت تبكين بعويل آنفاً».

ابتلعت ريقها، جالت بناظريها الغرفة بنظرات ازدراء. فركت يديها. فكرتُ أنها ستتقيأ بعد قليل. قالت قابضة شفاهها باشمئزاز: «أنت مقرف. جميعكم مقرفون. جميع الرجال. الشاب، العجوز، الطفل، القزم... جميعكم».

قلتُ: «صحيح ولكن أنت أيضاً لست بقليلة». ونهضتُ واقفاً ثم اقتربت منها، وأخذت علبة الجعة من يدها وتجرعتها. كانت تنظر إلى وجهي باستغراب. أخذت رشفة كبيرة أخرى من الجعة. «إنك تهربين من مواجهة نفسك، وتجعلين

الرجال الحمقى أداة لرغباتك الساقطة. عندما يتحقق ما تريدينه ستعانين من أزمات ندم، وإن لم يتحقق فستعانين من أزمات هستيرية».

كانت تنظر بلا معنى. كانت بحالة لا يمكنها فهم ما أقوله. أخذت جعتها، وبدأت تهمهم بينها وبين نفسها: «أين ذهب هذا الغبي؟»

تذكرت حينها أنني موجود في منزل أحد المتهمين. يمكن لهذه الفتاة أن تعرف شيئاً بخصوص الجريمة. كان بإمكاني أن أسحب الكلام من فمها مستفيداً من سكرها. قررت الضغط عليها أكثر. وبعبارات أقصر: «ربما لن يعود أبداً. لو كنت أنا لما كنت لأعود. تعتقد الشرطة أن الأخ أركين هارب لأنه ارتكب جريمةً، ولكن برأيي أنه هرب منك».

صرخت قائلةً: «كذب! أركين يحبني جداً. حتى إنه يركع من أجلي... يركع!» وعيونها تقدح.

من الواضح أنني تمكنت هذه المرة من التأثير بها، ولكن من الناحية العكسية. لم تبال أن الرجل سيشنق؛ ما يهمها إن كانت تُحَب أو لا. من يدري، ربما هذه إشارة لمستوى وعي متطور أكثر. في أي حال، يجب عليّ ألا أخرج من عقلي أني أتكلم مع امرأة. قلت باستهزاء: «طبعاً طبعاً، أساساً أنت لست بحال لا يُركَع لها. أيتها الشهوانية السكيرة».

قالت بأكثر حالاتها سفاهةً: «أنت لا تعلم شيئاً، أركين يقدم روحه من أجلي، وأنا من أجله ، مفهوم! إنه أكثر الناس لطفاً ونعومةً في العالم. إنه... ليس كذلك الثور كوراي. إنه حساس، متفهم...»

«حسناً. إذنْ أتمنى لكما السعادة. سيخرج حبيبك من المعتقل، إن لم يشنق، بعد ثلاثين عاماً، وسيجتمع بعضكما ببعض».

أنهت جعتها متصبباً ما بقي منها من أطراف فمها. «إنك طفل غبي جداً. إنك لا تفهم شيئا أبداً. ليس هو حبيبي... كوراي».

«الثور كوراي؟»

هزت رأسها بسرعة بمعنى الموافقة. وبدأت بعدها مباشرةً بالغثيان بشكل فظيع لأنها قامت بفعل كهذا. إلا أنها نجحت مجدداً بعدم التقيؤ. «سنتزوج نحن».

قلت برغبة أكثر بحرق قلبها: «مفهوم. أركين يركع من أجلك لكنه لا يراك كامرأة».

أطلقت قهقهة غاضبة قائلة: «فعلاً إنك... فعلاً إنك غبي جداً. هؤلاء جميعهم يعشقونني بجنون. كوراي، أركين، كايهان...»

قاطعتها كيلا تطيل اللائحة. «إذاً لماذا فضّلت ثوراً على الرجل الذي تحبينه؟»

لوت علبة الجعة بين حفنتيها ورمتها. كان قد بدا على وجهها ملامح تجهم. «كان كايهان غنياً جداً. كان لديه سيارة جميلة جداً. كان يصحبني إلى عزائم الطعام والرقص في أماكن فاخرة...»

«فليذهب كايهان إلى الجحيم! حدثيني لماذا لم تريدي أركين». كان الدم قد قفز إلى رأسي. كنت مدركاً أني انحرفت عن موضوع التحقيق ولكن فجأة بدت لي هذه النقطة أهم من أي شيء في العالم. أساساً ما الفائدة من حل قضية جريمة إن لم تتقدم بمفاهيمها حول الإنسانية إلى الأمام؟

تأوهتْ بعمق وعيناها مغمضتان. استندت إلى الخلف بتصرفات حالمة وتململت. همهمت قائلة: «أركين. حبيبي هو. لا أفرط به...» فكرت بأنه هذا هو السبب. لا تفرط به. تريد أن تدمج روحها مع روحه، وتفتك بروح الرجل. طبعاً كنت مخطئاً مرة أخرى. أكملت الربة السكيرة: «أحبني كوراي كما يحب أي امرأة أخرى. أما أركين فقد كان يعشقني. هل فهمت؟ كان حبه لي حقيقياً. كان علي أن أقول له "لا" كي يبقى هكذا».

«ولكن لماذا؟»

«لأنه حقيقي، خيبة أمل». كانت تجري الدموع من عينيها وهي تقهقه. «أعطيته قلبي، كل شيء، كل شيء شاركته معه. كنت أذهب إلى أركين عند الصباح، أضع رأسي على صدره، وأجد الأمان. كنت أحدثه عن المعاناة التي كان يذيقني إياها كوراي. حتى إنني في بعض الأحيان كنت أظهر كل شيء أسوأ مما هو عليه. كنت أقول له إنه كان يضربني ويعاملني في الفراش كما يعامل عاهرة ساقطة. كان يستمع إلي بصمت. أعلم أني كنت أعذبه كثيراً. ولكن لم يكن لدي خيار آخر. وإلا كيف يمكنه أن يفهمني؟ حبيبي، لا يمكنني التفريط به...»

كانت معدتي تحترق، وعلى ما يبدو أن رؤيتي معكرة. كما يبدو الكحول لا يناسبني. «كيف يمكن للإنسان أن يكون ظالماً إلى هذا الحد؟» سائلاً هذا السؤال لنفسي أكثر منها.

صرخت قائلة: «كيف تحاكمني أيها القزم القذر؟ هل تعلم أنه لولا أحلام أيامنا السعيدة في المستقبل ما كنت تحملت دقيقة واحدة هذه الحياة الرزيلة». بعدها بدأت تبكي بغشاوة. كانت تئن متأرجحة إلى الأمام والخلف عندما كانت قد استخدمت يدها اليمنى كوسيلة دعم بين حضنها ورأسها كيلا يتهاوى جسدها قائلةً: «أنا لست ظالمة». في الحقيقة كان لديها مظهر مسكين جداً.

إذاً كانت تخطط لمستقبل سعيد مع أركين. ربما كانت تملك بحسب اعتقادها حججاً منطقية خلف كل سخافاتها تلك. كان قلبي قد امتلأ بالندم والألم. دنوت نحوها برقة. كانت لا تقضم أظافرها فحسب، بل أصابعها بكل ما للكلمة من معنى. لا شك أن للأحداث التعيسة التي عاشتها في الماضي أثراً لا يقل عن أثر سكرها على الحالة الروحية التي وقعت فيها. كان الأفكان عاقدين على جو منخفض الإيقاع هستيري. بدأت أذناي تشعران بموسيقاهم على أنها ليست سيئة. إن الإنسان يعتاد كل شيء. مسكت يدها، وسحبتها من بين أسنانها. كنت كالموت قاسياً ورقيق القلب. «حدثيني عن أحلامك».

سحبت مخاطها بأنفها، وحصرت أصابعي بين يديها. حدقت بنظراتها بعيداً وبدأت تحكي. «أتزوج مع كوراي، وأما أركين... فمع تلك العاهرة الشقراء. زواجنا كلانا مخيف. كنا تعيسين حتى الموت. نلتقي بين الحين والآخر. نثرثر حول أمور عادية، ونتبادل الضحكات، غير أن نظراتنا كانت تروي كل الحكاية. بعد عشرة أعوام تقريباً يموت كوراي في حادث دراجة نارية. كنت أنا في عمر الثلاثين تقريباً و... أتزوج من كايهان. في المناسبة، يستلم أركين شركة الشحن والنقليات خاصة عمه، ويصبح غنياً جداً. إنه يطلق تلك العاهرة و... ويذهب إلى التيبت. ليصبح بوذياً، ويجد الحقيقة... كان دوماً يقول إنه سيفعل هذا. لم نكن نصدق. انظر، ولكنه في النهاية يفعل ما يقوله. بسببي أنا... أي بوساطتي. أنا بت غنية. أسبح في الجاه والمال والترف. إلا أن زواجي هذا كان أسوأ من الذي سبقه. كايهان مدمن مخدرات. ويعودني إدمانها. بعد عدة سنوات بدأ يجلب بنات الهوى إلى المنزل. حموي وضع عينه علي. مقرف! وأعتقد أنه يغتصبني في إحدى الليالي... ولكن لم أتأكد من ذلك أبداً لأنني في تلك الليلة تناولت الكثير من الحبوب المخدرة مثل العادة، وأذكر كل شيء من خلف الضباب. أريد فقط أن أصدق أنني رأيت كابوساً. ولكن نظرات حموي تقول لي إن ذلك حدث فعلاً. أتخبط ليلاً نهاراً بين مخالب الصداع النصفي. أحاول الانتحار عدة مرات، ويتم إنقاذي في كل مرة. تجري السنون هكذا. إلى أن يموت كايهان. أترمل للمرة الثانية في عمر الخامسة والخمسين...» أريد أن أقول شيئاً ولكن ربط لساني. كانت أذناي تلتهبان. كنت غير متأكد من أنه بإمكاني تحمل أكثر من ذلك إلا أنها كانت قد انساقت بنفسها بتخيلات سادية مازوخية ضمن تلك الغصات والتجهشات. «يطرق الباب عند عودتي من جنازة كايهان، فأنظر وأراه هو أمامي... أركين. قد عاد من التيبت. ينظر ببعض من دون كلام. وفي النهاية يقول لي "لم تجدي السعادة"، وأرد عليه "وأنت لم تجد الحقيقة". يهز رأسه يمنةً ويسرةً ويبتسم. يرد قائلاً "ذهبت إلى هناك ليس لأجد الحقيقة بل لأنساها". يتقدم ويقبلني. ولكن أنا لا أرد له بالمثل. عندها يدرك أنه لا يجوز أن يقوم بهذا

مرة أخرى أبداً. رغم ذلك لم يعد يؤلمني رأسي أبداً بعد تلك القبلة. في تلك الليلة تقوقعت ونمت بجانبه في حين كان يمسك بيدي. كنت أغفو دون انقطاع بطمأنينة. لم أتخلّ عنه مرة أخرى أبداً. في حين كنا نتمشى معاً في بستان أزهار مقام فوق ركام السنين، يتلو لي الأشعار، ويقص لي الحكايا. لا نتكلم حول الماضي أبداً. ولكن في بعض الأحيان نفكر ونأسف على أنه ليت كل شيء كان بشكل مختلف. و...» ولكنها لم تكمل بسبب وقوعها في نوبة بكاء. ذرفت دموعها في حين كانت يدي التي تعرقت من الدهشة ما زالت بين راحتيها. ثم حدقت بعينيها المرعبتين ، اللتين تحولتا إلى طبقين من الدم، إلى عيني. «لا علاقة لأركين بهذا الأمر».

لم نكن قد وصلنا إلى صلب الموضوع، ولكن صلب الموضوع قد وصل إلينا. إلا أني كنت في حالة مشتتة. حاولت ابتلاع ريقي واستجماع أفكاري. كنت أعلم أن كلمة خاطئة واحدة فقط يمكنها أن تدمر كل شيء. «أصدقك».

«ستتدمر حياته بسبب تلك الفتاة... حياتنا!»

«من تكون تلك الفتاة؟»

«تلك العاهرة. التي يزعم أنه يحبها... ولكن في الحقيقة يحبني أنا».

قلت بريبة: «لا شك لدي في ذلك. ما اسم هذه الفتاة؟ كيف ستدمر حياتكما؟ عليك أن تخبريني. بإمكاني المساعدة».

«أففف! لا أعرف اسمها. لم يحدثني أركين كثيراً عن الفتاة... لأنه يخجل من كونها عاهرة». كانت تتنفس بشكل متقطع ولم يكن هذا نشير خير. ستفرغ بعد قليل ما بداخلها. عدت إلى جانبها بعد أن قفزت، وفتحت النوافذ كي يدخل الهواء النظيف إلى الداخل بعض الشيء. هممت بالقول: «ذلك الشرطي المقتول... لم يكن شخصاً جيداً. أعرف ذلك. أعتقد أنها كانت للفتاة مشكلة مع ذلك الشرطي. لا أعرف ما هي بالضبط ولكن برأيي كانت تلك الامرأة

توسوس في عقل أركين كي يذهب ويقتل الرجل. وعندما فشلت في خداعه ذهبت وقامت بهذا العمل بنفسها. نعم، تلك العاهرة من ارتكب الجريمة!»

إن طريقة حكيها لآخر جملتين جعلني أفكر بأنها تخفي شيئاً ما. ولإظهار ذلك قررت أن أقوم بخداعها بكلامي. قلت بكامل فاشيتي: «في الليلة التي تمت فيها الجريمة رأيت الأخ أركين يخرج من منزل السيد حجابي، ويدخل إلى هنا».

حدقت بعينيها، اللتين لم تعودا تنظران ببلاهة، إلى عيني. كانت تحاول معرفة إن كنت أقول الحقيقة أم لا. في الحقيقة كانت فتاة ذكية. ولكنها ليست بذكائي بالطبع. تنهدتْ نفساً عميقاً وبدأتْ بالحديث. «في اليوم الذي سبق الجريمة سمعت أركين يخبر كوراي عن مجموعة من الصور. بعض الصور التي بيد العجوز. كان يريد من كوراي أن يساعده كي يأخذها ولكن كوراي رفض ذلك. ولهذا السبب تشاجرا...»

«ما نوع الصور التي يتحدث عنها؟»

صرخت بطريقة شريرة: «لا أعلم... لهذا السبب ذهب أركين في تلك الليلة إلى منزل الشرطي، هل فهمت؟ عندما عاد في منتصف الليل إلى المنزل كنت لا أزال مستيقظة. كان في حال يرثى له. قال إنه مات الشرطي. ثم وضب حقيبته بسرعة وهرب. الآن لا أعرف أين هو ولكن متأكدة من أنه ليس هو من ارتكب الجريمة».

«كيف؟»

«لأنه إن ارتكب جريمة فلن يصبح راهباً بوذياً».

حنيت رأسي إلى الأمام. «أفهمك».

تشبثت بيديّ عندما سمعت طقطقة من الباب الخارجي. إن ما خاب ظني أعتقد أنها عشقتني. ممكن أيضاً أن يكون ظني خائباً. بعد ثانية كان الأخ كوراي

ينظر إلينا وعلى وجهه ملامح حمقاء وفي يديه كيسان كبيران مملوآن بقوارير الجعة. «يشيم! من أين ظهر هذا الولد؟»

أول مرة يَقبض عليّ عشيقٌ وأنا مع معشوقته. في الحقيقة عمر الخمس سنوات لا بأس به. وضعت قبلة ما بين خد وشفتي يشيم قائلاً: «لديك اسم جميل يا يشيم،» وذهبت بخطوات حازمة إلى جنب منافسي. «كن حذراً. أنظاري عليك». ولكن بعدها مباشرةً ندمت لأني فعلت هذا. أولاً، إن الحديث الذي أجريته مع يشيم يظهر أن الأخ كوراي يعرف الكثير وحصولي على شهادته يمكن أن يفيدني كثيراً. ثانياً، مهما كانت شخصيتك قوية، إن تحديك لشخص أطول منك بمتر لأمر مضحك.

إن لم تكن رياح الظنون تهب في رأسي عند خروجي من الشقة رقم أربعة فذلك نابع من كوني أفخر بنفسي. ولم لا؟ إن إظهار هوية القاتل كان مسألة وقت. كنت سأنقذ أرتان المجنون. كنت سأظهر لمتين بلكين من أكون أنا. كنت رجلاً جذاباً. رغم ذلك فلن أمر دون ذكر أن هذا الإعجاب مظلل بعار مبهم بعض الشيء. سبب ذلك ربما كان تقبيلي لأول مرة فتاة "بتلك الطريقة"، ربما بسبب خداعي لها كي أسحب الكلام من تحت لسانها، ربما لأن السعادة كانت محرمة عليّ. ربما كانت تزعجني فكرة إنشاء سعادتي بناء على دمار الأخ أركين، طبعاً. عند وضع تصاميم يشيم حوله في الحسبان، لا يعدّ سيئاً قضاء الأخ أركين الثلاثين عاماً القادمة في السجن. ما ستفهمونه أن رأسي كان معكراً. ليس سهلاً، كنت قد خطوت خطوةً إلى عالم الرجال.

ما إن قد مشيت عدة خطوات خارج البناء حتى لاحظت جسداً شديد الصلابة متشبثاً أمام الباب الأمامي. سُحبت الغيوم من تحت قدمي وهويت على الأرض بالشكل الذي يناسبني عند معرفتي لبشري يبتسم بسعادة بوذي قد وصل إلى النيرفانا. زأر الأخ الغضنفر برقة عند جثوه قائلاً: «أووو،» قال وهو يداعب رقبتي "آراب وكونت" اللذين بدوا فجأة في المشهد. «من أرى هنا؟ إنه الواشي الصغير».

قلت: «وأنا أرى أمامي ثلاثة كلاب». أعتقد أن الحياة معارضة للطبيعة الإنسانية. على الأقل لطبيعتي أنا.

«إذن، كيف حالك؟»

وترني جداً عند سؤاله عن حالي وضحكه بطريقة منحرفة في الوقت الذي يجب عليه أن يغضب. أعتقد أنه بعد قليل عند انتفاخ قائمة الذين ستتم محاسبتهم كانت تزداد سعادته. حقيقة الأمر أني كنت متوتراً جداً لدرجة أنه يمكن تسمية ذلك بالتغوط في الملابس الداخلية بأريحية من شدة الخوف. كان من صالحي التصرف بدبلوماسية أكثر بعض الشيء. «عادي».

«عادي». رفع رأسه، وأظهر وجهه المليء بالتورمات وآثار الضربات. «برأيك هذا أيضاً عادي؟»

«عادي. إن وجه أي شخص سيصبح هكذا عند أكله لهذا الكم من العصي».

حدق الغضنفر عيونه التائهة إلى الأعلى. تحركت شفاهه دون ثقة، نهض وقال بصوت لطيف للغاية: «سأضاجع أمك». عند الإشارة بإصبعه علي، كان إعطاؤه لإشارة الهجوم وبدء آراب وكونت بالزمجرة بحقد قد تم بآن واحد.

إن الشيء الوحيد الذي بإمكاني القيام به هو أن أفتل ظهري، وأركض بالاتجاه الوحيد الذي يمكنني الهرب إليه، الباب الخلفي لمبنى كوزيل يايلا. نفذت الواجب فوراً. بعد ثانية كنت في حديقة المنزل الذي يقيم فيه صديقي العزيز جمال الدين ذو المخاط وطبعاً عدوي اللدود الغضنفر. لم يكن جمال الدين ولا أي شخص من العائلة البالغة اثنين وثمانين ألف فرد في الأوساط. كان باب المنزل مغلقاً؛ إذ كان يترك مفتوحاً في العادة، وكانت الستائر مغلقة بإحكام. وكأن أخوته كعائلة تعاونوا ليخلقوا لأخيهم الكبير جو الجريمة الأنسب. ربما كان الجميع يأكلون البذور خلف الستائر يتجهزون لمشاهدة موتي. كانت الكلاب قد بدأت تلحق بي بنباح مخيف. ندمت آلاف المرات لأني لم أسممهم في تلك الليلة وأرسلهم برفقة السيد حجابي.

أغلقت الباب على نفسي بحالة ذعر في أحد مستودعات الفحم القديمة التي في الحديقة. كان تصرفاً غبياً. كانت الكلاب قد زُرعت مباشرة أمام باب الغرفة الصغيرة التي أختبئ فيها. لم يكن يوجد في الداخل شيء يشبه ذراع الباب كي أبقيه مغلقاً. كنت قد أوقعت بنفسي في المصيدة. كان وصول الغضنفر مسألة وقت. وجهت في داخلي كفرية دسمة لأونور تشالشكان. مع اقتراب أصوات أقدام الأرجل إلى المكان الذي أنا فيه، لم يكن يخطر ببالي طريقة للخلاص سوى الصياح والنياح بطلب النجدة. من ناحية أخرى كنت أعرف أنا هذا لن يجديني نفعاً. كما أنني لم أكن أريد أن أقع بموقع الصغير أمام هذا المتسكع. كان يجب علي أن أجهز جسدي لتهميش كبير. ولكن عندما فتح باب مستودع الفحم وعندما أصبحت وجهاً لوجه مع الغضنفر، ذهبت يدي بردة فعل لا إرادية إلى الدالاس كولد الذي في خصري. أفرغت، دون شعوري بأدنى تردد، مخزنه المليء بالطلقات المطاطية في وجهه. إن الطلقات الأولى جعلته يتفاجئ قليلاً فقط. ولكن لحظة لعبي لورقتي الأخيرة عندما علمت أني خسرت، صرخ بشكل مروّع وتراجع. كان يغطي وجهه بيديه ويتقلب من الألم. كنت قد أصبت الغضنفر في عينه. مع دفعي لهذا الأخرق جاهداً لأنجو، قفزت على السلالم الخشبية التي تمتد من بين الكلاب إلى مستودعات الفحم التي في الجهات المقابلة. تسلقت القمة بخطوتين وتفقدت اليمين والشمال. إن النزول إلى الأسفل يعتبر انتحاراً. كان الغضنفر، الذي نلت منه للمرة الثانية خلال أسبوع واحد، قد صعد إلى قمة تلة الحطب يتقدم نحوي وعينه في حالة غطتها الدماء بكل المعاني. اجتزت الأسلاك الشائكة التي بجانبي مباشرةً بلمح البصر ورميت نفسي إلى حديقة السيد روحان. إن سقوطي كان أصعب بكثير مما توقعت. كانت ركبتي تنزف والأسلاك قد شقت يدي ووجهي. تركت موضوع تفقد الأضرار إلى مرة لاحقة، ونهضت، وبدأت أركض بكل قوتي نحو القصر. دون تفكير دخلت إلى الداخل من خلال نافذة

من دون زجاج من إحدى نوافذ الطابق الأرضي. كنت لا أزال أسمع الشتائم والتهديدات التي كان يطلقها الغضنفر من خلفي. سندت ظهري إلى الجدار الخشبي. وتنفست الصعداء. جثوت على الأرض في حين كنت لا أزال أمسك بمسدسي بشكل محكم، وبدأت أضحك من تلقاء نفسي. كنت أعيش أسرع أيام حياتي. كنت محاطاً بالنساء التي ستقاتل والنساء التي ستُحبّ. صحيح أن سلاحي كان بلاستيكياً. ونسائي أيضاً. ولكن يبقى هذا أفضل من لا شيء.

- ٧ -

الانتقام الأعظم

قمت بتقييم سريع للوضع بعد أن التقطتُ أنفاسي قليلاً. بالرغم من أن الغضنفر لم يتجرأ على القفز من على الجدار إلى الأسفل، كنت على يقين أنه لن يتخلى عن ملاحقتي بهذه السهولة. بسبب ارتفاع الجدران المحيطة بحديقة القصر، يجب علي أن أستخدم باب الحديقة الذي يطل على الشارع العلوي كي أغادر المكان. كان قريباً من المنطق أن يقوم الغضنفر مع كلابه بالتعسكر في هذا المكان لانتظاري. هناك احتمال أن يغامر ويدخل الحديقة. إذا وضعنا في عين الاعتبار أني موجود على قائمة "أول من سيتم تمزيقه" لدى آراب، وكونت بسبب ذاكرة الشم القوية لديهما، فلن يكون لي أمل في الخارج. إن العمل الأذكى الذي يمكن أن أقوم به هو ألّا أغادر المكان الذي أنا فيه لعدة ساعات أخرى.

إن الغرفة التي لجأت إليها لا يوجد فيها أغراض أبداً. لقد فُتّت قسم كبير من خشب الأرضية العادي جداً من خلال حشرات "قوارض الخشب". ومن أجل إضاءة المكان الذي كان واضحاً أنه قليل الاستخدام، كان قد فتح ثقب كبير في أحد الجدران، المتسخة كما الجيفة، وتم وضع مصباح في نهاية الشريط الكهربائي المنسدل من هذا الثقب. إن الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يحفز التخيلات هو الملاوق بالمقاسات المختلفة المصفوفة أسفل الحائط، أدوات تقطيع، لواصق، وعلب معدنية مليئة بسوائل غير معروف ماهيتها. كان لافتاً للانتباه قمامات المعلبات وعلب السجائر الفارغة المرمية هنا وهناك. إذن، لماذا كان المنظر العادي للبؤس، الذي يمكن مصادفته في ملجأ أي أحد من المجذوبين المرميين في حفرة قذارة الصرف الصحي للحياة، يشكل لدي ارتباكاً غريباً؟ سببه كان الرائحة.

تلك الرائحة المحببة والغريبة التي تتعارض بشكل جدي مع الحالة المهملة للمنزل.

رغم أنني لقّنت نفسي جيداً أنه لا يجوز أن أخرج من تلك الغرفة أبداً، وألّا أتحرك من مكان جلوسي أيضاً، تحملت ذلك خمس دقائق. بدايةً إن التوقف لا يشعرني بحالة جيدة. كانت تنسم أفكار غريبة بشكل عشوائي في مخيلتي حول الجريمة والغضنفر وكلابه و حول –لا أعرف السبب- مديرة الحضانة؛ إذ كانوا يداعبون عقلي وكأنهم آكلو الجيف. ومن ناحية أخرى، عند إلقائي نظرة إلى الجوار وأنا منسل إلى ملجأ أكثر الرجال غموضاً في شارعنا، كنت أريد معرفة أي نوع من الرجال يكون. في حين كنت في سباق مع الموت في الحديقة لم أكن قد رأيت شاحنة السيد حجابي في مكانها المعتاد. أي أنه احتمال كبير أن أكون وحيداً في المنزل. أساساً لا يوجد سبب كي أخاف منه إلى هذه الدرجة. فعلاً، كان صاحب هيئة منفرة، ولكن بنتيجة الحال ألم يكن جميع الناس الذين يعيشون في الدنيا منفرين، وسيئين أيضاً؟ كنا مضطرين أن نكون سيئين كي نديم وجودنا. حتى لو كان هناك أناس أخيار في الماضي، لم يبق أثر من جيناتهم على وجه الأرض. فلنأخذ مثال نفسي: إنني صبي يقضي كل يوم عدة ساعات من الوقت تحت الديوان، يرى مجنون الحي كأخ روحي، لا تهتز له شعرة أمام جثة مذبوحة الحلق، يبني تصورات حول فتيات عشرينيات، مدمن أسلحة وكحول. لوحة بورتريه للوحش عندما كان طفلاً صغيراً! راسبوتن خُلق مجدداً.

عندما أخذت نفساً عميقاً، وخرجت من الغرفة التي أختبئ بها كنت قد وضعت قدمي في المدخل. كان يوجد على يميني الباب الضخم لمدخل المنزل وعلى يساري المطبخ وسلالم تصعد إلى الطابق العلوي بشكل لولبي. وأمامي مباشرة غرفة ثانية. اتجهت بذلك الاتجاه مباشرةً. إن وجود طاولة صغيرة في وسط الغرفة والأريكة التي في الطرف وراديو قديم وبالطبع تلفاز أيضاً يشير بشكل واضح إلى وجودي في المجال المعيشي الرئيسي للمنزل. إضافةً إلى الأزهار

الملونة في كل زاوية في الغرفة. ربما كان في الداخل مئة أصيص. انتابني شعور الضحك. أن يكون ذلك الشخص، ذو الوجه الأشبه بجدار المحكمة، مولع بالأزهار هكذا! كان من الصعب فعلاً معرفة الناس.

كان عنواني الثاني المطبخ. بالرغم من تعرضي لخيبة أمل صغيرة عند عدم رؤيتي لشيء يشبه البراد، انتشر دفءٌ لذيذ من فؤادي إلى داخلي عند رؤيتي لدولاب من الأسلاك مليء بأنواع من مؤن الإفطار كالبسكويت والحليب والمربيات. كنت على وشك الموت من شدة الجوع، وباشرت فوراً بالتزود. كنت أشعر بالتعلق بالحياة لدرجة أني كنت أحس بالحب اتجاه الغضنفر ولو حتى قليلاً عندما كنت أملأ أحشائي. كنت أتجرع كأساً كبيرة من الحليب دون خجل، وإذ يقشعر بدني بسبب سماعي لصوت طقطقة، أو بسبب زيادة حدة الرائحة الغريبة في أنفي التي شممتها عند أول دخولي إلى المنزل، لا أعرف بالضبط ولكن توقفت عن الطعام، وقفزت من المطبخ إلى الخارج. استنشقت الهواء بحذر. رائحة ملعونة، كلا، ليست من الأزهار. من جهة أخرى لم يكن يبدو أي شيء غير اعتيادي. ربما فقط كان يزداد جبن الإنسان عندما كان يبدأ بالشبع.

ذهبت بانتباهي إلى السلالم، التي أخذت مطرحاً في عقلي منذ اللحظة الأولى. تسلقت الدرجات التي كانت تصر مع كل خطوة قائلاً "انتهى فصل الطعام، فليستمر البحث عن المصائب". كان ينتظرني باب مغلق في نهاية السلالم. دفعت بهذا الباب أيضاً دون المبالاة لارتعاش الغموض القوي الذي انتابني. كما توقعت، فهنا هو المكان الذي كان يغط فيه السيد روحان بعالم الأحلام وأكثر الأماكن التي يمارس فيها العادة السرية. لم يكن هناك ما يدعي للغرابة في تشتت الفراش الضخم، الغريب هو نظافة أغطية الفراش. من الواضح أننا وسمنا الرجل المسكين طيلة هذه السنوات بهتاناً على أنه جزار بشر. طبعاً لم يكن هنالك قاعدة تفيد بأن الجزارين لا يحبون الأزهار، ولا يغيرون أغطية فراشهم، ولكن كان الأقرب من المنطق أن يكون السيد روحان مسكيناً يحاول استدامة حياته

بشكل منمق بقدر استطاعته. إلا أنني لحظت علب الأدوية والحقنات التي تقف على الكومدينة الصغير الموجود عند رأس الفراش. حسب ما علمت أن الذي في العلب من مشتقات المورفين. وعند فتحي لجرار الكومدينة لاحظت وجود كومات من أنواع أخرى من الأدوية. ثم لاحظت النقاط الحمراء التي على الوسادة، والنوافذ التي أغلقت بعدد من الورق المقوى الضخم منعاً لضوء النهار، وعدم وجود أي نبتة في الداخل. كان الموت في مكان ما في الجوار.

ما منعني من القيام بتصورات أخرى هو خرخرة محرك إحدى وسائل النقل. وعندما قفزت إلى النوافذ، ونظرت إلى الحديقة من خلال الورق المقوى، فرأيت أنه أصابني ما كنت أخشاه. كان السيد روحان يركن شاحنته. نزلت من على السلالم بلمح البصر إلى الأسفل. كانت نيتي أن أهرب من الطريق الذي دخلت فيه إلى الداخل، ولكن وسوس الشيطان، ودخلت المطبخ كي أعيد لملمة الأشياء التي تركتها على المائدة. ومع إنهاء مهمتي قمت بحملة باتجاه الغرفة التي في الطرف الأيمن، ولكن لم أكن قد خطوت إلا خطوتين حتى فتح الباب الخارجي للمنزل. لاحظت حينها وجود مدخل في الردهة أسفل السلالم مباشرةً، ولا أعلم لماذا لم ألحظها من قبل، ودخلت فيها. من الجيد أنني رأيت الخلوة التي تطول نصف متر تقريباً تحت الأرضية، وبذلك أكون قد تخلصت من السقوط على الأرض. كان بإمكاني في تلك الأثناء سماع دخول السيد روحان إلى المنزل. كنت وجهاً لوجه مجدداً مع باب عند انصبابي في الفراغ الذي يشبه قبراً صغيراً. كنت كما لو أنني في تلك الرواية الشهيرة التي تدور في منزل ذي أربعين باباً وقد وصلنا إلى الجزء الذي لا يجوز فيه فتح هذا الباب أبداً. كما تعرفون، ليحدث شيء يجب على أحمق ذي روح مبادرة أن يخرق هذه القاعدة. فتلت مطرقة الباب بهدوء لأنفذ ما يقع على عاتقي. وبعدها خطوت ربما إلى مستودع أو مخزن صناديق، أو ربما إلى المكان الذي يعيش فيه شقيق السيد روحان القاتل ذو العيون الثلاث وسبع خصيات والذي جاء نتيجة لاختبارات جينية مجنونة.

اصطدمت تلك الرائحة المشؤومة بكل كثافتها في وجهي. كان الظلام دامساً في الداخل. كان يمكن تمييز بعض الدرجات التي تنزل باتجاه الأسفل، هذا كل ما في الأمر. بحثت يميناً وشمالاً في المطارح الفارغة عن زر الإنارة. طبعاً لا يعتبر ذلك عائقاً بالنسبة لشخص كسيادتي أنا اتخذ دوماً الذهاب إلى المصدر دستوراً له. أغلقت سمعي أمام صرخات استغاثة للأزهار التي في الغرفة العلوية، وألصقت كفيّ بإحكام على كلا الجدارين اللذين على طرفيّ، ونزلت من على السلم الضيق بتريث. مع الدرجات، انتهى من حولي كل ما يتعلق بالإضاءة. حينها لا أعلم لماذا انسقت إلى فكرة غريبة أن الإنسان يشعر بالحاجة إلى الضوء لأنه لا يحتمل رؤية الرب. كان الظلام هو الرب بذاته. من يمكن أن يكون غيره قريباً إليكم أكثر من وريدكم، موجود في كل مكان ويراكم، ويحيط بكم في كل وقت؟ ليس بإمكانكم رؤيته لأنه كان يختبئ خلف النور. كنت أستمتع بهذا "التنور" مستنشقاً هذه الرائحة الجميلة المسكرة حتى وجدتْ يدي زر إنارة على الجدار. ضغطت عليها دون التفكير ولو لثانية واحدة.

كان ضوءاً باهتاً لكنه كان كافياً لكي أرى السيد حجابي بأجمل تعابير الحقد على وجهه الشاحب كبياض الكلس ماداً يديه المشؤومتين بصيغة تهديدية على حلقي. رغم اهتزازي بمشاعر دهشة جديدة من النوع الذي يتذوقه القليل من بني الإنسان، لم أتعرض للذهول. لأنه، حتى لو لم أكن أعرف أن السيد حجابي قد مات، عند النظر إلى تلك العيون المفترسة الجامدة، يمكنني معرفة أن الذي يقف أمامي هو في الحقيقة إبليس نفسه. ها أنا في المكان الذي كنت أتخيله دائماً، في جهنم. جعلت ظهري باتجاه الحائط وركعت على ركبتي، وانتظرت معتقداً اعتقاداً خالصاً أنني سأفقد بعد قليل كل ذكرياتي ومشاعري، على الأقل ستختفي أهميتها بالنسبة إلي. ولكن عندما لا يأتي إبليس بأي حركة مع مرور الدقائق، رفعت رأسي ونظرت إليه. إنه أمر غريب، ولكن رؤيتي لعشرات العفاريت المخيفة بمقدار إخافته على الأقل مصفوفة خلفه، لا أعرف لماذا أراحني. من

يدري، ربما بسبب اعتقادي أنها ستنخفض نسبة الحقد الذي يقع على كل شخص. ولكن ليس أي واحد من هؤلاء الوحوش البرية كانت تبدو عليه الحياة كما هو الحال لدى السيد حجابي. وكأنهم تعرضوا لغضب أحد السحرة وتحولوا إلى حجر. ولاحقاً لاحظت أنه لم يكن السيد حجابي هو الشخص الوحيد الذي عرفته ضمن هذا الطاقم. إضافةً إلى بعض الوجوه المألوفة لدي من الحي، كان هنالك الأخ أركين والأخوان ربيع وشامي إضافةً إلى البقال يعقوب ضمن أفراد هذا الجيش الملعون. في انتصاب كل منهم توجد ملامح حياتية تعكس خلاصة أرواحهم على وجوههم، حيث كان كل شخص منهم وكأنه يجسد وصفاً رائعاً للحقد أو الجشع أو الحسد.

فجأةً انتابني خوف أن أتحول إلى حجر في المكان الذي أتقوقع فيه وأصبح واحداً منهم. انفجارُ أدرينالين فجائي حوّل جسدي إلى ذرة منشطرة، وقفزت بكل قوتي على الشبح بهيئة السيد حجابي. هويت أرضاً مع الكتلة التي، وثبت عليها عندما فقدت توازنها بطريقة غير متوقعة. التوى معصم يدي اليسرى بشكل مروع ولكن كان وضعي مقارنةً مع وضع منافسي رائعاً. كانت قد انفصمت يده، وتفتت رأسه إلى ثلاثة قطع. بات يجب الإيعاز بالتوقف لهذه المسيرة. يجب ترك الهذيانات الروحانية جانباً والاقتراب من القضية ببرودة دم وبمهاراتي العقلانية. أخذت إحدى القطع وقربتها من أنفي فتكشفت جميع "الأسرار" فجأة. إن ما أمسكه بيدي ليس إلا قطعة مصبوغة من الصابون. ها هي الرائحة المنتشرة في جميع أرجاء المنزل والذين أمامي ليسوا مخلوقات جهنمية، بل تماثيل مصنوعة من الصابون.

إلا أن ارتياحي لن يدوم طويلاً. انطفأ الضوء مع طقطقة صغيرة وعاد القبو ليُغمر في الظلام. وقبل أن أجد الوقت لألقن نفسي أنه بلا شك هناك تفسير منطقي لهذا حتى شعرت بخرخرة أنفاس تدغدغ رقبتي. اقشعر بدني، وأصبح بدني في حالة تأهب. بدأت أركض وأنا أصرخ باتجاه الظلام مطيحاً بكل شيء

يأتي أمامي. كنت أصطدم بالجدران بحالة ذعر، وأتعثر بشيء ما، وأسقط أرضاً، ولكن كنت أستمر في التقدم. كان القبو يمتد بشكل مناف للعقل، وبحسب ما فهمت أنني وصلت إلى مكان كالنفق. وإذ بريح صدمت وجهي، ثم رأيت النور في مكان ما بعيداً. إن هذا الأمل الذي برز فجأة، في حين كنت أتخبط بيأس تام، أمّن قوة متجددة لأقدامي ولرئتي.

في النهاية، ومع خروجي إلى مساحة ذات أرضية حجرية لا تتعدى العشرة أو الخمسة عشر متراً مربعاً، استنشقت ضوء النهار إضافةً إلى الهواء النظيف. لافت للانتباه وجود حديقة في الطرف الآخر للجدار الحجري الذي يرسم حدود المكان، ولا يتجاوز ارتفاعه مستوى ركبي. رميت نفسي إلى هناك فوراً. ومع تقدمي في السير تعرفت فوراً على البناء الذي ظهر أمامي رغم أني أراه أول مرة من هذه الجبهة. إنه المبنى الذي تسكن فيه عائلة هاكان. وكنت أنا في الحديقة الخلفية لهذا المبنى التي كنت أجهل وجوده حتى يومنا هذا. لمعت الفكرة في رأسي عندما كنت أحاول باستغراب استيعاب كيف خرجت اعتباراً من منزل السيد روحان إلى حديقة منزل آخر في الطرف الآخر للطريق: كنت قد اكتشفت عن طريق المصادفة الممر السري الذي رأيته سابقاً في خريطة الأخ ربيع. حتى لو لم ينفع الممر ضد اليونانيين، أنقذني من ذلك المنزل الملعون.

توجهت فوراً نحو الباب الحديدي الذي يفتح على قبو المبنى. غايتي الخروج من القبو إلى الطابق الأرضي، ومن هناك إلى الحي. ولكن بعد لحظة أدركت أن هذه الحركة لن تكون حركة ذكية أبداً فتراجعت. كان منزل هاكان مقابل مبنى كوزيل يايلا تماماً. من الممكن أن ألتقي الغضنفر والكلاب الأخرى في الخارج. كما أنني إذا خرجت إلى الشارع سيجب عليّ قطع مسافة خطيرة ما تقارب المئتي متر من هذه النقطة إلى بيتنا. كان يعتبر عدم الخروج عن الطريق السري أكثر أماناً حتى الوصول من مكان قريب إلى المنزل. وبذلك بدأت أتقدم بالقفز من حديقة إلى أخرى.

طبعاً إن حساب القرايا لا يتناسب مع حساب السرايا. بسبب أن الطريق الذي أتبعه لا يشكل خطاً مستقيماً يتوازى مع الحي، بعد مدة من الوقت بت في حالة أبحث فيها بحدسي لنفسي طريق مخرج من متاهة مؤلفة من الحدائق الخلفية الجافة والأضواء ومستودعات الفحم. رغم ذلك كنت أشعر أني أقترب من المنزل ببطء، وأني بدأت أستعيد ملائكتي العقلية بنسبة لا بأس فيها. إضافةً إلى حمل شكوك جدية حول موضوع حقيقة التجارب التي عشتها، كان يجب علي أن أجري تحليلاً باعتبارها حقيقية.

بدايةً، إضافةً إلى إصراري على بحث أن الظلام رب، فلم أكن أرى الخفة في النفخ على رقبتي أنها تليق بالخالق العظيم. في هذه الحالة، من المفترض أن يكون السيد روحان هو من جعل مرارتي تختلط ببرازي في القبو. هذا يعني أنه رآني قبل إغلاق الضوء وبالنظر إلى تصرفاته اللاحقة فلم يكن قد أعجبه هذا الشيء. من الواضح جداً أني اكتسبت عدواً جديداً. رغم ذلك، إن مختلا عقلياً، بعد المختل العقلي المسمى الغضنفر، يملك مواهب فنيةً عالية المستوى كالسيد روحان، كان يثير مشاعر كبريائي أكثر بصفته عدواً.

في المناسبة، إن خطواتي أو القدر قد جاء بي مجدداً إلى مكان الجريمة. إن المكان الذي وصلته بعد كل هذه المسافة التي قطعتها هو حديقة الطابق الأرضي للمنزل الذي قتل فيه السيد حجابي. كنت أعيش مشاعر متناقضةً عند النظر إلى شقة البواب في طابق القبو التي كنت أعتقد من زمن طويل أنها فارغة. إضافةً إلى أن هذا المنزل كان يخلق تداعيات سلبية في مفكرتي، فقد كان موجوداً في أكثر المواضع الصالحة التي يمكن التفكير بها كي أنفتح إلى العالم. بعد أن رميت الغطاء إلى الشارع، وصلت إلى المنزل خلال عدة ثوان راكضاً ركضةً واحدةً. تفقدت مفاتيح المنزل التي في جيبي، وسللت سلاحي، ودخلت من النافذة إلى الداخل. أساساً كان الباب مفتوحاً، ولكن بذلك تزداد الحماسة. تسلقت إلى الطابق الأرضي بلمح البصر واضعاً بالحسبان بفرح أني سألتقي بعد قليل منزلي الدافئ

وبأبوي المنهارين عصبياً. إلا أنه لم يكن بنية القدر الخبيث أن يدعني وشأني. كنت قد مددت يدي على باب مدخل الطابق الأرضي للمبنى حتى فتح الباب من تلقاء نفسه، وأصبحت وجهاً لوجه مع عملاق يحمل بكلتا يديه كيسي تسوق مكتظين بالأغراض.

«أنت!» كانت ملامح وجه الأخ شامي تشبه الغضب أكثر ما تشبه الدهشة. كنت أشعر بأني كما لو تم إلقاء القبض علي وأنا أرتكب جرماً يستوجب عقوبة الإعدام. تفوهت بعدة كلمات مبهمة وأنا في حالة ارتباك. سأل الأخ شامي بحدة: «ماذا تفعل هنا؟»

إن محاولة قص ما جرى لن يجدي نفعاً. كنت واثقاً أن أغبى كذبة سألفقها ستكون مقنعة أكثر من الحقائق. تلعثمت قائلاً: «الأخ الغضنفر...» محاولاً خلق جو "سأبكي إن لمسوني" وتابعت: «... يطلق دائماً كلابه علي». إنني أحتقر تركيبة الجملة التي شكلتها حتى لو كانت في عمر السنة، وأقرف من نفسي عند مخاطبة الغضنفر "بالأخ"، ولكن كل ما ظنني الأخ شامي أني غبي كان أفضل. بنفس المواقف المعتوهة حاولت تفسير سبب وجودي هناك. «ذهب والداي لزيارة أناس، وخرجت أنا لألعب قليلاً حتى يعودوا. فقام الغضنفر...»

«الغضنفر ابن البواب؟»

هززت رأسي بمعنى الموافقة. «عند هروبي من الكلاب رأيت الباب مفتوحاً، فلجأت إلى هنا وبدأت أنتظر».

سأل الأخ شامي بشك: «هل كان هذا الباب مفتوحاً؟» وضع الحقائب التي كانت بيده جانباً دون تردد، وبدأ يتفقد القفل جيداً. وعندما لم يجد شيئاً استقام ورمقني بنظراته. سألني مشيراً إلى ركبتي: «هل الغضنفر من فعل هذا؟»

«سقطت عندما كنت أهرب».

حك الأخ شامي رأسه بضيق وبدأ يفكر. «ما دام هكذا، فتعال وانتظر أبويك في الأعلى».

«لا، دعني أنتظرهم هنا أفضل. أساساً هم على وشك الوصول». أساساً كانت مفاتيح المنزل في جيبي، ولكن فضلت إخفاء هذا كيلا أخلق شكوكاً جديدةً في رأسه.

وجهني نحو السلالم قائلاً: «لا يجوز هذا. كذلك نضع ضماداً لذلك الجرح الذي في ركبتك».

لم أعارض أكثر من ذلك. صعدنا معاً إلى الأعلى. طبعاً كان من السخافة الاعتقاد أن أبناء السيد حجابي سيغيرون في ديكور المنزل بعد موت والدهم. رغم ذلك، إن رؤيتي لكل الأشياء في المنزل موجودة في مكانها أثار دهشتي. تم التخلص من الأضرار التي أحدثها أرتان المجنون بدقة عالية وتم إلباس الأرائك بغلاف بني غامق. ربما كيلا يظهر الدم إن تمت جريمة أخرى على إحداها. أجلسني الأخ شامي في المكان الذي قتل فيه السيد حجابي تماماً بعد أن جلب أدوات الضماد اللازمة من خزانة الصيدلية.

سأل الأخ شامي عندما كان ينظف الجرح بماء الأوكسجين: «حدثني إذاً، ماذا يريد الغضنفر هذا منك؟»

«أساساً إنه يعبث مع الجميع. طبعاً إنه يعامل شخصين يتحدانه دائماً معاملة خاصة».

«إذن إنك تتحدى شخصاً أكبر منك إلى هذه الدرجة؟»

«فقط عندما يتمادى كثيراً علينا».

«أحسنت. أنا أحب الأشخاص الشجعان». كان من الذكاء أن يقول هذا لي عند وضع صبغة اليود على ركبتي. انتظرت ولم أتفوه بهمسة واحدة لإبراز أني استحقيت المديح الذي نلته بالرغم من تخدر عقلي من شدة الألم. «عليك أن تصبح جندياً عندما تكبر».

قلت: «كنت أعتقد أن الطاعة في الجيش تعد مزيّة، وليس التحدي». إنها مصيبة لسان البلابل.

قال وكأنني قلت شيئاً يوافقه بالرأي: «بالطبع إن الطاعة لازمة في إدارة وسوق وحدة عسكرية». قالها بأكثر أساليبه تعليمياً. لا بد أن عقله في مكان آخر.

قلت لذلك الرأس الذي بدأ بالصلع لذلك الرجل الذي يبدو وكأنه راكع عند أقدامي عندما كان يجري الضماد لركبتي: «كان الازدحام شديداً لديك في المقبرة، لم تتسنّ الفرصة للتكلم. البقية في حياتكم».

قَبل عزائي له هازاً رأسه بطريقة يبدو شارد الذهن فيها.

«هل استجمع الأخ ربيع قواه قليلاً؟»

قال: «سيجمع. ما باليد حيلة. أساساً إنه المكان الذي سنذهبه جميعاً عاجلاً أم آجلاً،» ملفقاً وملقياً جملاً بكوية. كان يريد إغلاق هذا الموضوع. كان هذا موقفاً واضحاً ومحترماً جداً بما يخص الأخ ربيع، ولكنه أيقظ لدي انطباعاً وكأنه فعل ذلك محاولاً إخفاء مدى حزنه على موت والده. ولا سيما أن ذلك جرى بحكم العادة وليس لخداعي. أنهى عمله واستقام. «لن أغلق الجرح. سيشفى بشكل أسرع إن تعرض للهواء. لكن كن حذراً كيلا يلتقط الجراثيم».

«شكراً».

«هل كان الرجل الذي رأيته يهرب من هنا...» كان اللهب قد غزا أذني. غدوت مصغياً. «يشبه He-Man قليلاً؟»

بدايةً فعلاً لم أفهم. قيمت احتمالات مختلفة انطلاقاً من حسن النية: اضطراب الكرب التالي للرضح، إعاقة، عدائية الالتهاب النفساني... إلخ. كلا، ليس أياً منهم. باعتقاده المحدود أنه سيجعلني أدوس على الفخ. يظن أنه سيثير خيالي من خلال معتوه مثل He-Man. وأنا بدوري، من يدري، كم هي كمية الهراء الذي سأبدأ بتلفيقه حول شخصية المتهم الخيالية. وبذلك سيتم معرفة أنني كذبت عندما قلت في المخفر أنني لم أر ملامح الرجل. يا للغرابة، إنني أدرك أنه

لا يوجد شيء ببعد واحد، وأن الغباء أيضاً له منحىً يمكن أن نقول عنه إنه عبقري. قلت بحماس: «نعم، نعم كان لديه شعر أشقر. ويهز ذيلاً حاداً في مؤخرته».

رغم أنها لمعت عيناه للحظة قصيرة، فهم من خلال الملامح التي على وجهي أن محاولته باءت بالفشل. أشار بإصبعه إلى هاتف ذي قرص من الزمان الغابر محطوط على إحدى الطاولات الصغيرة في إحدى زوايا الغرفة وقال: «من الأفضل أن تتصل بالمنزل. يمكنك الذهاب إن عاد أبواك». التقط أدوات الضماد التي على الأرض، وخرج من الغرفة.

ذهبت إلى جوار الهاتف كي أنفذ ما قاله. طلبت الرقم وبدأت أنتظر. في تلك اللحظة وقع نظري على مكتبة كتب ذات الرفين المعلقة على الحائط فوق الطاولة الصغيرة بقليل. كان مصفوفاً على الرفوف. أشياء للزينة بعضها أبشع من بعض أكثر من الكتب. لا أتوقع أن المرحوم كان صاحب ذوق متطور في القراءة. رغم ذلك فقد بدأت أجول بناظري، من باب العادة، على صفوف الكتب. سلسلة جامعيات جيبية من ترويج الصحف. عدد من بوليسيات أغاثا كريستي، وكذلك أيضاً توجد بعض الأعمال الغريبة ضمن تلك الكتب السيئة حول "تطوير الذات".

فتحت أمي الهاتف قائلةً: «نعم؟» بنبرة صوتها تلك كما في كل مرة التي تظن من خلالها أنها ستموت بعد عدة ثوان.

«هذا أنا يا أمي». (إنها طبعة قديمة لثلاثة كتب من سلسلة "بارداياانلار".)

«بحثنا في جميع المشافي والمخافر! أين كنت كل هذا الوقت؟» «كنت عند أحد الأصدقاء. اتصلت لأعرف إن كنتم قد عدتم». (إنه كتاب منتفخ بعنوان "إيميل، أو حول التربية" للكاتب جان جاك روسو)

«عدنا منذ عشر ساعات. عد إلى المنزل، سألقنك حسابك...»

«لن يجدي نفعاً. لا تفهمين أجوبتي أبداً». (وهبي دورموش: عادات، تقاليد، ونسب "دوراك كوي".) غريب.

قالت أمي وهي تبكي قبل أن تغلق الهاتف: «تعال إلى المنزل فوراً!»

كان يضيق نفسي معرفة أنني سأتناقش مع أمي أيضاً بعد أن أذهب إلى المنزل. رأيت آلة تصوير صغيرة تقف خلف حمار من البورسلان كنت قد مددت نفسي إليه لأزيحه جانباً كي أتمكن من قراءة عنوان كتاب قديم جميل الغلاف. تذكرت ما قالته يشيم في حين كان بدني الصغير الهزيل يهتز بسبب لا أدري كم أزمة تسرع ضربات القلب في ذلك اليوم. ادعت أنه جاء أركين تلك الليلة إلى هذا المنزل ليحصل على بعض الصور التي لدى السيد حجابي. على الأرجح أنها ادعت ذلك باطلاً. حتى لو كان ما قالته صحيحاً، فمن المحتمل أن ما تحدثت عنه لا علاقة له بهذه الكاميرا أبداً. ربما أيضاً أنه لا يوجد فيلم في هذه الآلة لأن الشرطة فتشت المنزل بدقة. رغم ذلك لقد رميت آلة التصوير في جيبي بسبب هاجس مسبق داخلي.

عندما أتى الأخ شامي إلى جانبي عقب سماع صوت سيفون الحمام، شكرته مجدداً على ما فعله من أجلي، وقلت له إن أهلي قد عادوا إلى المنزل، وإنه بات بإمكاني الذهاب. بعثت سلاماً للأخ ربيع، وتمنيت السعادة الدائمة مدى الحياة لكليهما. حتى إني بالغت قليلاً، وطلبت منه راجياً أن يعطيني في حين ما معلومات تفصيلية بخصوص امتحان القبول في المدرسة العسكرية. إن الأخيرة بالأخص أسعدته كثيراً. ودعني مبدياً الاحترام لوالدي. كنت أفكر خلال طريق العودة إلى المنزل بالجواب الذي سأعطيه لوالدتي عندما تسألني ما الذي أبليته طيلة اليوم: "أطلقت النار على رجل، اغتصبت إحداهن، وقمت بالسرقة. ولكن رغم ذلك تستطيعين الافتخار بي يا أمي العزيزة لأنني لم أترك خلفي سوى شاهد واحد؛ حمار مبتسم من البورسلان."

*   *   *

في بعض الأحيان يا أخواني وأخواتي الكبار الأعزاء تتدمر حياة الإنسان. تفقد الحياة كل معانيها التي تؤمن التدبير دون التفكير كثيراً. تفهمون سخافة أكثر أفكاركم التي تعتبرونها ذكية، وتصنع أكثر مشاعركم التي تعتبرونها قوية. أساساً ليس لديكم أية فكرة حول أي موضوع، أساساً لا تشعرون بأي شيء اتجاه أي أحد، وأن الكون بمجمله سيكون بنفس اللامبالاة الظالمة اتجاهكم. ستكونون على وشك حل طريقة العمل الإلهية عندما تلاحظون الحقيقة التي تنجحون في تجاهلها بصورة أو بأخرى في ذلك اليوم رغم وجودها أمام أعينكم بشكل دائم.

يخلق الرب الكون ليملأ فراغاً لا يُطاق. يضع الكواكب في الكون، والكرة الأرضية في الكواكب، والحياة في الكرة الأرضية، والإنسان في الحياة. ولا يجد شيئاً ليضعه داخله. ها هي حكاية أن يكون الحيوان الذي يدعى إنساناً أعظم المخلوقات وأكثرهم عديم المعنى. عند الثرثرة عن جوانب الكون بالفلسفة والفن والحب وحتى بالألوهية بطريقة ساخرة، يجب على أصغر غير المفهومين المشتركين أن ينسى بطبيعة الحال حقيقة: "في الحقيقة تؤلف الكتب كي تملأ الصفحات."

إن موت أحد تحبونه، على سبيل المثال، يمكن أن يجعلكم تتواجهون مع الأكاذيب التي كذبتموها على أنفسكم. أو ربما ضرباً ثقيلاً تلقيتموه من والدتكم. ولا سيما عندما تكونون جاهزين لتصديق وجود الحقائق العاطفية المحقة التي جعلت والدتكم تطيح بصحتكم، ما يقطع قلبكم ليس خروجها عن طورها، بل يمكن أن يكون تصرفها بتفهم لدرجة أن تنزل العصي على أيديكم وأرجلكم فقط كيلا تلحق الضرر بدماغكم. في النهاية عندما تتخلصون من أيديها وترمون نفسكم إلى غرفتكم ستنتشر في كل مكان حبات الغبار التي ترقص بفرح مع أشعة شمس الغروب التي تدخل من النافذة. إن القضاء على سعادتهم سيحزنكم كثيراً لدرجة أنه سيمتلئ قلبكم بمشاعر تهميش مريبة. ستهاجم

الدموع فجأة أعينكم. لن تتحملوا خوف هذه المخلوقات الصغيرة اللطيفة منكم. أنتم الذين تتحملون جلسة الضرب ذات الساعتين دون التفوه بهمسة واحدة، ستهوون أرضاً وتجهشون بالبكاء. ثم ستأتي حبة غبار، وتحط على رأس إصبعكم. تحركون إصبعكم بهدوء. ما زالت موجودة. وإذ بالبقية تلحق البقية بها. ستمطر حبات الغبار عليكم عندما تكونون

مستلقين على الأرض. عندما تحتضنكم الحياة في تلك اللحظة بعد أن كنتم قد تجاهلتموها، ستتحول غصات بكائكم إلى موسيقا راقصة.

إذا احتضنتكم حبة غبار في يوم من الأيام فاعلموا أنكم إما قد وصلتم إلى النيرفانا، وإما أنكم قد جُننتم. ستقررون بأنفسكم أيهما ستكون.

- ٨ -

إله الذباب في مواجهة ليفياثان

قضيت يوم الأحد باستراحة نشيطة. مقيّماً الاكتشافات التي حصلت عليها بما يخص الجريمة، ومتخيلاً تصورات انتحار مختلفة على أنغام "هاندل". لهذا السبب أشعر بنفسي يوم الاثنين أنني بكامل نشاطي ولياقتي. خرجت إلى الشارع غير آبه بالأمطار التي تزخ بين الحين والآخر وقلبي في حالة قد تخلص فيها من آخر شوائب الخوف من الغضنفر. كانت المادة الأولى على مفكرة يومياتي هي التحقيق مع البقال يعقوب. وجدته، كما كنت أتوقع، يمارس طقس نشاط التسلية اليومي الخاص به أمام بقاليته، أي عندما كان يغسل سيارته الخضراء ماركة "تويوتا كورولا". «الله يعطيك العافية أخ يعقوب!»

«تفضل يا حبيبي،» قالها وهو يدخل بقاليته تاركاً قطعة القماش التي بيده فوق السيارة. «ماذا تريد؟»

كنت قد أخطأت خطأً فادحاً عندما لم أضع غرائزه البقالية في الحسبان. إن قولي له إنه ليس بنيتي التسوق من الممكن أن يؤدي إلى تطويره لمقاومة التحقيق. إن السيئ في الأمر أنني لا أمتلك حتى خمسة قروش في جيبي. سألت عشوائياً: «هل يوجد عسل أرزروم يا أخ يعقوب؟» فقط كي أكون قد طلبت شيئاً. لم أكن قد سمعت سابقاً بشيء يدعى عسل أرزروم. «من تلك التي تكون بشهدها؟»

وإذ بقليل الناموس يخرج فجأةً من تحت الطاولة علبة معدنية أسطوانية. «عيب عليك هذا السؤال يا سبع...»

نظفت حلقي. «كأنه عسل أرزنجان[1]؟»

---

(١) أرزنجان: محافظة تركية تقع في شرق تركيا، وتعد من المدن السياحية في تركيا. [المترجم].

كان يبدو السيد يعقوب أكثر الناس رضاءً عن نفسه في العالم عندما كان يشير إلى اللصاقة الصغيرة التي فوق العلبة: (*عسل نحل مكثف، من مناحل أرزروم الشهيرة عالمياً إلى مائدتكم*).

أخذت العلبة. «لكنك ستسجلها على الحساب. سندفع ثمنها بداية الشهر». لم يقل شيئاً ولكن كان يبدو من خلال حاله أن الانكسار قد نزل عليه من رأسه حتى أسفل قدميه عندما كان يدخل مدين جديد على دفتره ذي الغلاف الأسود. حتى عندما عاد لتلميع غطاء السيارة كان واضحاً وضوح الشمس أنه فقد حماسه الذي كان عليه آنفاً.

ذهبت ووقفت خلفه بمكان ما. «أخي يعقوب أنت تغسل هذه السيارة، ولكن ستعود وتمطر مجدداً بعد خمس دقائق...»

قال البقال بطريقة ناضجة: «فلتمطر، نغسلها مجدداً». علمت حينئذ أن هكذا احتمال لن يقلقه، بل على العكس من ذلك، سوف يسعده. كان غاسل سيارات منذ ولادته. إلا أن الحياة حكمت عليه بمهنة البقالية؛ كما حكمت بعضوية البرلمان على العديد من السماسرة، وكان النظام يهدر المواهب.

ولكن لم أكن لأسمح بذلك. فقد كنت أمهر الكذابين في العالم. وكان علي أن أبني شخصيتي بناءً على ذلك. بدأت بالقول: «أخي يعقوب». ولم يكن لدي أدنى فكرة بخصوص الكلمة التي ستخرج من فمي بعد هذه. «أردت استشارتك حول فكرة انطلاقاً من اعتقادي أنه لا يوجد أحد يعرف الذين يسكنون في هذا الحي أكثر منك». حتى لو لم يتنازل البقال ليرد الإجابة علي لكنه بات الآن يدعك زجاج السيارة بطريقة مثيرة أكثر. علي الاستمرار دون توقف بعد أن التقطت الوريد الصحيح لديه. «اشترى والدي لي في عيد ميلادي كرة رائعة من الجلد المدبوغ. في حين كنت ألعب البارحة مع أصدقائي في هذه الكرة في الحي العلوي، أنت أيها فقير الدم الحيوان انقض على الكرة، وأنت أيتها الكرة اذهبي إلى حديقة القصر... طبعاً بحكم قوانيننا يجب على فقير الدم أن يلحق

بالكرة ولكن اقتله يا الله لم نتمكن من إرساله إلى هناك. مصر أن الرجل الذي انتقل إلى القصر مصاص دماء. لفنا الخوف جميعاً، فلم يجرأ أحد منا على دخول الحديقة. وأنا خائف من أن يسأل والدي عن الكرة. فكرت أنك أكثر شخص يعرف طبيعة هذا الرجل. إذا ذهبت وطلبت الكرة من الرجل هل حقاً سيأكلني؟»

لم يتمالك البقال نفسه في الضحك على غبائنا عندما كان يرطب قطعة قماش التنظيف اليدوية المهترئة في دلو ماء. «أي مصاص دماء هذا؟ إن روحان رجل في حال سبيله. أعرفه منذ زمن سنين».

«منذ سنين؟ ألم يأت حديثاً هذا الرجل إلى حيّنا؟»

قال بقالنا مهوس الثرثرة: «كان يقطن هنا قديماً أيضاً ثم رحل. بالأحرى اضطر إلى الرحيل». كان على وجهه ابتسامة خنزيرة تشبه التي تكون لدى الممثلين الذين يمثلون دور الجن العارف في بعض التمثيليات المسرحية. هذا يعني أنه لن يتكلم إن لم أسأله.

طبعاً إن أذكى الطرق لتحفيزه على التحدث تمر من خلال عدم سؤاله الأسئلة التي يريدها. «لا أدري، ولكن له هيئة مخيفة جداً...»

بدأ يعقوب بالدفاع قائلاً: «لا لا، إنه فقط قليل الاهتمام بنفسه. في الحقيقة إنه شخص لطيف. لديه أرجل طويلة ونحيلة. وجهه أيضاً لا بأس به».

فكرت قليلاً. كلا، إن علامات المثلية المبطنة هذه لا علاقة لها بموضوعنا. «إنه لا يملك زجاجاً حتى على نوافذ منزله».

قال يعقوب وهو يهز كتفه منتقلاً إلى الدواليب: «إنه فقير». اللعنة على النقود. علماً أنهما يليق بعضهما ببعض.

«وماذا يعمل يا ترى؟» «كان طالباً في السابق في كلية الفنون الجميلة... في قسم النحت». إن هذا يفسر الذي رأيته في القبو. على الأقل قسماً منه. «ثم طرد

من الكلية لأنه انخرط ببعض الأعمال السياسية. ساءت أموره بعدها ولم تتحسن أبداً». «إن مصاص الدماء هذا جامعي إذاً؟ غريب». «طبعاً. لا يجوز أن تحكم على الناس من مظهرهم الخارجي. فمثلاً، كان لدينا شخص في القرية يدعى جواهر، راعٍ. لا يضاهيه كل الصحفيين الذين يظهرون على التلفاز...» كان قد بدأ بالحديث السيد يعقوب، وإذ بلطف من الله يأتي زبون فقطع كلامه، وعاد إلى بقاليته كي يهتم به. كنت قد اقتنعت بأن الحديث معه لن يكسبني شيئاً. ولكن لم تتسنّ لي الفرصة لأركل عشه وأهرب حتى أنهى عمله، وعاد إلى جانب سيارته ذلك البقال الـ... «إن المرحوم السيد حجابي قدم المساعدة كثيراً في الماضي لهذا». «حقاً!» إن لهذا علاقة بموضوعنا. تحمست لهذا. قال البقال: «طبعاً،» وهو يسحب إحدى ماسحات الزجاج للتويوتا. «في الحقيقة إن من داهم الكلية وزجه بالسجن هو السيد حجابي بذاته. حينها كان المفوض الأعلى. ثم ينظر ليرى أن روحان شاب نظيف، ولا قريب ولا صديق له. عطف عليه، ساعده كثيراً عندما كان في السجن. وحتى بعد أن خرج من السجن وجد له الكثير من مجالات العمل. وفتح له باب بيته أيضاً... فكر كم كان رجلاً على سن ورمح!» إذن المرحوم زج بالسيد روحان في السجن. ها هو أمامكم سبب رائع للجريمة ومرشح ثالث أن يكون مجرماً بعد أرتان المجنون وأركين. ومن يدري، ربما نفذوا الجريمة مشتركين. وربما أيضاً هناك أشخاص آخرون في القضية، أعضاء منتدى "كارهي السيد حجابي"، قد اجتمعوا وقطعوا حنجرة المرحوم في مراسم على شاكلة "*جريمة في قطار الشرق السريع*". واستخدموا أرتان المجنون كيلا يلطخوا أيديهم. ألا يجوز هذا؟ جائز. «بشكل تقريبي، متى حصل الذي تحدثت عنه يا أخ يعقوب؟» «صار له عشرون سنة تقريباً». «ولكن من الواضح أن دعم المرحوم للسيد روحان لم يجدِ نفعاً كثيراً». «لم يتعلق بأي عمل روحان هذا. رفع أنفه لكل شيء. طبعاً قطع السيد حجابي الأمل من هذا في مرحلة معينة. لا يمكنك أن تطعم رجلاً بشكل دائم. على سبيل المثال، أنا إن أعطيت بالدين دائماً دون الوجود هنا، إلى متى؟ في النهاية سأفلس بنفسي». «ما قصة هذا القصر؟ هل

هو ميراث من عائلة السيد روحان؟» «لا يا حبيبي ميراث ماذا! إن هناك أملاك دولة. كان سابقاً منزل اصطياف عائلة أحد الصدر أعظم. رحل روحان حينئذ من هنا. قد قلت حينئذ، إنه لا يصلح قبضة لفأس. من يدري كيف عاش كل هذه السنين. أساساً يمكنك التوقع من خلال النظر إلى حالته. فجأةً يظهر ويأتي مجدداً إلى دكان الفراء خاصته...» «فعلاً لماذا قرر العودة؟ ألم تسأله؟» قال البقال رامشاً بعينيه: «كنت قد سألته ضمن مجرى الحديث، فقد تلعثم ومعمع الحديث... بالنسبة إلي فقد كان يحاول التقرب من السيد حجابي مجدداً. طبعاً ذنبه السيئ في رقبته». «الله الله... وكيف لك أن تقتنع بهذه الفكرة؟» «كان قد صادف المرحوم هنا. قبل شهرين تقريباً. قد دوى حديثهم في أذني قليلاً». كنت قد فتحت أذني جيداً، أعتقد أنه سيتم الأمر. «وهل أمسكه السيد حجابي بيده مجدداً؟» «على العكس تماماً» وهز رأسه على كلا الطرفين. «غضب كثيراً على روحان. ها هو تماماً وأمام أعيني قد عاتب الرجل. قائلاً "أنت بأي حق تأتي وتشغل أرض الدولة... فبالنهاية كان المرحوم رجل قانون». يا لسوء الحظ، قد تعرض تحقيقي للتدخل مجدداً من قبل زبون جديد في حين كنت أقطف ثمار الصبر الذي أبديته ليعقوب. «أريد علبة سجائر "مالتيبي"». شهدت سابقاً في عمري الصغير هذا طلب سجائر مالتيبي، ولكن ليس بهذا الشكل. يا لهذا الصوت. يا لهذا الوقع! لا يمكن لأي نهر أن يشتهي أي بحر ولا أي عشق أن يشتهي أي معشوق بهذا الشكل. إن الرجل كان يريد المالتيبي فعلاً. في حين غط البقال يعقوب إلى دكانه دون أن يتوانى ثانية واحدة ليحقق وساطة هذا اللقاء السعيد كنت قد أدرت نظراتي إلى صاحب الطلب. كان قد رمى ثقل جسمه النحيل على مظلته التي أسندها على الأرض كالعكاز. لم يكن السيد هذا صاحب المعطف الأسود الأنيق غريباً عني. للأسف. «مرحباً أيها الرجل الصغير». قالها متين بلكين بسكون أكثر رعباً من المخلوقات الجهنمية التي في قبو السيد روحان. «كنت أبحث عنك». الهرب أو القتال. إنها كل القضية. إن أعطيت قراراً خاطئاً هذا يعني أنك أصبحت مقبلات للتطور. علق النائب العام شمسيته على يده

اليسرى قبل أخذ المالتيبي التي كان قد ناوله إياها يعقوب باحترام. أشعل سيجارةً كان قد سحبها وأخرجها من علبة السجائر بعد أن ألصقها بين شفاهه. في حين كنا ننتظر أنا والبقال يعقوب قرار المدعي العام الذي سيصدره بحقنا، لم يكن أمامنا سوى أن نتأمل بأن تقوم جزيئات النيكوتين بزيادة رأفته قليلاً. في النهاية يقوم متين بلكين بنفخ دخان المالتيبي إلى الهواء، ويعطي يعقوب نقوده. يحصل البقال على ما يريده. أشعر أني لن أكون محظوظاً بقدره. قال المدعي العام مؤشراً برأسه: «فلنتمشَ قليلاً». بدأنا نسير نحن المنافسين اللدودين تاركين البقال وحيداً مع سيارته التويوتا الخضراء ودفتر الدائنين وتصوراته المثلية السرية. أنا كنت من كسر حاجز الصمت الرزين الذي بيننا. «إن مسيرتكم هذه ليست صحيحة». سأل النائب العام وأحد حاجبيه في الأعلى: «ماذا تقصد؟» كنت قد أربكته من الكلمة الأولى. لاحقاً سيرتبك كثيراً. «إذا استمرينا في هذا المسار سنصل إلى حي باريس». «وماذا إذن؟» «إنه مكان خطير يسكنه أناس مشردون إلى أبعد الحدود. يمكن اعتبار السرقة، والنشل، والسطو من ضمن مصادر الدخل الرئيسي لشعب هذا الحي الذين يعتبرون جميعهم تقريباً أصحاب سوابق. إن أكثر لعبة يحبها أبناؤهم هي مداهمة الأحياء المجاورة ونهبها. لا يتجرأ أحد على التشاجر معهم لأن جميعهم يبدؤون حمل السكاكين اعتباراً من سن الرابعة. لديهم شخصية منغلقة على نفسها. بحسب معلوماتي أن علاقاتهم التجارية مع أحياء الجوار مقتصرة على الغضنفر. وهو بدوره قد طعنوه بالأسياخ ثلاث مرات. أي أسئلة أخرى؟» هل ارتسمت ابتسامة على وجه متين بلكين أم هكذا تراءى لي؟ «يا ترى لماذا أطلقوا اسم باريس على حي كهذا؟» «لا أعلم. ربما لأنهم يحبون بودلير[1] كثيراً». «إذن هم يقرؤون الشعر عندما يفرغون من القرصنة، صحيح؟» قلت: «إن الشعر لا يشبع البطون. كما قلت إنهم مشردون

(١) شارل بودلير: شاعر وناقد فني فرنسي. بودلير بدأ كتابة قصائده النثرية عام ١٨٥٧ عقب نشر ديوانه أزهار الشر. [المترجم].

كثيراً». «ليس كل من يعاني التشرد يصبح قاطع طرق». «كذلك لا يصبح الجميع بودلير». تجهم وجه متين بلكين ساحباً سحبة عميقة من سيجارته. «لم أر في حياتي طفلاً مثلك يتكلم الهراء». كان الحديث جيداً وجميلاً، ولكن في هذه الأثناء كنا قد دخلنا حدود حي باريس. ماذا كان يريد إثباته؟ أن الدولة لن تتراجع؟ «أن تقوم بالدخول إلى هناك هازاً يديك وساعديك ليس عملاً يقوم به شخص عاقل».

التفت النائب العام نحوي وهز رأس مظلته باتجاه أنفي. «يجب أن تواجه مخاوفك يا بني. حينها فقط ستحصل على الطمأنينة».

كنت وجهاً لوجه مع نائب عام بوذي يبحث عن المتاعب لنفسه. ما باليد حيلة كنا سنكمل. كان علي أن أدافع عن نفسي ضد متين بلكين من جهة، وأن أكون يقظاً تجاه المخاطر التي يمكن أن تأتي من الجوار، كنت فرحاً لأنني لبست أحذية رياضية عندما خرجت من المنزل. «كيف يمكنني مساعدتك؟»

واضح من ملامحه أنه لاحظ فوراً الزيف الذي يقبع خلف تصرفات المواطن المتشوق للتعاون مع القانون. لا يجوز الاستهانة بهذا المجنون. «ماذا تحاول أن تفعل؟»

في كل مرة أواجه أسئلة من هذا النمط كان يلفني القلق كما لو أنه يتم التحقيق حول عادتي السرية رغم معرفتي بأن الذي أمامي يقصد شيئاً مختلفاً تماماً. «في أي موضوع؟»

سحب متين بلكين سحبة أخيرة من سيجارته ورمى عقبها في إحدى فتحات الصرف الصحي. «هل تعلم، بدأت أنا أيضاً أصدق أن لا علاقة لأرتان المجنون بالجريمة». كان عقلي يعمل جيداً لدرجة أنه كان بإمكاني توقع أن أشخاصاً أمثال متين بلكين لن يركضوا خلف أحد ليخبروه خبراً ساراً. انتظرت لرؤية ما هي الألاعيب التي ستظهر من تحت هذا. استمر النائب العام: «هناك أشياء كثيرة حول الحادثة يصعب تفسيرها. فلنعتبر أن إيجاد المقتول من قبل طفل

صغير جرى بالمصادفة. ولنتقبل أيضاً بحالة طبيعية تحدث هذا الطفل، صاحب الخيال الخصب جداً، عن متهم غريب للغاية. ولكن لاحقاً كيف يمكن تفسير خروج نفس الطفل من تحت كل حجر؟ ذهابه وحده إلى مراسم الجنازة، محاولته تضليل الشرطة، إقامة علاقات مع المتهمين، محاولته دخول مكان الجريمة بشكل سري؟»

«أخشى أن يكون الطفل هو القاتل».

«هذا ما يبدو في النظرة الأولى، ولكن يجب إيجاد سبب لارتكاب الجريمة».

«اسمع ماذا خطر ببالي: ربما جنن الطفل لأنه رفع صوت التلفاز كثيراً. من المعلوم أن المرحوم كان ضعيف السمع. كيف؟ هل ركبت الأحجار مكانها؟»

«ليس كثيراً. أساساً تم ذبح حنجرة المقتول بضربة قوية وصارمة واحدة فقط. مستحيل أن يقوم طفل بهذا».

«برأيي ألّا تستخفوا بالأطفال».

أشعل متين بلكين واحدة أخرى من سجائره العزيزة ماركة مالتيبي. «انظر، خطر ببالي سيناريو كالتالي: كان السيد حجابي رجل أمن مهماً. من الطبيعي أن يكون لديه أعداء أخطر بكثير من المجنون...»

«برأيي ألّا تستخفوا بالمجانين أيضاً».

«والآن دعنا نفكر بشكل أعمق: وليكن لهذا الطفل، الذي ينخرط بأمور أكبر من عمره، والد يمكن أن نقول عنه متشرد». كنت قد غدوت كالذي أصيب في دماغه. إذن إن نية هذا الرجل الساقط أن يخيفني باستخدام والدي. «إنه رجل قضى شبابه بالتسكع، تم إثبات أنه يروج للشيوعية في مكان عمله من قبل مديره، وتم الإبلاغ عنه للسلطات المعنية. ممكن أن تكون هذه أسباباً منطقية لشخص كهذا كي يقتل ضابط أمن. طبعاً الجريمة ليست بالأمر السهل؛ وإلا فسينالون

من والدته. لهذا السبب يقوم صاحبنا باللجوء إلى طريقة استخدمت آلاف المرات حتى الآن من قبل الكثير من الناس الذين يظنون أنفسهم أنهم أذكياء: استخدام أشخاص لا يملكون رخصة جرمية من أجل جنايته! على سبيل المثال شخص قادر على إنهاء الأمر بسهولة كمريض عقلي قوي ومقتدر إضافةً إلى طفل ذكي يوجه هذا المسكين، أي ابنه. كيف؟ هذه الحكاية منطقية أكثر. أليس كذلك؟»

إن الذي جنني من شدة الغضب ليست افتراءاته القذرة، بل إيجاده في نفسه الأحقية لتحقيري أنا ووالدي بلا مبالاة. كنت أتمالك نفسي بصعوبة كيلا أبدأ بشتم ماضيه وحاضره وأبصق على وجهه. ومن ناحية أخرى، إن المنطق الذي روج له، بغض النظر عن سخافته، كان مرعباً. أعرف أنه يمكن إرسال الناس إلى حبل المشنقة بادعاءات مضحكة أكثر من هذه. إن الشيء الذي يدعى العدالة كان عبارة عن كذبة. كان يتم معاقبة الناس ليس لأنهم ارتكبوا ذنباً، بل لأنه يجب عليهم ألّا يرتكبوا ذنباً. إن النظام مبني على الردعية الظالمة. كنتم تضحون بحياة عدد من المساكين في حي باريس، والآخرون الذين يرون هذا يعرفون أنه يجب عليهم الجلوس بتهذيب. كان الأقوياء يضحون بالناس دون أن يرف لهم جفن كي يحافظوا على قوتهم، وتطلق عليه اسم النظام الاجتماعي. يستطيع متين بلكين من خلال القوة التي بيده أن يزج بالشخص الذي يريده بالتهمة التي يريدها. ولهذا السبب لا معنى من الدخول في جدال معه. «ماذا تريدون مني؟»

قال بشفقة مفتعلة: «اسمعني جيداً يا بني. عاجلاً أم آجلاً ستظهر العدالة الحقيقة كلها على وضح النهار. إن القضية التي سيُبتّ فيها ممكن أن تثبت براءة والدك أيضاً، ولكن اعلم أن والدك سوف يعاني كثيراً حتى الوصول إلى ذلك اليوم. أردت التكلم معك قبل تحضير مذكرة الاتهام. لأن صوتاً بداخلي يقول لي إنك تخبئ شيئاً عني. إذا أخبرتني بكل شيء الآن فلن يكسر خاطر أحد بلا سبب في المستقبل. هل تفهمني؟»

صحت "يا رب" بداخلي؛ الأبناء دائما ما يدفعون ثمن أخطاء والدهم. لماذا دائماً يصبح العكس في حالتنا؟ لن يجدي نفعاً بعد هذه المرحلة القول إني

كنت أكذب بخصوص الغريب الذي هرب، وابتعد من منزل السيد حجابي. من المحتمل أن تزيد من سوء الوضع بالكامل. فكرت للحظة أن أحدثه عن كل شيء تعلمته من يشيم والبقال يعقوب وعن الوحوش التي في قبو السيد روحان وأن أسلمه ليده فيلم كاميرا السيد حجابي. ربما أستطيع بذلك أن أمنعه من إلحاق الضرر بأبي. وفي النهاية إن الذي أمامي رجل قانون؛ يمكن أن يحل الجريمة أسرع مني بكثير من خلال سلطته وقوته. وإذ بعدد من المتسكعين الجالسين على الرصيف ألاحظهم يرمقوننا بملامح استغراب ممزوج بالسعادة. هل يمكن لهم أن يجدوا الحل للحالة الصعبة التي وقعت فيها؟ إن أحدثت بلبلة صغيرة، هل يمكنهم أن يقوموا بعمل خير بتخليص الدنيا إلى الأبد من متين بلكين؟ طبعاً في النتيجة وارد جداً أن يستهلكونني أنا أيضاً، ولكن بالنظر إلى القضية من ناحية مصالح العالم هذا يعني أن ذلك يعد ربحاً إضافياً أيضاً؟

قال متين بلكين مشيراً بمظلته إلى الماضي البعيد: «هل تعلم؟ سابقاً كنت مثلك تماماً».

سألته بكامل غيظي: «مفترٍ؟»

«ملآن بالحقد».

«لا أصدق! رجل محب مثلكم أنتم؟» أعتقد أنه لاحظ أني عزمت في البداية على قول شيء ما، ولكني تراجعت عن هذا فجأةً. نفذ مناورة نفسية أخيرة كيلا أرمي افتراء يربطني. أساساً لم تكن محاولة سيئة. عندما يقوم شخص باحتضانكم بعد أن كنتم قد اعتقدتم أنه سيحطم رأسكم، ستشعرون به أنه أكثر الناس قرباً منكم في العالم. كما أن تدمير أصناف (الأخيار/الأشرار) التي في عقل الإنسان يعتبر الشرط الأول لغسيل الدماغ. طبعاً أنا لا أقع في فخ ألاعيب كهذه، ذلك أمر آخر.

«كان يبدو العالم كجهنم في نظري، والناس كشياطين».

«هل ما قرأتموه في كلية الحقوق جعلكم تغيرون رأيكم؟» كان قد بدأ، أحد الأنماط التي مررنا من جانبهم، أصغرهم، باللحاق بنا. هذا يعني أن الاثنين الآخرين إن لم يكونا خلفه بقليل سيظهران أمامنا فجأة بعد قليل.

قال متين بلكين وكأنه يتكلم مع نفسه: «لم أغير رأيي». بالنظر إلى البريق الذي في عينيه، يدخل صاحبنا في صنف الأكثر جنوناً ضمن التصنيف النفسي "لمظهر عثمان[1]". «فقط تعلمت أنه يجب أن تكون هناك قوانين في جهنم أيضاً. ربما لا يمكن إصلاح الشيطان، ولكن يمكن معاقبته. على الأقل يجب أن ندفعه ثمن ما اقترفه كي يمكن تمييزه من الخالق».

كانت حالته أكثر جدية مما توقعت. أكثر من حالتي أيضاً. حتى لو كان يشدو كل هذه المواويل من أجل خداعي، فيمكن فهم أنه لم يبق بلا قيد كمجمل اتجاه خلاصة القضايا. فجأةً بدأ يتراءى لي أن تحولي في المستقبل إلى شخص مثله ليس بالاحتمال البعيد جداً. لا أعلم؛ ربما فقط كنت شديد الرغبة كما الجميع في تقمص الذين يكونون أقوى وأكثر مهابةً. مهما كان السبب الذي يقبع تحت أحاسيسي، بالنتيجة، فقد استطاع أن يشوش رأسي. لم يكن شخصاً عادياً. تمنيت أنه لم يُقدم على تصرف سافل كإشراك والدي في هذا العمل. قلت: «إنكم تتكلمون بغرابة، ولكنكم تحملون مظلة».

«ماذا تقصد؟» والآن نظراته حادة وصوته عصبي.

«لا أثق أبداً بالناس الذين يحملون المظلات». كنت قد أعطيت قراري. أنا ممكن كنت سأصبح السيد روحان وليس متين بلكين. هذا يليق بي أكثر.

للأسف لم تتسنّ لي فرصة معرفة المنصة التي سينقل إليها تعليقي الأنيق حوارنا. لأن المتسكع الذي كان يلاحقنا منذ فترة قد أتى في النهاية إلى جانبنا وشد متين بلكين من كتفه. «أعطني سيجارة يا عم».

---

(١) مظهر عثمان: خبير الأمراض العصبية الروحية ومؤسس جمعية مكافحة الخمر، وصاحب أول مشفى حديث للأمراض العصبية في تركيا. [المترجم].

التفت النائب العام إلى الخلف بغضب ليرى من يكون هذا المتطفل الذي ما زالت يده على كتفه. عندما أصبحا وجهاً لوجه سحب الرجل يده فوراً. لم يكن طوله أكثر من متر وخمسين. كانت إحدى عيناه مقورة ويحمل على وجهه ملامح يصعب البت فيها إن كانت مخيفة أو مكشرة. وكأنه خلق كي يجذب بكل حالاته كل التحقيرات التي في الكون. أدهشني متين بلكين عندما مد له علبة السجائر بدلاً من أن يطرده. سحب الرجل سيجارتين من العلبة ووضع إحداها خلف أذنه، والأخرى بين شفتيه وبيّن بطريقة تكشيرية أنه يريد ولاعة. لاحظت اقتراب قاطعي الطرق الآخرين باتجاهنا بسرعة عندما كان متين بلكين ينفذ بنضج ما يجب عليه هذا الطلب بعد أن علق مظلته بيده اليمنى. قد لف قلبي خوف كبير فجأة. وكأنني لست أنا من كان يأمل أن يرسلوه إلى جنة الحمير حتى بضع دقائق مضت. همست بقلق: «انتبهوا». إن قلب الإنسان كالنواس هكذا. عندما يصل إلى النقطة التي يريدها يبدأ بالانزلاق بكل قوته نحو الطرق المعاكس تماماً.

لم تكن هناك أدنى إشارة على أن متين بلكين قد سمعني. كان قد مد ولاعته إلى الرجل وهو يجهل ما سيحل به. حاولت توضيح الإستراتيجية التي يجب إتباعها على الأقل كي أخلص نفسي عندما يقطع ذيل العجل. كنت أعلم أن دالاس كولد الذي على خصري لن يجدي نفعاً مع هؤلاء الأوغاد أبداً. إن الكيس الذي أحمله كان سلاحاً أكثر أماناً بكثير من خلال العلبة المعدنية المليئة بالعسل الذي بداخله. لففت قبضة الكيس على خاصرتي، واستعديت للقتال.

كان وحيد العين الذي وضع يد متين بلكين، التي تمسك بالولاعة، في حفنة يده، يمسك بيده الفارغة سيجارته. كانت المسافة بيننا وبين الاثنين الآخرين قد نزلت حتى الثلاث خطوات أو أربع حتى ضغط السيجارة على خاصرة النائب العام. لم أكن أصدق أننا وقعنا في فخ بسيط كهذا. بينما كان الرجل المسكين يتخبط ألماً غير مدرك ما الذي جرى، كانوا سينقضون عليه جميعهم. إلا أن الثواني تمر ولن تحدث ردة الفعل المنتظرة. أما النائب العام فكان

يبتسم. فكرت بأن لا بد أنه نظام أندرويد بدعة تكنولوجية. وإذ بمتين بلكين يرفع يده التي يمسك بها مظلته، وجعل وحيد العين يرى بملامح أشبه بالبراز الشيء الذي كان يمسكه بين أصابعه بإحكام: إنها طرف سيجارة كانت ما زالت مشتعلة. إذن قطع رأس السيجارة فوراً بردة فعل لا تصدق قبل أن تلامس خاصرته. أطلق أحد المتسكعين، ممن أفاق على الموقف، نعرةً وانقض على متين بلكين، وبعد هذه النقطة جرى كل شيء بسرعة غير اعتيادية. دعوكم من تزحزح النائب العام من مكانه، بل ضغط ببقية السيجارة التي بيده على وجه أحد المعتدين دون الالتفات برأسه ورفع وحيد العين بيده الأخرى بحركة شيطانية وأطاحه أرضاً. وبينما رفت العين، كان قد أمسك برأس المظلة التي في ساعده، وعلق قبضتها المعقوفة في رقبة المتسكع الثالث، وبدأ يلفه حول نفسه، ورماه على حائط المبنى الذي في الأمام. اهتزت نوافذ منزل الطابق الأرضي بسبب قوة الاصطدام. تمكن متين بلكين من تفادي الفراشة التي رماه بها على وجهه أول متسكع نجح في استجماع قواه، ووضع قدمه بين قدمي الرجل ودفعه برقبته بواسطة مظلته التي بات يمسكها بكلتا يديه مثل العصا، وبعد أن سقط أرضاً تمكن من قطع قوته من خلال ضربات مظلة قاسية وقوية كان قد أنزلها على رأسه.

خرج الأهالي على الشرفات بسبب الضجة التي حصلت. كان قد تجمع عدد من المتهورين حولنا الذين واضح أنهم يملكون معنويات مماثلة للشبان الثلاثة المتقوقعين يتخبطون في الأرض. فتل متين بلكين فوق كعبي قدميه باتجاههم، ووضع يديه على خصره بعد أن فتح طرفي معطفه إلى كلا الجانبين.

«هل من متبول آخر من بطنه؟»

لا أحد.

أخرج ضمير الشعب سيجارة مالتيبي من علبة الدخان خاصته وأشعلها، ورمق التجمع بعد أن انتشر الدخان الخارج من فتحتي أنفه في الهواء، وأوضح قناعته المرتقبة: «إذن اغربوا عن وجهي هيا».

استجمع المعتدون، المتخبطون بالآهات والواهات، قواهم على عجلة وتواروا عن الأنظار. تبعثر المتهورون، أغلقت النوافذ، وعادت القطط إلى مرقدها تحت السيارات. أعتقد أن للفرد المدكوك على خاصرة النائب العام دور هام في قصر مدة ردة الفعل إلى هذه الدرجة. التفت باتجاهي بعد أن تأكد من تحقق التطبيع الاجتماعي وقال: «كما ترى، حمل المظلة مفيد».

عدنا وسرنا حتى مدخل حيّنا دون كلام. كانت يدي طيلة الطريق في جيبي أفتل وأبرم الفيلم الذي خرج من كاميرا السيد حجابي. كان يصعب علي التقبل، ولكنه قد كسب القليل من احترامي بعد العرض الذي قدمه. قبل الافتراق مد إلي كرته الذي يوجد عليه رقم مكان العمل ورقم المنزل ورقم الجوال. «ليس لديك المزيد من الوقت. سأفتح القضية في الأسبوع المقبل كحد أقصى».

أخذت الكرت وأكملت طريقي. ما كان عليه أن يقحم أبي بالموضوع.

رأيت الأصدقاء منهمكين في عمل محموم في الحي. فقير الدم، جمال الدين، وبرهان، وهاكان، ويوكسيل، وكل الطائشين الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعاشرة مجتمعين حول قدر يغلي في داخله القطران، ويسحقون بوساطة أحجار كبيرة أغطية قوارير المشروبات الغازية ويكدسون أغصاناً وقطعاً من الأخشاب المقلمة بقياسات مختلفة. كنت أعرف جيداً ما كانت تعنيه هذه الفعالية. «الله يعطيك العافية». قلتها لهاكان الذي كان يحاول وضع غطاء مشروب غازي منحن ومعقوف على طرف غصن شجرة الضراط ذات الثلاثين سنتمتراً. «ما الأمر؟»

قال هاكان بفخر: «أصنع سهماً».

«حقاً؟ ظننتك تصنع لجمال الدين عصاً ليحك مؤخرته». ضحك الجميع باستثناء جمال الدين. عادةً كان من المستحيل أن يترك جمال الدين هذا الشجار دون رد، ولكنه استمر في تحريك القطران بقطعة الخشب الضخمة التي بيده دون أن يصدر صوته.

صاح يوكسيل قائلاً: «أقمنا حرباً على شارع "داغ تشيليغي"».

«لماذا؟ هل اغتصبوا جمال الدين؟» هذه المرة لم يضحك أحد، فقد علت دمدمة خفيفة من بعضهم. كانوا قد علموا أنه يتم البحث عني. ذهبت إلى جانب جمال الدين الذي يحاول تجاهلي وركلته على كعب قدمه. «تكلم. هل ابتلعت لسانك؟»

أخرج جمال الدين قطعة الخشب التي تلطخ طرفها بالقطران من القدر، وتراجع عدة خطوات إلى الخلف.

«لا تعبث معي! سيسوء الأمر...»

مشيت نحوه قائلاً: «ماذا سيحصل؟ هل ستشكوني إلى أخيك؟»

خطا خطوتين أُخريين نحو الخلف قائلاً: «من شكوته لأخي حتى هذا اليوم؟» ومع اهتمامه بعدم اتخاذ صيغة تهديدية، كانت لغة جسده تشير بوضوح إلى أنه لن يتوانى عن استخدام التي في يده عند الحاجة.

«لا تمثل علي تمثيليات الغبي يا جمال الدين، وإلا ثقبتك. ألم تكن تدري أن أخاك المختل كان يلاحقني؟ لماذا لم تفتح فمك وتتفوه بكلمة؟»

وقف مكانه وانتصب بعد أن علم أنه لن يعود أي خطوة أخرى إلى الخلف. «ألا تعرف أخي أنت! ليتك فكرت بالأمر عندما وشيت للشرطة».

ركلت قطعة الخشب التي بيده بكل قوتي، فطار السم وذهب جانباً. كانت قدمي على وشك التصدع، ولكني لم أفتح فمي أبداً كيلا يلطخ الغائط الرجولة. حنقت نفسي مضيفاً إحساساً جديداً على صوتي كي يظنوا أن الدموع المتراكمة في عيوني سببها الغضب. «وهل كنت تأكل البراز يوم السبت عندما كنت أتصارع مع الكلاب في حديقتكم؟ متى حصل أنه لم يوجد أحد في منزلكم، وأن بابكم كان مغلقاً؟»

حنق جمال الدين وعيناه كسبيلي ماء: «ذهبنا يوم السبت إلى جدتي!»

مسكت ذرية البواب هذا من ياقته ولصقته بالجدار. «هل أتغوط في فمك الآن في هذا المكان؟» كان غضباً لا معنىً له قد لف قلبي بلا سبب، وعيوني غطتها الدماء. كنت أريد قتل هذا الحمار ابن الحمار. أساساً ربما كان يقول الحقيقة. من المحتمل أنه يقول الحقيقة. ولكن أنا لم أكن أكترث لذلك. أساساً لم يكن للسبب الحقيقي في تصادمي معه علاقة مع الدواعي التي أدليتها. حقيقة الأمر أنه لم يكن يخطر بعقلي أدنى مشروع انتقام حتى دخولي الحي ورؤيتي لجمال الدين. كنت أريد الانتقام منه لما أصابني. ليس فقط ما أصابني أنا؛ ما أصاب والدي وأرتان المجنون واليابانيين أيضاً. من الواضح أني كنت قد حاكيت متين بلكين قليلاً. كنت أريد أن أجعل أمهات جميع العالم يبكين، وأن أضع ثقلي أمام الجميع قائلاً: «هل من متبول آخر من بطنه؟» طبعاً كانت قوتي تكفي للنيل من جمال الدين المسكين فقط. كم كنت شخصاً قذراً.

تدخل برهان قائلاً: «حافظوا على اتزانكم، يجب علينا الآن أن نكون متوحدين. ضد شارع داغ تشيليغي. تحلون قضيتكم لاحقاً».

تركت ياقة جمال الدين بندم وخجل كبيرين. ذهب إلى منزله راكضاً وهو يتنشق مخاطه. كنت أشعر بحالة سيئة وكان علي أن أريح رأسي فوراً. الحرب! ربما هذا هو الشيء الذي كنت بحاجة إليه. سألت ملتقطاً عن الأرض عصاً رفيعةً وطويلةً: «لماذا شنينا حرباً على شارع داغ تشيليغي؟ أساساً ليس بالأمر المهم ولكني سألت من باب الفضول».

صر فقير الدم قائلاً: «أساؤوا إساءةً كبيرة لبرهان». ثم تشكلت وضعيات مثل كأنه يريد أن يتابع الحديث ولكنه لا يعلم كيف سيقوله. وبذلك يكون قد نجح في إشعال، لدى كل الذين لا يعلمون الموضوع، فكرة أن هذه الإساءة الكبيرة هي حادثة اغتصاب، ولا سيما تجاهله للسبب الذي قدمه لبرهان كي يبرحه ضرباً.

تدخل برهان بالموضوع على الفور قائلاً: «كنت قد خرجت إلى شارع داغ تشيليغي للتنزه». كيلا نشغل الفيلم الخاص بالحادثة المعنية في رؤوسنا أكثر من ذلك. «بداعي الاستكشاف».

لم أستغرب الأمر كثيراً بسبب معرفتي السابقة أن برهان يدخل صنف المجانين الذين يظنون أنفسهم جنرالات. «ثم ماذا؟»

تقلصت عينا برهان بغضب. «لاحظ أطفال الحي وجودي وأحاطوني. وكان على رأسهم ذلك الزنديق الذي يدعى صفا».

«كم شخصاً كانوا؟»

«تقريباً ما يقارب جماعة المشاة».

«أي كم شخص؟» مكرراً سؤالي لهذا المريض النفسي.

صرخ أحد أقراني من المعجبين ببرهان قائلاً: «مئة شخص».

قال برهان: «ليس بهذا الحد، كانوا بحدود العشرة أو خمسة عشر. المهم، إن صفا السافل هذا حاول النيل مني قائلاً بما معناه "إن هذا المحيط لنا، أخرج سيارتك من هنا..." في هذه الأثناء كان فقير الدم، الذي بقي خارج مجال الرؤية لبرهان، يقوم بحركات أيدي وسواعد مع ملامح وجه فاحشة من النوع الذي يجعل الشخص يفكر بأن الحكاية انتهت بفاجعة كبيرة. «قلت: "دعك من التفاخر معتمداً على الذين بجانبك وتعال نصفي حساباتنا وجهاً لوجه. إن ربحت سأرحل ولن آتي إلى هنا مرة أخرى أبداً، ولكن إن ربحت أنا ستصبح أنت ورجالك تحت إمرتي". قبل الغبي مضطراً كيلا يقع بموقع الصغير أمام عساكره. إني ألاحظ أساساً أن مؤخرته ترقص فزعاً. لم أنس أنه ربما سيغدر بي...»

تدخل فقير الدم قائلاً ليغضب برهان بالكامل: «يا لهذا الغدر! ربي احفظ أعدائي منه».

ارتفع صوت برهان قائلاً: «كفى، ها نحن نتكلم! في النتيجة قررنا أن نقيم سباقاً بثلاث مراحل. مصارعة، صراع الأذرع، والغميضة!»

«الغميضة!»

«الغميضة. في البداية استغربت الحال أنا أيضاً، ولكن أقنعني قليل الناموس بطريقة ما أن هذه اللعبة تتعلق بالذكاء التكتيكي. نلت من هذا الزنديق في دقيقتين، أما في صراع الأذرع فلم يتحمل أكثر من ثلاث ثوان. ثم آن أوان...»، فابتلع برهان ريقه.

لم يفوت فقير الدم الفرصة: «الغميضة».

تحسر برهان، لوحده قائلاً: «ليتني لم ألعب أبداً، أساساً كنت قد ربحت لعبتين من ثلاث».

سألته قائلاً: «دعك من ذلك. تحدث ماذا حصل؟»

«كنا سنغمض دورياً؛ أنا في البداية وثم صفا. إن من يجد الجميع بأقصر وقت سيربح اللعبة. بدايةً أغمضت أنا، وبدأت أعد. كنت بحدود العشرين وإذ... شعرت بسخونة. في سيقان السروال. لم أنظر ماذا حصل كيلا أخل بالقوانين. لاحقاً وعندما كنت بحدود السبعين لاحظت بأن من ركبي حتى الأسفل تبللتا بالكامل. وما إن فتلت ظهري، ونظرت إلى الخلف!» في هذه الأثناء، كان جلال فقير الدم يهز بسرور ذراعه اليمنى التي كان يمسكها بيده اليسرى. «تبول على قدمي ابن العاهرة!»

حاولت بقدر استطاعتي أن أجعل القهقهات الصغيرة التي خرجت من فمي سعلات وقلت: «يا أيها السفلة!» وقال قائد جيش تحرير شارع السيد عمر جلال والذي تم تحقيره: «ولكن لن أسامحهم بذلك». رفع العصا التي بيده إلى الهواء، والتفت إلى رفاقه في السلاح. «لن نسامح!»

رد فقير الدم: «لن نسامح!» مزيداً من حدة صوته الحاد ثلاث أوكتافات أخرى. إلا أنه لم يستطع إخفاء تهريجه هذه المرة عن برهان لأنه الوحيد الذي كان يصرخ.

قال برهان: «سأكسر رتبتك. من الآن فصاعداً لست عريفاً. بت عسكرياً عادياً».

غضب فقير الدم بشكل يصعب وصفه. وبدأ يتمرد صارخاً على هذا الظلم. تركتهم في حين كان شجار الرتبة مستمراً، وانحشرت إلى جانب يوكسيل الذي كان منزوياً، لوحده يتمرن على مبارزة السيوف بقطعة خشبية. «علي أن أتكلم معك بخصوص قضية».

«ما هي القضية؟»

«ليس وارد الكلام واقفاً. تعال نجلس قليلاً».

تداعينا معاً على أدراج مدخل إحدى المباني القريبة. كنت على وشك أن أتكلم حين لاحظت هاكان الذي يقف أمامنا بقليل. قلت محاولاً ألّا أكون فظاً: «إننا نتكلم شيئاً خاصاً يا هاكان».

أجاب بطريقة فظة قائلاً: «ما علاقتي بالذي تتكلمون حوله. أتيت كي أسأل إن جاءت الرسالة التي كتبتها».

«كلا، لم تأت».

همهم قائلاً: «بسبب ذلك الظرف الغريب الذي أعطيتني إياه». بعد أن بقي واقفاً لمدة مكانه يحدق بازدراء عرف أنني لن أحادثه، وانسحب وراح ووجهه متجهم. وبذلك أكون قد خسرت آخر إنسان يحبني في العالم.

قال يوكسيل: «إن هذا البقرة يأتي ويتواقح ثم يرحل منزعجاً».

قلت متجاهلاً تعليقه بما يخص هاكان: «بدايةً ستقسم إنك لن تخبر أحداً بشيء».

«بخصوص ماذا؟» كانت عيناه قد برقتا. نحن الأطفال نعشق الأسرار.

«بدايةً عليك أن تقسم يميناً من أجل أن تعرف».

«حسناً فعلت».

«انظر، إن أفسدت يمينك سيعاقبك الله من جهة، وأنا من جهة، فليكن بعلمك».

«ألم نقل حسناً...»

«ألم تكن تذهب في الصيف مع والدك للعمل في متجر تصوير...»

«صحيح، لماذا؟»

«لا بد أنك تعلمت تحميض الصور؟»

قال يوكسيل وعلى وجهه ملامح مفادها "وهل يعقل هذا السؤال": «طبعاً، لكن لماذا؟»

«أريدك أن تذهب إلى متجر والدك، وتطبع بعض الصور».

«بالمجان؟ كم أنت فطن».

«لا علاقة لهذا بالمال. لا يجوز لأحد أن يرى الصور».

رمقني بريبة وسأل: «وما هذه الصور؟»

«مبدئياً لا أعرف». أستطيع تفهم أنه لم يقتنع بالذي قلته أبداً، وأنه يعتقد أني أريد طباعة بعض الصور العائلية بالمجان. «أستطيع أن أدفع لك أجرك بشكل أو بآخر. كلّة، كرة، كتاب... كما تفضل أنت. أما إن أردت نقوداً، فسيكون ذلك في وقت أطول بقليل. ولكن لن أترك مساعدتك دون مقابل».

قال مجهماً وجهه وفمه: «القضية ليست كذلك. إني فقط استغربت الأمر قليلاً».

«ما من جانب غريب في الموضوع. كل ما ستفعله طباعة الأفلام التي سأعطيك إياها دون معرفة والدك».

سأل مشيراً إلى الكيس الذي بيدي: «ماذا يوجد بداخل هذا؟»

«عسل أرزروم. اشتريته من البقال يعقوب قبل قليل».

قال: «لا يوجد شيء يدعى عسل أرزروم، يوجد عسل أرزنجان. قد غشك يعقوب».

أريته اللصاقة بفخر: «وما هذا إذن؟»

سأل وهو يبتلع ريقه: «تكون بشهدها أليس كذلك؟». مددت الكيس له. «صحة وعافية لك. أساساً أنا لا أحب العسل».

انتشل الكيس بفرحة لم يستطع إخفاءها. قام على عجلة قائلاً: «اتفقنا إذن». وركض باتجاه منزله بسرعة تاركاً تحضيرات الحرب جانباً. سيذهب إلى المنزل ويجتر العسل. مثل دب. لا يتحمل عقلي.

ناديت من خلفه: «يوكسيل!»

«ما الأمر؟»

«ألم تنس شيئاً؟»

كان ينظر باستغراب. أخرجت علبة الفيلم من جيبي، وأريته إياه. عاد دون اقتناع، وأخذ العلبة. أمسكته من ساعده. «إن لم تتمكن من هذا الأمر فسأخرج العسل من مؤخرتك، فليكن بعلمك».

- ٩ -

رحلة إلى مركز العالم

كان الوقت يجري ويرحل مثلما تتدفق المياه. مر أسبوع على إعطائي الأفلام ليوكسيل، وسنتان على معرفتي أن النساء لا يتبولن من مؤخراتهن. الحادثتان مثل كأنهما كانتا البارحة. ولكن، لم أكن أخرج كثيراً إلى الخارج لأنني أعيش حالة نفسية تتحمل الناس أقل من كل مرة. كنت قد تعلمت من البقال يعقوب، عندما ذهبت لأجلب الخبز قبل يوم، أنه تم اعتقال السيد روحان. إذن وأخيراً اكتشفت الشرطة العلاقة بينه وبين المقتول. كان السيد النائب العام يراقبني من عدة خطوات من الخلف. مرحىً له. المهم، أنهم أطلقوا سراح هذا التمثال الغامض عندما شهد كل من كان في المقهى أن السيد روحان كان أثناء حدوث الجريمة موجوداً معهم في المقهى يشاهد معهم مباراة. أي إنهم لم يحصلوا على شيء من هناك أيضاً. كنت أفكر منذ الصباح حتى المساء مثل الديك الرومي. حول مفارقة زينون، النساء، المستقبل، إن كان متين بلكين سيفتح قضية بالفعل بحق والدي أم لا وطبعاً الجريمة أيضاً. إلا أن التفكير لم يكن يجدي أبداً. كنت عاقداً كل آمالي حول حل الجريمة بالصور اللعينة التي الله أعلم متى سيطبعها ويجلبها دب العسل يوكسيل. عندما اتصلت به عدة مرات لأعرف ما يبلي برازاً كان يقول إنه ينتظر الفرصة ليحل الموضوع دون علم والده. برأيي أنه كان سيتجاهل الموضوع ولكني لم أكن أضغط على هذا الوسخ خوفاً من أن يعطي الأفلام لوالده. كنت أنتظر ويداي مربوطتان.

إن الوضع في المنزل أيضاً كان أسوأ من سابقاته. كانت أمي تضغط على والدي كي يذهب فوراً إلى أرزروم، ويبحث عن منزل، وكان هذا يؤدي إلى

تعرض الرجل لنوبات عصبية صغيرة. كانا يتشاجران ليلاً نهاراً. كنت متأملاً أن يقوم في أحد الأيام بالذهاب فجأة إلى جزيرة تاهيتي[1] مثل غاغان[2] لكنه لم يفعل. إن أبعد مكان بإمكانه الذهاب إليه، هو مقهى رديء يتردد إليه أصدقاؤه في بيشيكتاش. بات يذهب إلى هناك كل يوم، وفي كل يوم يمر يتأخر عن المنزل أكثر.

وفي ذلك اليوم المشؤوم، لم يعد والدي إلى عشه رغم حلول الظلام منذ مدة. كانت المائدة تشكل منظراً حزيناً بحالتها غير الملموسة كي يرى عمود البيت عند عودته أن زوجته لم تأكل بعد وبذلك سيتألم أكثر. ولا سيما عند مقارنتها بالحالة الروحية التي يشكلها طبق من السلطة لدى الإنسان ولا سيما إذا كان الطبق مغطى بطبق آخر كيلا تفقد السلطة فيتاميناتها، نرى أن معاناة فرتر الشاب[3] لا تتعدى أن تكون أكثر من هزل. في حين كانت والدتي تتمشى أمام النافذة تلعن والدي والامرأة التي كانت وسيلة لتعارفهما، كنت أنا أشاهد التلفاز وأتمنى الموت، وأنا أتناول كأساً من بزر عباد الشمس الذي حصلتُ عليه من احتياطي الموالح الذي كانت تخبئه أمي من أجل المناسبات الخاصة. كان الشخص صاحب النمش في التلفاز، في نواحي أنقرة، يطلق أغنيةً شعبيةً مقتبسةً. كانت "بلين" تشاهدنا من مكانها المعتاد فوق التلفاز بابتسامتها المعتادة. في المحصلة، كانت حالتنا سيئة جداً كما لو أنها فيلم كوميدي سيئ للغاية.

كانت شفتاي قد انكمشتا من بزر عباد الشمس عند عودة والدي في وقت من أوقات الليل تفوح منه قليلاً رائحة كحول. جرت التطورات بعد ذلك كما توقعتها تماماً. الصمت الغاضب لأمي، الاستهتار المضجر لوالدي، النقاشات الأولية، عدة تنبيهات متبادلة لكليهما حول موضوع "عدم التشاجر أمام

---

(١) تاهيتي: أكبر جزر بولينيسيا الفرنسية تقع في جنوب المحيط الهادئ. [المترجم].

(٢) باول غاغان: رسام فرنسي. [المترجم].

(٣) الشاب فرتر: رواية للكاتب الألماني فولفغانغ. [المترجم].

الأطفال" التي لم تجدِ أبداً، وإذ بالعاصفة تبدأ. أردت الهرب إلى غرفتي عندما بدأت تتطاير الاتهامات المتبادلة واللعنات والشتائم في الهواء، ولكن لم أكن أستطيع التحرك من مكاني. كان عقلي يعطي لجسمي أمراً وحيداً فقط. تناول البزر! كنت قد اعتقدت أنهما طرحا القيح الذي بداخلهما وهدأ قليلاً، إلى أن استخدمت أمي ذلك المصطلح السحري ضمن الجملة: أرزروم. وبذلك عاد الشجار والضجيج مجدداً. لم يكن محتملاً. كان علي أن أوقف هذه المسيرة. علي أن أقف فوراً، وأن أدلي باستهجاني، وأن أريهم كيف حطموا قلبي الطفولي الصغير. كان علي أن ألقي خطاباً مؤثراً من النوع الذي لا يمكن مصادفة مثيل له إلا في الأفلام التي يصنعها الممثلون الهوليوديون الكبار لأجعلهم يفكرون بالطفل الذي يحتاج إلى الشفقة الذي يقبع تحت هذه التصرفات المتمردة وذات الأخلاق السيئة. كان علي أن أختار مصطلحات حارقة كي تتخلل منحنيات قلوبهم المتجمدة، وتحول حياتنا بشكل سحري إلى حكاية خيالية. وقفت بغيظ. التفت والدتي ووالدي إلي عندما سقط صحن البزر من حضني وتحطم. حدقت عيوني إلى نقطة في البعيد وزأرت: «لا يوجد شيء يدعى عسل أرزروم!»

غريب لكن كلامي قطع الشجار مثل سكين. انهمرت أمي بالبكاء، وخرج والدي من المنزل مرتدياً معطفه الرمادي القديم الذي كان معلقاً في علاقة الثياب. بعد أن انتهى بكاؤها جاءت أمي إلى جانبي، وأمسكت يديّ. أنّت أمي وهي تستنشق أنفها قائلة: «لا يا بني، لا يوجد شيء، لا تحزن». أعتقد أنها كانت تعتقد بأني غبي لدرجة أني سأصدق أنها لا توجد أي مشكلة في الأجواء، وأعتقد أنها لم تتمكن من قول: "لا تجن".

ذهبت أمي لتنام بعد أن جمعت حطام صحن الموالح المتكسر. لم تعارض غفوتي أمام التلفاز مقابل الشيء الذي عانيته. مر نحو نصف ساعة تقريباً حين سمعت صوت الباب يقرع بهدوء. بدايةً ظننت أنه والدي. لكن لماذا لا يستخدم مفتاحه. حتى أنه لم يمر الوقت الكافي ليسكر لدرجة أنه لن يجد ثقب المفتاح. هل يعقل أن يكون القادم عدوّاً لي أمثال الغضنفر، الأخ أركين، السيد روحان ممن

يريدون إرسالي إلى جانب السيد حجابي؟ لم يكن يبدو أحداً من العين الساحرة. سألت هامساً: «من هناك؟»

جاء رد من الخارج: «ربيع». إن كان الذي خلف الباب عدواً، حسناً ربما كان قد كذب، ولكن قوله لاسمه بهمس يصعب سماعه جداً بطريقة يقلدني فيها، كان معطىً لا ريبة فيه أن الذي في الخارج الأخ ربيع فعلاً. كان هاكان الأحمق الوحيد إلى هذا الحد ممن أعرفهم. فتحت الباب.

قال وهو يرنو بناظريه المنزل برمته: «هل كنتم نائمين؟» وكأننا ننام بشكل دوري.

قلت: «نامت والدتي، والدي ليس في المنزل».

«يا لسوء الحظ! أعرف أنه تأخر الوقت ولكني سأعود إلى بورصة[1] غداً... أردت أن أودعكم قبل أن أذهب. لا بأس؛ هل يمكنك أن تلقي السلام على كليهما عوضاً عني؟»

كان يحاول الدخول حتى أوقفته بمناداتي: «أخي ربيع». ثم لفت أنظاره باتجاهي. «هل يمكنك أن تسدي معروفاً إلي؟»

«طبعاً».

«إن علاقة والدي ووالدتي ليست على ما يرام. تشاجرا قبل قليل بشكل عنيف. ولهذا السبب رحل والدي».

طأطأ الأخ ربيع رأسه. «حزنت».

«علي أن أجده بأقصى سرعة».

«كيف ستجده؟» كان يظهر بوضوح أنه توقع أن أطلب طلباً أكبر بكثير.

---

(١) بورصة: هي خامس مدن تركيا سكاناً، وإحدى أهم المدن الصناعية التركية تقع في شمال غرب البلاد. [المترجم].

«هناك خمارة يتردد إليها دائماً في مثل هذه الحالات. في بيشيكتاش. أريدك أن تأخذني إلى هناك». كان الأخ ربيع يفكر بصمت. أكملت قائلاً: «أساساً أنا أعرف الطريق، ولكني أخاف إن خرجت إلى الطرقات في مثل هذه الساعة سيمسكون بي على أني هارب من المنزل وسيرسلونني إلى المخفر. من المعلوم هناك الكثير من الناس الفضوليين. يجب أن يكون شخصاً بالغاً بجانبي».

قال الأخ ربيع بصوت مرتبك: «ليس صحيحاً ذهابك إلى الخمارة».

«لن أذهب إلى هناك لأعبئ رأسي يا أخ ربيع، نحن بصدد موضوع هام».

داعب رأسي بشفقة كاذبة قائلاً: «تحصل هكذا نقاشات صغيرة بين الأمهات والآباء. لا يجوز أن تضخم الأمر. برأيي أن تذهب لتنام...»

قاطعته بقولي: «إن لم توافق على أخذي، سأضع بعين الاعتبار النتائج، وسأقوم بهذا العمل وحدي».

استخدم ورقته الأخيرة قائلاً: «حسناً ولكن إن استيقظت والدتك ولم تجدك؟ ستفقد عقلها المسكينة».

«ليست مشكلة، سأكتب لها ملاحظة». مرر أصابعه بين شعره بتوتر. لم يكن يعرف ماذا سيفعل. ضغطت أكثر قائلاً: «ماذا إذن؟ يمكنك العودة بعد أن تأخذني إلى والدي. سنعود معاً من هناك. ستضيع من وقتك ساعةً واحدةً فقط».

دمدم بشيء ما يشبه: «ليست تلك المشكلة».

«حسناً. انتظرني دقيقة. سأكتب ملاحظة لأمي وآتي فوراً».

بعد خمس دقائق كنا في الحافلة ذاهبين باتجاه أوسكودار(١). ومن هناك عن طريق الدراجة النارية ذهبنا إلى بيشيكتاش. ومن هناك ذهبنا سيراً على الأقدام إلى

---

(١) أوسكودار: هي منطقة سكنية شاسعة في الجانب الآسيوي من اسطنبول. [المترجم].

مكان محيي الدين الذي يقع خلف سوق السمك. لاحظت أن الأخ ربيع كان يهمهم شيئاً وحده. لا بد أنه كان يلعن اللحظة التي قرع فيها بابنا.

إنني أعرف هذه الخمارة المعزولة قليلاً من خلال بعض الجولات التي كنت أقوم بها مع والدي إلى بيشيكتاش عندما كان يأتي إلى مكان محيي الدين لرؤية بعض الأصدقاء الذين لم يكونوا يصبرون حتى المساء ليبدؤوا بالشرب. طبعاً إن المنظر في الداخل في تلك الساعة من ذلك اليوم مختلف تماماً عن الذي يكون في الظهيرة.

طاولات تبدو من خلف طبقة كثيفة من دخان السجائر، ويوجد ربما مئة رجل ضمن غموض يستحيل حله عن كيفية اتساعهم في مكان صغير كهذا، وقد تحولت عيونهم إلى أطباق من الدم. إن نغمات أغنية "صدفتك في ليلة ربيعية" متدفقة من شفتي مطرب تعيس بمشاركة أصوات نشاز الكمان، تختلط بأصوات الهمهمات في الأجواء وبقرقعات الصحون والكؤوس. إن كان هذا الشيء يسمى موسيقا، إذن فلم تكن تنقصهم الموسيقا أيضاً.

حددت الطاولة التي يجلس عليها والدي، واتجهت بذلك الطرف بخطوات ثابتة. رآني السيد المحترم الذي لا يملك أسناناً الملقب بتوفيق البنت، والذي أعتقد أنه عندما يموت في أحد الأيام ستفقد سجائر "بافرا" ما يقارب الخمسين بالمئة من حصصها في السوق، فناداني : «هيه!» ناكزاً أبي الذي يجلس بجانبه. «أليس ابنك هذا؟»

قلت لوالدي الذي كان ينظر إلى وجهي بحيرة قبل أن أعطيه الفرصة للتكلم: «مرحباً، صحة وعافية».

كان على المائدة ثلاثة أشخاص سكارى غير توفيق البنت. السيد عم، الرأس الخشبي، ومجيد الأصغر سناً والأكثر حمرة من البقية والذي باعتقادي أنهم لم يروا أنه لائق بعد ليوضع له لقب.

قال الرأس الخشبي الذي مع الأسف تم إقناعه أنه شخص فكاهي: «ما شاء الله شب ابنك بسرعة كبيرة». مشيراً إلى الأخ ربيع.

قال الأخ ربيع بحماقته الخالصة غير الممزوجة بالماء: «كلا كلا! أنا لست ابنه، أنا جاره». ويكون بذلك قد أكل الطعم، وأعلن ترشحه ليكون شخص المسخرة لهذه الليلة.

قائلا: «انظروا! علماً بأنك تبدو بأنك سقطت من أنفه حينما عطس». مستمراً الرأس الخشبي في السخرية من الأخ ربيع وهو يصافح يده بحماس.

سأل والدي: «ماذا تفعل هنا يا بني؟ هل أمك...»

قلت آخذاً بعين الاعتبار أن أغضبه: «لا علم لوالدتي بمجيئي إلى هنا. فليُشكر الأخ ربيع أتى بي إلى هنا».

نظر والدي إلى وجهي بصمت. ثم قرر ألّا يسأل عن سبب لحاقي به. لا بد أنه كان خائفاً من الإجابة التي سيسمعها. التفت وسأل الأخ ربيع عن حاله وكأنه مرغم على ذلك.

قال الأخ ربيع: «جيد، حتى إني جيد جداً يا عمي». وكأنه يصرح بإنجاز ما. «ستبدأ امتحاناتي النهائية غداً. كنت قد مررت لأودعكم ثم...» أشار إلي بحركة يد تشنجية كتوضيح لكل ما تبقى.

أومأ والدي بحركة برأسه وكأنه يقول "فهمت". كان قد زال غضبه، وحلت ملامح حزن على وجهه. «حسناً، الآن ستعودون معاً. ربيع، بني لا تؤاخذنا لقد سببنا لك الكثير من المتاعب...»

قلت: «لن أخرج من هنا بدونك».

«لن أعود الآن إلى المنزل. وإلا سأتشاجر مع والدتك بشكل أسوأ. لكن سآتي غداً. أعدك».

«أساساً لم آت إلى هنا لأعيدك إلى المنزل. فكرت أنه بإمكاننا أن نشرب قليلاً معاً. الأب وابنه».

لا يخفى عني أنه حاول إخفاء الرضا الذي شعر به. «المكان ليس مناسباً من أجل الأطفال».

«وكذلك الحضانة أيضاً لكنكم أرسلتموني إلى هناك».

هذه المرة ضحك رغماً عنه. «يا أيها القواد. أنت مزوح من الطراز الأول». قالها وهو يداعب رأسي ثم أكمل: «لا تقلق. سيتحسن كل شيء».

أنا ميال بشكل كبير إلى تصديق ما يقوله أبي. إنه سيحترق فمي إن شربت الماء بعد تناول الفلفل، وإن بعض أنواع الحشرات تتقوقع كالكرة عند نكزها بعصاً، وإن لأسطورة بيشيكتاش اللاعب "شكري كوليسين" عشرات الأهداف التي سجلها من الركنية، وإن كلمة "Soldier" في الإنكليزية تأتي بمعنى جندي. تعلمت كل هذه الحقائق منه. لكن هذه المرة كنت أعلم أنه مخطئ. لن يتحسن أي شيء إلى الأفضل أبداً. ولكن يمكن إيجاد أساليب تطوير حالات سكر مكررة من أجل الإنسان. قلت: «أصدقك».

تدخل مشكوراً العم الرأس الخشبي قائلاً: «كفاك هذا، رب العالمين رزقك ولداً، وأنت ما زلت تتكلم. سنجلس قليلاً ثم تذهبون معاً».

قال والدي: «فليكن كذلك. يمكنك شرب مشروب غازي معنا». كنت وكأنني سأبكي من شدة الفرح.

قال الأخ ربيع: «إذن سأطلب إذنكم أنا».

اعترض والدي قائلاً: «هل تعقل هذه السخافة. اجلس أنت أيضاً. دعنا نشرب قدحين معاً».

صاح الرأس الخشبي لخادم الخمارة قائلاً: «يورداكول! يا بني، اجلب مشروباً غازياً وكرسيين بسرعة».

حك الأخ ربيع رأسه الكبير والفارغ. «يا الله، لا أعرف ماذا أفعل الآن؟»

قلت بسعادة: «لا تخف يا أخ ربيع. هذا المكان ليس خمارة الروم. أنت بأمان».

بدأ الدب يتذمر وهو يردد: «أساساً علاقتي ليست جيدة مع المشروب. كما أنني لم أصطحب نقوداً معي».

احتد أبي قائلاً: «دعك الآن من نقودك».

قد بدأت مسامرة بين الذين على الطاولة مبالغين موضوع تغفله. صاح توفيق البنت قائلاً: «ليكن المشروب الغازي اثنين!»

«إن ربيع، ابن السيد حجابي». هكذا عرفه والدي على الذين على الطاولة. رأى الضرورة للتأكيد على الفاجعة التي حلت به قبل مدة قصيرة أعتقد أن الهدف إنقاذه من الرجولة. «كان السيد حجابي مدير أمن متقاعداً يقطن في حينا. ذاك الذي رآه ابني...» ثم توقف قليلاً ثم فضل إنهاء جملته بشتيمة بدلاً من أن يستخدم مصطلح "جثة" كمرجع للمرحوم.

في حين قبل الأخ ربيع تعازي الذين على الطاولة بطريقة ناضجة وواعية بعض الشيء، ظهر الصانع الأول يورداكول وبيده مقعدان. كان يقول: «تفضل يا أخي!» وحين رآني قال: «يا ولد».

قال مجيد شيء سخيف مثل: «سجق»(١).

«ولكن ممنوع دخول الأطفال إلى هنا». كان التوتر ينفر من كل مسامات يورداكول.

أصر مجيد قائلا: «السجقات».

بدأ يشرح يورداكول لجيش السكرانين عن ماذا سيحل به إن اقتحمت الشرطة فجأةً، إن رآه رئيسه، إن اشتكى أحدهم. ولكن لا أحد كان يعر اهتماماً لهذا المسكين. فقط كانوا يرددون بآن واحد كلمة "سجق" عند كل مرة يقول فيها "طفل"، ويضحكون في كل مرة. ثم انحشر الخادم إلى جانب والدي، الذي كان

---

(١) هناك تلاعب لفظي باستبدال مصطلح Çocuk / تشوجوك، وتعني طفل. وبين مصطلح Sucuk / سوجوك، وتعني السجق. [المترجم].

يبدو الأكثر رصانةً على الطاولة، ولكن يبدو أنه لن يبقى هكذا لمدة طويلة بالنظر إلى طريقة شربه دفعةً واحدةً لنصف كأس مشروب في لمح البصر، وقال له: «يا أخي، افهم وضعي أرجوك... إن سأل أحدهم "ماذا يفعل هذا الطفل هنا"، ماذا سأقول؟»

كنت قد بدأت أضيق ذرعاً من خادم الخمارة. لم تكن لتقتحم الشرطة المكان، ولا ليشتكي أحد مني. أمسكت بربطة عنق هذا الفضولي التي تترنح وسحبته باتجاهي. كان أنفه يلامس خدي. لم ألتفت وأنظر إلى وجهه. قلت له وأنا أمد يدي الأخرى إلى كأس العرق لوالدي: «قل لهم، إن الطفل هو جد الناس». شربته بآن واحد وطرقت الكأس على الطاولة. رغم تركي لربطة عنقه، بقي في الوضعية نفسها كأنه متجمد. ثم رحل دون أن يتفوه بكلمة واحدة بعد أن لاحظ طبيعة قزم جهنم هذا الذي كان وجهاً لوجه معه.

تلقيتُ الكثير من الهتافات من المعاتيه الذين على الطاولة بسبب تصرفي المقرف هذا. هنأني العم الرأس الخشبي ومجيد بالتصفيق والسيد العم بشهقات أعتقد أنها تأتي بمعنى المديح. ولكن نظر والدي إلى وجهي بحدة وسحب الكأس من أمامي وأخذها. وكأنه أراد أن يقول لي سأقضي عليك إن قمت بتصرف مشابه لهذا. طبعاً الجميع كان يعرف كم كان يشعر بالفخر في باطن نفسه. لأنه هو أيضاً شخص معتوه مثلهم.

رفع الرأس الخشبي كأس العرق قائلاً: «هيا إذن. فلنشرب نخب زواج مجيد».

تمت الموافقة على هذا الاقتراح فوراً. وضع مجيد مشروبه على فمه وشربه قائلاً: «آه ثم آه. كيف أحببت تلك المرأة الظالمة؟»

قال السيد العم: «امرأة ظالمة؟ كم أنت كذاب يا مجيد. لم تر المرأة في حياتك إلا مرة واحدة فقط. وذلك عندما ذهبت مع أمك لتراها».

نادى توفيق البنت قائلاً: «جميع النساء ظالمات».

قال السيد العم: «التجربة تتكلم. يا توفيق، هل تعرفت في حياتك على امرأة غير نساء بيوت الدعارة؟»

تدخل الرأس الخشبي دون أن يترك الفرصة لتوفيق البنت للتكلم. «لا تقل هذا، توفيق البنت أيضاً يعاني من عذاب العشق. إن لهذا امرأة أجنبية مستمر معها منذ ستة أشهر. كانت المرأة قد طردت صاحبنا مؤخراً قائلةً له "خذ نقودك وارمها على رأسك، ولا تدعني أراك مرة ثانية". أقسم إنك رجل عظيم لأنك استطعت أن تجعل نفسك تهجره امرأة عاهرة».

بينما كان الجميع يضحك، نسي توفيق البنت سيجارته في طبق السجائر، وأشعل واحدة جديدة. نادى قائلاً: «أوكسانا، لو رأيتموها كم هي جميلة لما تحدثتم هكذا».

قال السيد العم: «دعك من الجمال، لا أهمية للشكل. المهم جمالها الداخلي. مضمونها».

بالرغم من أن هذه المقاربة التصوفية قد أدت إلى ركود الأجواء على الطاولة لم يتأخر الرأس الخشبي في جر الحديث إلى ذروته السابقة. «يا السيد العم، ألست أنت من كان يقول في المضمون كلنا واحد؟»

«نعم؟»

«إن كان مضمون الجميع واحد، فيجب علينا أن ننظر إلى الشكل بطبيعة الحال».

قال السيد العم وهو يحك رأسه: «إن هذا أيضاً صحيح. أعتقد أنك محق».

وافق الرفاق الأحباء على هذا التبيان بنداءات جياشة، وهجموا على كؤوسهم. صاح مجيد: «إذن لنشرب نخب النساء الجميلات».

انحنى نحوه الرأس الخشبي قائلاً: «احذر، مهما كان فلا تنغر بالجمال فقط. فيجب أن يتوفر في المرأة خاصية لا تقل أهمية عن ذلك».

من الواضح أن دخول مجيد الحياة الزوجية قريباً أقحمه في توتر جدي. قال: «ما هو يا أخي؟» معطياً انتباهه إلى الرأس الخشبي.

أجاب الرأس الخشبي قائلاً: «المعاملة». ثم أطلق قهقهة مقرفة من بعدها.

كانوا مستمرين في هذا المنوال. كانوا يشربون من جهة، ويتسلون بالتشاجر بعضهم مع بعض. عندما كانوا يحكون نكتة بذيئة جداً بين الحين والآخر كان يقوم أحد الذين على الطاولة بدعوة البقية إلى أن يكونوا أكثر أدباً بسبب وجودي. وآخر -الرأس الخشبي عادةً- يذكره بحقيقة أني شاب ليشربوا في النهاية نخبي. كنت أشرب من كأس الأخ ربيع دون أن يشعر. كان يبدو أن مزاج الجميع في مكانه.

كان والدي يغبّ كؤوس العرق بصمت وبعمق الواحدة تلو الأخرى. قال مجيد: «أخي اشرب بهدوء أكثر إن أردت. ستستيقظ صباحاً للعمل».

أجاب والدي بملامح لا أستطيع تخمين إن كان سيبتسم أو سيغضب قائلاً: «لا، لست مناوباً غداً».

«ما الأمر يا أخي؟ هل قدمت استقالتك؟»

«لا، تجري في مبنانا امتحانات قبول موظفي الدولة. نحن معطلون ليومين».

سألت: «ألم يجر ذلك الامتحان؟» كنت قد تذكرت الأوراق التي على طاولة السيد أردوغان. كنت واثقاً أنه مكتوب على الأوراق ما معناه "قائمة الناجحين بأحقية وظيفة الدولة".

شرب أبي كأسه قائلاً: «ماذا سيحدث إن جرى أم لم يجر؟ كلها حكايات. إنه معروف منذ أشهر من سيربح الامتحانات. سيأتي كثير من المساكين من آخر أصقاع البلد، وسيتعذبون هنا».

قال مجيد: «إن الكبير فيهم ابن عاهرة».

وافقه أبي الرأي برأسه: «خذ مثالاً مديرنا، المؤخرة أردوغان؛ لا حدود ولا حساب للنقود التي يأكلها في هذه الأعمال».

صححت قائلاً: «أردوغان مؤخرة مزدوجة».

«ولكن يا أخي لماذا لا يفضح أمر هؤلاء المؤخرات؟ لماذا لا يحرك أحد ساكناً؟» إن طريقة كلام مجيد، الذي تقدح عيناه ناراً، تظهر أن "سفارة عدالة" متمردة خاصة بالسكرانين قد لفت قلبه.

قال والدي: «أشياء كهذه لا يمكن إثباتها. دعك منها».

بعد عدة دقائق كان أبي وأصدقاؤه قد غطوا في حوار حار حول لاعبين بيشيكتاش الأسطوريين. أما أنا فقد كنت أتحسر على الفرصة الذهبية التي ضيعتها بعد أن كنت قد حظيت بها. لو أني فكرت بطباعة نسخة عن تلك الوثيقة ربما كنت قد جعلت هذا القواد ينسى الحليب الذي رضعه من أمه. للأسف لم يعد بإمكاني أن أفعل شيئاً بهذا الخصوص. على الأقل لو أني أستطيع إيجاد شيء يلقي الضوء على حل الجريمة وإنقاذ والدي من افتراءات متين بلكين السافلة والذي لم أتمكن من إنقاذه من النقل التعسفي. في تلك الأثناء وبحكم وجوده بجانبي فكرت إن كان بإمكاني الحصول على معلومة ما من الأخ ربيع أو لا. عندما فكرت بالذي جرى من لحظة الجريمة وحتى الآن، تذكرت سؤالاً لا يبدو أنه مهم ولكنه أثار تفكيري حيناً. ملت بهدوء نحو الأخ ربيع الذي بدا وكأن الضجر قد غزاه بسبب الضجة ودخان السجائر. «في جنازة والدك...» كنت قد بدأت الحديث وكأني أتحدث عن شيء عديم الأهمية. وأكملت: «كنت شاهداً عليك عندما تعرضت لنوبة تأنيب ضمير بعد أن أفاقك الأخ شامي عندما أغمي عليك. إن ما خاب ظني كنت تقول شيئاً ما يشبه "حصل هذا بسببي". ما الذي جعلك تتحسر إلى هذه الدرجة يا أخي ربيع العظيم؟»

إن تلبك الأخ ربيع كان واضحاً جداً بالرغم من ظروف الإنارة المحدودة للخمارة. رفع كأس العرق، حرك ما بداخله، ثم أعاده إلى مكانه. أخذ نفساً

عميقاً وحاول الاسترخاء. للأسف في تلك اللحظة تماماً يدخل المغني عازف الكمان إلى الأغنية قائلاً "*إن روحي ليلة مظلمة/ لا يحل الصباح*". ويبدأ الأخ ربيع بالبكاء. إن عدم استغراب أحد لهذا الوضع كان غريباً. في حين كان الأخ ربيع يعتذر من الجميع الواحد تلو الآخر لأنه نزع متعة الجو، فقد كانوا بدورهم يهدئون من بؤسه مداعبين ظهره بهدوء. على ما يبدو أنهم كانوا معتادين إفرازات المشاعر كهذه ضمن مجالسهم. لم أهتم به كثيراً لأنني لم أكن أكترث بأصحاب العيون الرطبة بحكم طبيعتي، ولكن عندما سمعت أثناء أنينهم عبارة "أنا القاتل" تخرج من فمه، قفزت من مكان جلوسي. في الواقع تعرضت لخيبة أمل كبيرة في اللحظة التي قال فيها الأخ ربيع هذا بدلاً من أن أفرح من أجل العديد من الأناس البريئين أمثال أرتان المجنون، الأخ أركين، ووالدي. أي أن أرمي نفسي في ألف تهلكة وتهلكة على أني سأحل الجريمة، ثم يدخل القاتل ضمن نوبة عذاب وجدان في زاوية خمارة قذرة ويعترف بجرمه. شيء لا يعقل.

قال الأخ ربيع: «أمي العزيزة». ثم أفرغ مخاطه في منديل وأكمل. «ماتت بسببي».

«إذنْ الله يخرب بيتك». لا أعرف بالضبط لماذا قلت شيئاً كهذا. أساساً كنت قد ارتحت ضمنياً عند معرفة أنه لم يقتل والده، هو فقط كان يشتعل عذاباً لأنه لم يكن لائقاً لمحبة أمه ككل الرجال الذين يكونون قد بالغوا في الشرب. أعتقد أنه كان نوعاً من أنواع تفريغ المشاعر. ما كان علي أن أشرب وأنا على رأس عملي. في تلك اللحظة أمسك والدي بي من إبطيّ ورماني إلى مكان بعيد بما فيه الكفاية عن الأخ ربيع. كانت هذه الحركة في مكانها لأن تقييم الأخ ربيع لي كالمحاور الأول له لن يجلب نتائج جيدة.

قال الرأس الخشبي واضعاً يده على كتف الأخ ربيع برفق: «تكلم يا بني، سترتاح».

قال الأخ ربيع ومخاطه يجري: «آه يا أمي الجميلة. كيف ضحيت بنفسك؟ كم أنا شخص حيوان وسافل لأنني لم أهتم بك قليلاً. رغم معرفتي أنك بائسة... فليلحق الله البلاء بي!» التفت والدي إليّ ورماني بنظرة قذرة. أعتقد أنني سأتناول أول ضربة عصا من والدي هذه الليلة إن شاء الله. في المناسبة كان يفتح لسان هذا الحمار الكبير أكثر فأكثر. «كنت شاباً. وكنت معجباً بفتاة تدعى عائشة. كانت مجنونة. ثقبت لسانها ووضعت حلية بوسطه. طالما كانت تتعاطى المخدرات. كنت دائماً أنجر لاحقاً بها. كثيراً ما كنت لا أعود إلى المنزل طيلة أسبوع من الزمن. كنت أصرخ على أمي لأي سبب كان وأحطم قلبها. ثم عندما عدت إلى المنزل في أحد الأيام لم أجد أحداً. قال البقال يعقوب إن أمي رمت نفسها من النافذة، وصار لها ثلاثة أيام في العناية المشددة في المستشفى العسكري. كان سيجن جنوني. عند ذهابي إلى المستشفى رأيت أخي شامي. قال "ماتت أمي. سندفنها غداً"». أعطى فاصلاً لحديثه باحتسائه رشفة صغيرة جداً. تجهم وجهه وهز لسانه عدة مرات ليشتت الطعم المر الذي في فمه. «كنت قد فقدت إلى الأبد تلك الامرأة المباركة التي تحبني أكثر من أي شيء ومن أي أحد. ومن أجل ماذا؟»

أجاب السيد العم: «من أجل فتاة تضع حلي في لسانها».

«أردت أن أراها لآخر مرة على الأقل. قال أخي إني تأخرت على ذلك؛ لأنه جرى نقلها إلى ثلاجة الموتى. وكان يستحيل في تلك الساعة إيجاد شخص لنحصل على إذن لفتح الثلاجة. ولكنني قررت ألّا أغادر المكان حتى أرى أمي. نمت تلك الليلة في المستشفى. جاؤوا في الصباح الباكر وأيقظوني. كان طبيب والدتي، صديق أخي من أول وحدة خدم فيها. طلب منه أخي وهو بدوره فتح الثلاجة. وبذلك استطعت أن أرى أمي لعدة دقائق. كانت جميلة لدرجة... كان شعرها الحريري الأشقر منسدلاً على كتفيها، وعلى وجهها الجميل ملامح الطمأنينة تقريباً. لم يكن يصدق أحد أنها ماتت. من يدري، ربما هي فعلاً سعيدة لأنها تخلصت من هذه الحياة الدنيوية...»

سألته آخذاً بعين الاعتبار إثارة غضب والدي: «هل هذا ما تذكرته في المقبرة ذلك اليوم؟»

هز الأخ ربيع رأسه إلى كلا الطرفين بمعنى الإنكار. «أردت أن أضع على وجنة أمي قبلة الوداع قبل أن أغادر. منعني أخي بادعائه أنني لا أستحق هذا. كان يصرخ قائلاً "لا أنت ولا أبي له الحق في لمسها. دفعتموها إلى الانتحار وتركتموها تتصارع مع الموت وحدها!" هجمت عليه كالمسعور. ثم تدخل الممرضون. خدروني باستخدام إبرة. بعد أن استعدت صحوتي بعد ساعات كانت مراسم الجنازة قد انتهت».

في حين كان الجميع ينتظر باحترام انقطاع دموع الأخ ربيع، كنت أحتسي خلسةً من كأس أبي. وأخيراً حقق السيد العم المداخلة المرتقبة من قبل الجميع: «دعونا نتكلم على شيء آخر».

قال توفيق البنت بفرحة موزونة: «مجيد، يا بني، إن موضوع الزواج هذا جعلك سوداوياً جداً. لم تكن تنتهي أحاديثك عن ذكرياتك في العسكرية سابقاً؟»

أشعل مجيد سيجارة وبدأ حديثه قائلاً: «كان في السرية شاب من أنقرة. لا أذكر اسمه. كان شخصاً صامتاً هادئاً ومهذباً. كان شاباً أشقر. دائماً ما كان ينظر بحزن مثل الخراف. سألناه مرةً عن مشكلته. كانت والدته، ووالده، وزوجته، وابنته يعيشون معاً في بلده. كان دائماً يفكر بهم. "ما هذا؟ هل هنا حضن أمومة أم عسكرية؟ كلنا نشتاق لعائلاتنا. هل نسرح في الأوساط مثل الأرواح؟" بهذا الشكل اخترقنا نفسيته. قال "ليس كما تظنون. إن مشكلتي ليست مشكلة اشتياق عادي. خوف." قلنا "من ماذا أنت خائف؟" قال "من الموت." وإذ به كل دقيقة يخاف أن يموت أحد من عائلته، لهذا السبب وقع في أزمة».

قال السيد العم: «انظروا إلى الحديث الذي فتحه هذا الحيوان».

«وفي هذه الأثناء بدأ يفقد عقله أكثر. لا يأكل، يبكي باستمرار، يسقط في الاجتماعات ويغمى عليه. في البداية صاروا يضربونه، وعندما لم تجد نفعاً أرسلوه إلى طبيب نفسي الفرقة. حصل على نقاهة وذهب إلى بلده. حتى إني أذكر جيداً أننا أنا والرفاق كنا نتحدث عن إمكانية أن يكون هذا الماكر يقوم بهذه الألاعيب ليحصل على نقاهة».

سأل توفيق البنت: «إذن؟ هل شفي عند عودته؟» آملاً أن تنتهي الحكاية بنهاية سعيدة قبل أن يفقد الأخ ربيع عقله.

«كلا، لم يعد بعدها مطلقاً. ذات ليلة فتح الغاز حينما كانوا نائمين، فتوفيت العائلة المسكينة».

قال الرأس الخشبي: «يا مجيد، اللعنة على نفسيتك».

قال مجيد بأسلوب ساخط: «ماذا؟ ألم تقولوا لي حدثنا عن إحدى ذكريات الجيش؟ عند ذكر ثلاجة الموتى خطر ببالي تلك الحادثة. فقلت دعني أحكيها».

وقف توفيق البنت وقال: «قد تناولت الغائط الآن. تصبحون على خير أجمعين. أنا ذاهب. قولوا لمحيي الدين أن يسجل حسابي. سأدفع بداية الشهر».

قال الرأس الخشبي من خلفه: «انظروا إلى هذا، حوّل الرجل الخمارة إلى بقالية».

وضع والدي على الطاولة قطعة نقدية من أكبر فئة. «اسمحوا لنا أيضاً».

التفت الأخ ربيع إلى اللذين على الطاولة قبل الذهاب وقال: «أنا... أعتذر مجدداً لأنني نزعت سهرتكم».

أجاب الرأس الخشبي قائلاً: «دعك من ذلك يا بني. لو أردنا التسلية كنا ذهبنا إلى المسرح. نحن أساساً نأتي إلى هنا كي تبوح بآلامنا. إن مواساة الألم مؤلمة».

خرجنا وركبنا سيارة أجرة. ركب الأخ ربيع المقعد الأمامي وغط في النوم. عندما وصلنا إلى وسط جسر البوسفور قلت: «أبي، لا أقصد التدخل بشؤونك، ولكن برأيي أن نمر إلى حارم أولاً».

«ماذا يوجد في حارم؟»

«محطة سيارات. وفي المحطة توجد حافلات؛ حافلات أرزروم».

«هل أمك من أرسلك من خلفي؟»

قلت: «إنه مكان سيئ هنا». كم كان المكان الذي اخترته لقول هذا سيئاً. إنه مضيق إسطنبول أسفلنا يمتد بهيبته، وكانت المدينة تشع نوراً في كلا طرفيها. «إن المنظر يغش الإنسان. لكنه في الحقيقة فاسد من الداخل. إسطنبول لا تستحقنا». داعب أبي رأسي دون أن يقول شيئاً. استطعت ملاحظة أنه كان يبتسم. إن هذا قد زاد من شجاعتي. «نشتري قطعة أرض في أرزروم. نزرع الطماطم والفلفل في بستاننا. عندما نضجر نذهب لنتنزه في الغابة. كما أن هواء تلك المناطق مختلف. سيكون جيداً من أجل أمي أيضاً. ستصبح أكثر هدوءاً». كنت أتكلم وأتوقف قليلاً مثل صدري أليشيك[1]. ولم أكن أصدق أية كلمة مما قلت. ولكن أساساً لم تكن غايتي أن أجعل والدي يصدق نزاهتي في الكلام. إن الشيء الذي سيقنعه بالسفر إلى أرزروم هو حالتي المأساوية هذه بالضبط. كم كنت ذرية شيطانية!

فإذ بالأحداث تتطور كما توقعت. قرر والدي في تلك الليلة القيام برحلة الأناضول التي كان قد أجلها منذ زمن. وبعد خمس دقائق كنا في محطة سيارات حارم التي تشبه مكان السوق. قبل أن يترجل أبي من سيارة الأجرة وضع في يدي مبلغاً من النقود وضمني بشدة. «سأعود في اليوم التالي. لا تقلقوا عليّ أبداً. قبّل والدتك عوضاً عني».

---

(١) صدري أليشيك: ممثل وشاعر تركي قديم مثل في عدة أفلام ومسرحيات. [المترجم].

فعلت حركة برأسي بمعنى "حسناً". كنت خائفاً أن أبكي إن فتحت فمي. لم أكن أريد أن أجعل الرجل المسكين يحزن. قبّلني والدي، وترجل من السيارة، واختلط بالجمع الذي في المحطة.

سأل سائق سيارة الأجرة: «والآن إلى أين؟»

«إلى شارع السيد عمر جمال».

«ستدلني. لأني غريب عن المكان».

قلت: «أعرف». كانت الألعاب النارية تفرقع من برج الفتاة[1]، والأخ ربيع يشخر في المقعد. «من منا ليس كذلك؟»

---

(١) برج الفتاة: هو برج صغير على جزيرة صغيرة عند المدخل الجنوبي لمضيق البوسفور، يبعد نحو ٢٠٠ متر عن ساحل أسكودار في مدينة إسطنبول. [المترجم].

- ١٠ -

الوقائع والحقائق

استيقظت في صباح اليوم التالي باكراً، وحضّرت فطوراً رائعاً لأمي. هذه اللفتة التي لم تعتدها من جهة، ومن جهة أخرى خبر ذهاب والدي إلى أرزروم ليسأل عن منزل قد أسعدها أكثر من اللازم. نبهتني أقل بكثير من المعتاد قبل أن تذهب إلى عملها وقبلتني. أما أنا فكنت مستاءً وغاضباً. لم يتبقّ لي الصبر الكثير لأنتظر أكثر من هذا. خرجت بعد أمي وكان مقصدي منزل أهل يوكسيل.

لم يفرح صديقي آكل العسل أبداً لرؤيته لي على الباب. قام مجهماً وجهه: «هل هذا أنت؟ أهلاً بك».

قلت: «أعطني الأفلام، سأذهب وأطبعهم بنفسي».

نظر إلي يمينه وشماله بطريقة قلقة، وأشار لي أن أبقى صامتاً. كان يخاف أن تسمع والدته ما نتكلم عنه. همس لي: «انزل الآن إلى الحديقة؛ إلى تحت السلالم، سآتي بعد قليل».

«هل طبعت الصور؟» كنت متحمساً جداً.

«افعل ما أقوله لك»، وأغلق الباب في وجهي.

لم يكن أمامي سوى الذهاب إلى الحديقة، وبدأت أنتظر. ربما جعلني أنتظر عشر دقائق عديم الأخلاق. وبالنهاية عندما أتى كانت يداه فارغتين. تعرضت لخيبة أمل بشكل رهيب. التصقت بياقته. «هل تسخر...»

حرر ياقته مني بحركة قاسية. وانبرى قائلاً: «من تظن نفسك؟»

كنت أتمالك نفسي بصعوبة كيلا أضع هذا الكلب تحت أقدامي. «لا وقت لدي أقضيه في اللعب».

«أين وجدت هذا الفيلم؟»

قلت بصوت مرتجف: «سأقتلك يا يوكسيل. أقسم بالله سأقتلك».

قال: «هذا صعب بعض الشيء». ولكن كان واضحاً عليه الهلع. أخرج من داخل كنزته ظرف أصفر كبير «نحن نقدم لك عمل خير هنا».

انتشلت الظرف من يده بحماس، وألقيت نظرة إلى داخله. عند رؤية دستة صور محمضة وأفلام تحميض قفز قلبي من مكانه. فتلت ظهري، وابتعدت من هناك دون أن أتفوه بكلمة واحدة. كان يوكسيل يحكي شيئاً ما من خلفي - من المحتمل أنه شيء تعيس- ولكن لم أكن أفهم شيئاً منهم. خرجت من الحديقة، واجتزت إلى الطرف المواجه للشارع بسرعة، وبدأت أركض. كنت أتقدم باتجاه ساحة كرة القدم بلا شعور. كانت الساحة موجودة فوق مساحة ريفية ضخمة وعرة في بعض المناطق لا أعرف لماذا تسمى "بالمزرعة". اجتزت هذا المجال من أوله إلى آخره وصولاً إلى الساقية التي في أسفل أشجار الحور التي تحدد المزرعة.

اخترت شجرةً مناسبةً لي وجلست تحتها. كانت شفاهي جافة ويداي ترجفان. أغلقت عينيّ وأخذت نفساً عميقاً. لم أكن أستطيع الهدوء. لأن خفقاني لم يكن لأسباب فسيولوجية بل لأسباب نفسية. تمددت فوق العشب، حاولت إيجاد الاسترخاء بالإصغاء لخرير الماء. إلا أن أشياء سيئة كانت تخطر ببالي دائماً. كدخول أم أربع وأربعين مختبئة بين الأعشاب من ياقتي ولدغها إياي. نظرت إلى الفطر الملون المنتشر هنا وهناك. كان والدي قد علمني أنه سام. أما الآثار التي تسببها عند الاستهلاك منها كميات مناسبة، فذلك بتجاربي الشخصية. ثم علقت بذاكرتي أغنية مضحكة تدعى "*que sera sera*"(١). كنت

(١) que sera sera: أغنية للمطربة والممثلة والمخرجة الأميركية دوريس داي. [المترجم].

أشعر بنفسي مثل كافكا الذي انتظر أسابيع كالمجنون وصول رسالة من ميلينا[1]، ومن ثم أجّل موضوع فتح الرسالة، بعد وصولها من البريد، باستمرار. انتزعت من الأرض أحد الفطور من المسافة التي تطالها يدي، وقضمت نصفه. بالرغم من غثياني علكته مطولاً وابتلعته. وبعد أن أنزلت النصف الآخر إلى المعدة، فتحت الظرف وأخرجت ما بداخله. نظرت إلى كل صورة واحدة تلو الأخرى بتمعن. رجل وامرأة. بعضهما مع بعض. يفعلون شيئاً معاً. الباليه؟ الحركات البهلوانية؟ كلا، ليست أي منهم. إنهما يتضاجعان. أبطال النشاط المذكور؟ شخص معروف، أرتان المجنون. والأخرى على الأرجح إنها المرأة التي ادعى في المخفر أنها خليلته، الجميلة التي تنزلق النجوم في عينيها الحزينتين دائماً.

كانت روحي العاصفة قد لاقت الراحة بعد خمس دقائق فوق العشب ومن بعد عدد من الفطر. إن صوتاً بداخلي يقول إن هذا المعطى الأخير قد أكمل الصورة. فكرت مطولاً دون أن أضغط على نفسي، وتوصلت لقناعة أني محق بإحساسي هذا. نهضت من المكان الذي أنام فيه، وضعت الصور ضمن الظرف، وضعت الظرف داخل قميصي، وأخذت طريق العودة إلى الحي.

دخلت البناء الملاصق لبنائنا، وصعدت إلى الطابق الثالث، وقرعت مطولاً جرس المنزل المعزول عن العالم الخارجي بباب فولاذي بألف قفل. جاء صوت مرتجف من الداخل يقول: «من هناك؟»

قرعت الجرس مرة أخرى. كانت معدتي تحترق. وفي النهاية عندما رأتني الأخت أليف التي فتحت الباب طرحت سؤالاً عديم المعنى بأريحية واضحة جداً على شاكلة: «هذا أنت؟»

---

(١) ميلينا وكافكا: ميلينا: صحفية وكاتبة ومترجمة تشيكية الأصل عاشت الحب الممنوع عبر الرسائل مع فرانز كافكا، الذي هو تشيكي يهودي من أصول ألمانية . [المترجم].

«هل يمكنني الدخول؟»

«ولكن علي الخروج بعد قليل. سأتصل بك عند عودتي. حسناً؟»

أصريت قائلاً: «لن يطول كثيراً. خمس دقائق كحد أعظم».

فكرت قليلاً وهي تقضم أظافرها ثم دعتني إلى الداخل قائلةً: «تعال إذن»، معتقدة على ما أظن أنه بإمكانها طردي متى ما شاءت.

دخلت إلى غرفة الجلوس، وجلست على إحدى الأرائك رمادية اللون الموجودة على طرف النافذة والتي تمثل نصباً تذكارياً لانعدام الذوق. كنت أشعر بنفسي وأنا بجانب الأخت أليف مرتاحاً وعدائياً إلى أبعد الحدود أكثر من أي يوم مضى. «الخالة رمزية أليست موجودة؟»

«ذهبت أمي إلى القرية لعدة أسابيع». كانت تتحدث بطبقة صوتها المعتادة كالأخت راوية القصص اللطيفة، ولكن ملامحها المتوترة تبين بوضوح القلق الذي شعرت به بسبب زيارتي.

كان بجانب الأريكة التي أجلس عليها طاولة صغيرة وعلى الطاولة بطة تشبه تحفة الحمار البورسلاني الذي رأيته في منزل السيد حجابي. مسكت البط الدائخ بيدي وهمهمت قائلاً: «يا لسوء الحظ».

«خير إن شاء الله، ماذا كنت تريد من أمي؟»

«العافية عليك، دخلني الشيطان ليلة البارحة، كنت سأقول لها أن تخرجه. لا بأس ستتحمل عدة أسابيع أخرى».

لم تكن تضحك الأخت أليف. سألت بقلق: «هل كنت ستقول شيئاً لي؟» كان بإمكاني ملاحظة أنها تراقب الرواق بعينيها محاولة عدم جعلي أنتبه لشيء.

التفت ونظرت إلى الرواق أنا أيضاً قبل أن أجيبها كي أتلف أعصابها أكثر فأكثر. لم يكن يبدو شيئاً أو شخصاً خاصاً. التفت إليها وقلت: «كنتِ

بين الحين والآخر تقصين عليّ القصص والحكايات. واليوم أنا أريد أن أقص عليك قصة».

«حسناً يا حبيبي، ولكن ألا يمكنك قصها لاحقاً؟ لأنني كما قلت...»

بدأت بالقص قائلاً: «كان يا مكان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان لحتى كان...» ولكن لم أكن متأكداً أبداً إن كنت سأجد النهاية لها. كان جسدي يتخدر شيئاً فشيئاً، عقلي يتعكر. «ليس بعيداً، كانت تعيش امرأة أرملة مع ابنتها في حي ليس بعيد بل قريب. تُعرف هذه المرأة في الحي الذي تعيش به على أنها طاردة الأرواح الشريرة. حتى يمكن مصادفة بعض الأغبياء ممن يقولون أنها مباركة. رغم أن الشغل الشاغل لهذه المرأة القذرة هو التبرع بابنتها لهؤلاء الرجال الذين يأتون إلى المنزل. هكذا هو الحال».

قالت الأخت أليف وتلك الابتسامة المزيفة قد تجمدت على وجهها: «أنت...»

«ألا يوجد رجل قذر كتلك المرأة الشمطاء على أقل تقدير يعيش في هذا الحي الملعون؟ كانت المتعة الأكبر لهذا الرجل العجوز، الذي أرسل زوجته إلى دنيا الآخرة بسبب حزنها، أن يجعل مجنون الحي وابنة المرأة طاردة الأرواح يمارسان الجنس ويلتقط صورهما. وبينما كنا جميعاً نعيش بهناء، فسدت الأمور مع ظهور شاب في غاية الغباء طموحه أن يمارس الموسيقا في بريمن. ثم ألم يتراجع هذا الغبي، الذي وقع في حب العاهرة الصغيرة، عن أحلام بريمن ويقرر الزواج منها؟»

تعثرت الأخت أليف أو ربما خطت خطوة اتجاهي. «يا ابن الحرام...»

«وبناءً عليه ذهبت الفتاة، وطلبت من حبيبها استعادة الصور من ذلك الرجل العجوز القذر ومن ثم يقتله ربما طلبت الفتاة الصور فقط ولكن حصلت

حادثة كهذه حيث تطلب الأمر أن يذبح الشاب حلق الرجل». كنت مستمراً في الحديث بالنمط الأوتوماتيكي، ولكن ظل عقلي يرسل تنبيهات باستمرار عن حقيقة المشاهد الواصلة من عيوني أنها تحمل عناصر تهديد جدية. كان قد ارتفع عدد المستمعين إلى أربعة؛ اثنان منهم الأخت أليف، واثنان منهم الأخ أركين. «لم يكن هذا الديك المولع بالفسق، والذي نال ما يستحقه، من النوع الذي يفتح بابه وسط الليل لأي كان لأنه كان يمتلك شخصية مصابة بجنون العظمة. لم يعارض أن تقوم الفتاة، التي تعرف هذا الشيء عنه، أن ترتب آخر ليلة متعة في منزله. وعندما أتى ذلك اليوم، أرسلت حبيبها إلى هناك بدلاً من أن تذهب هي. وفتح العجوز المسكين الباب معتقداً أن الفتاة من أتى. وفي هذه الأثناء كانت العاهرة الصغيرة...» اضطررت أن أعطي فاصلاً بسبب صفعة الأخت أليف على خدي. أساساً فادتني هذه الصفعة كثيراً، إذ زادت من حدة الأحاسيس الخمسة التي ضعفت روابطها مع العالم إلى حد كبير. على الأقل بت أرى شخصين فقط أمامي. ابتلعت البصاق الممزوج بالدم الذي في فمي وأكملت. «كانت العاهرة الصغيرة تشاهد كل شيء من منزلها المقابل تماماً. كانت قد فرحت جداً عندما خرج حبيبها من منزل الرجل راكضاً... ولكن بقيت فرحتها في حلقها. لأنها عندما كانت تنظر من النافذة لاحظت وجود ابن جيرانها الشقي في الشارع، وأنه بدوره أيضاً رأى موسيقي بريمن. ولا سيما أن الولد قام وبدأ بالسير بالاتجاه الذي هرب إليه. كان كل شيء سينتزع...»

«اقتله». كان الصوت صوت الأخت أليف، ولكن لا يمكنها أن تكون تقول هذا لي.

صاح الأخ أركين الذي ظهر فجأة من الغرفة قائلاً: «ما هذه السخافة! لا أستطيع قتل طفل. لا أستطيع قتل أحد!»

«لا تصرخ أيها الغبي! سيسمع أحدهم».

بالنسبة إليّ، كنت مصمماً؛ سأحكي السيناريو الذي في بالي حتى النهاية. «أما بالنسبة للمجنون البطل الآخر في الرواية المصورة... بما أن الولد لم يلحظ دخوله المنزل، فمن الأقرب للمنطق أن يكون موجوداً في المنزل أثناء ارتكاب الجريمة. في المناسبة...»

في تلك اللحظة أدخلت الأخت أليف أصابعها في فمي. «إذن أنا سأقتله...»

سحبها الأخ أركين عني صارخاً: «هل أنت مجنونة!»

كانت الأخت أليف تتخبط وتخدش وجهه وعينه. «دعني أيها الغبي! سيشنقوننا كلينا!»

قال الأخ أركين: «سئمت منك سئمت!» ولكمها لكمة حيث التصقت الفتاة مع الطاولة التي في وسط الغرفة على الأرض. «فليحصل ما سيحصل!»

وكأن الذي يجري لا علاقة له بقضية حياتي أو مماتي فقد كنت أشاهد فيلماً. «هل خططتم لوجود أرتان المجنون هناك منذ البداية؟ لتحميله الجرم. أم ذلك كان مصادفةً؟»

قال الأخ أركين: «كفى». وأمسكني من يدي ودفعني باتجاه الباب. «إنها ستقتلك، ألم تر ذلك! ارحل من هنا فوراً».

كانت الأخت أليف قد خلقت عندنا فجأة وبيدها رجل الطاولة المكسورة. لو لم يتدخل الأخ أركين بيده ربما كانت ستحطم دماغي. بالنظر إلى الفرقعة المسموعة، فقد كسرت يده. نهض بغضب كبير وهجم على ابنة الجيران. كان يضرب امرأة أحلامي ركلاً وصفعاً دون القول إنها خلقة الله. في الحقيقة خطر في بالي للحظة أنه هل أتدخل لتفريقهم أم لا؟ هل ستحبني الأخت أليف عندها؟ طبعاً كان كل هذا هراءً. أساساً تراجعت فوراً. ولكنني سألت سؤالاً منتهزاً فرصة إعطاء الأخ أركين فاصلاً لجلسة القتل. «هل قتلتم الخالة رمزية أيضاً يا ترى؟»

قال الأخ أركين ممتزجاً الدم بالعرق: «ألا تفهم من الكلام يا ولد! إذا بقيت قليلاً ستخرج جثتك من هنا».

قلت ضاحكاً: «أموت ولا أذهب. أريد إجابات لأسئلتي».

قام الأخ أركين تحسباً لفرصة هجوم جديد بوضع ركبه على يدي الأخت أليف الاثنتين. بالنسبة إليّ كانت احتياطات غير لازمة. كان وضع الفتاة مزرياً. كانت تنام دون حركة محدقة عينيها في السقف بشكل ثابت. كان احتمال أن تكون ميتة قوياً جداً. قال الأخ أركين مجهماً وجهه بألم: «لم نقتل أحداً، لا مدير الأمن ولا الأم القوادة لهذه».

إن هذا الفطر شيء غريب. يصبح الإنسان وكأنه سيصدق الهراء مثل السلام العالمي والأخوة. قلت شيئاً سخيفاً ما يشبه: «إني أصدقك يا أخي». ووضعت الظرف الذي أخرجته من قميصي في يد الرجل.

دور الأخ أركين الظرف بيده عدة مرات، فتحه وأخرج الصور. بعدها حدق بعينيه المتفتحة مثل حجر الفال إلى وجهي، وسأل: «أين وجدت هذه؟»

قلت: «لا أهمية لهذا. أعرف كثيراً من الأشياء. وإن حدثتني بما لا أعرفه ربما يمكنني المساعدة».

كان قد تشوش عقل المسكين. بدأ يسرد عاضاً شفتيه. «تحدثت أليف مع ذلك القواد، أي مع المرحوم عدة مرات. حاولت إفهامه أنها لا تريد الاستمرار بهذا العمل، وأنها تريد أن تصبح ربة منزلها. ولكن لم يقبل الرجل أبداً أن يدعها وشأنها. أذلها وأمطرها بالشتائم. هددها بفضحها أمام الجميع، حتى بزجها في السجن بتهمة الفاحشة مستخدماً الصور التي التقطها. لم يكن لدينا حل آخر، أتفهم؟ ذهبت ذلك اليوم إلى هناك لتهديده وأخذ الصور منه. كان باب المنزل مفتوحاً ثم رأيت الجثة التي على الأريكة. خفت كثيراً ورغم ذلك استجمعت الشجاعة الكافية لأبحث في الأمكنة التي قالت لي عنها أليف لكي أبحث عن

الصور وفي النهاية وجدتها كلها... أي كنت أظن أني وجدتها. كنت على وشك الخروج من المنزل حين تقابلت وجهاً لوجه مع المجنون. خرج من إحدى الغرف من الداخل. حينئذ أيقنت أنه هو من ارتكب الجريمة ثم هربت بحالة من الذعر».

في الحقيقة كانت حكاية غريبة ولكن لم أتمالك نفسي عن التثاؤب. قلت: «حسناً، سأخلصك من هذه القذارة. لا تخف. بعدها تتزوج إن أردت من الأخت أليف وإن أردت من يشيم وإن ما تم ذلك تذهب إلى التيبت».

رفع الأخ أركين رأسه باتجاه سعادتي أنا الذي كنت أشكّل أمله الأخير. «أنت ماذا؟»

قلت: «أفلام التحميض ضمنها،» مشيراً برأسي إلى الظرف. «فكر بأن الله أرسلني. أو الشيطان. كما ترجح أنت».

أدرت ظهري وكنت على وشك الذهاب، سمعت الأخت أليف تهدر قائلةً: «شيطان! أنت ذرية شيطانية». إذن لم تكن ماتت. فرحت لذلك. كان أسفل عينيها أسود قاتماً، وكان يجري على خدّيها باتجاه الأسفل خيوط من الدموع. كانت أجمل فتاة أراها في حياتي بهذه الحالة. كان الحقد يليق بها أكثر من الورود. إنه يليق بكل النساء أكثر من الورود.

قلت منحنياً باتجاهها: «تلك القصة التي حكيتها لي...» لمستُ شعرها وخديها بشكل خفيف بأصابعي. «إنك تجهلين نهاية تلك القصة. يمكن للناس الذين دخل حطام المرآة في عيونهم أن ينجوا ببكائهم. لأن حطام المرآة سيسيل ويذهب مع الدموع. ولكن يمكن أن يكون ذلك الحطام قد غرز في قلوب بعضهم. إن مثل هؤلاء مهما بكوا فلن يستفيدوا؛ سيبقون مسحورين دائماً».

خرجت من هناك راكضاً إذ كان هذا خطأ كبيراً. فقدت توازني وتدحرجت خمس عشرة درجة على الأقل حتى وصلت الطابق الأسفل. بعد أن رميت نفسي إلى الشارع لاحظت باستغراب كيف تتغير ألوان الحياة. كانت

السماء أشبه بمربى البرتقال فعلاً، وكانت الفتاة الصغيرة الموجودة داخل المجوهرات تلوح لي بالفعل من السماء. رددت عليها بنفس الطريقة وبهمة أخيرة صعدت إلى المنزل. سحبت قابس الهاتف، حشرت قطعة ورقية سميكة في الجرس. مرت دقيقة واحدة كحد أعلى على أخذي مكاني تحت الأريكة حتى تحولت حدائد صدئة لسرير قديم وعتيق إلى باب عظيم. ما ترتب علي هو عبارة عن دفعها قليلاً.

- ١١ -

هكذا كان ينام زرادشت

يمكن أن يكون دون كيشوت وسانتشو. أو مجنون وليلى أو توم وجيري حتى يمكن أن يكون أويا وكايا. ولكن لماذا أوزتورك وأنا؟ يجب التفكير بهذا. هل كنا توءماً روحياً؟ تحليل نفسي لتشبيه بليغ أم فقط كنا حادث بخت؟ هل كنت بالنسبة لأوزتورك كما هو حال أوزتورك بالنسبة إليّ؟ في المحصلة ما الذي يجعلنا نحن كنحن؟ إن الإجابة عن القضايا التي بيننا موجودة ضمن العديد من الأسئلة الأخرى غير الواضحة. على سبيل المثال، هل كنا أنا وأوزتورك نحب الفتاة نفسها؟ هل كان اسم الفتاة "دويغو فرتنا"؟ هل فعلاً كانت موجودة هذه الفتاة؟ هل كان حلمي هو صديق الطفولة لوالدي الذي مات حين كان طفلاً؟ أم كان حلم والدي؟ ألا يمكن أن يصبح أوزتورك هذا أوزتورك سيرينكيل[1]؟ أيعقل أن يكون أوزتورك سيرينكيل حلماً يورَّث من الأب إلى الابن؟ جرثومة خيالية؟ وإذا حاول الابن أن يفعل أغلب ما ورثه من والده فكيف ستكون حالته؟ ليست غايتي إيجاد إجابات لهذه الأسئلة، فقط أردتكم أن تعرفوا؛ اعرفوا أن ليس كل شيء طبيعي كما هو في الواقع.

اجتمعنا أنا وأوزتورك ككل مرة على نية المقدمة في الربوة المطلة على البادية. للنظر إلى البادية والتحاور قليلاً. فعلنا هذا كثيراً. ولكن لم نشرب الشاي قطّ. لم نجد الحاجة إذن. البادية حارة جداً من أجل الشاي يا سيدي. هل قلتم شاياً مثلجاً؟ كيلا تشوشوا عند قراءة هذه الأسطر التي تدور حول الحوار الجميل

(١) أوزتورك سيرينغيل: ممثل كوميدي تركي. وهو معروف في الغالب كأحد الممثلين الكوميديين المشهورين في الأفلام التركية. [المترجم].

بيني وبين أوزتورك، تبين بعض النقاط لي ضرورة توضيحها بكامل وجودها. حالياً أقاومها وتعرفونني جيداً، على الأقل أعتقد أنكم ستتفهمونني. أم إني أتمرغ في مستنقع الموضوعية فقط؟ الله أعلم.

إن القصد من الحوار الذي نجريه مع أوزتورك هذا إنقاذ العالم. ربما القصد الظاهر. كي تحصل دراما ونعيش مشاعر مختلفة ونحييها لآخرين. لأن الطريق المنقطع النظير لإبقاء مشاعرنا حية هو الحركة. عندما يعطي التوازن قوة دماغية تجعل الإنسان يفقد الإحساس. *(المصدر: موسوعة المعلومات التجارية ورهاب الخلاء للحياة العصرية.)*

كنا نجلس أنا وأوزتورك ذلك اليوم مقابل البادية، نتحضر دون عجلة من أمرنا لتدريب وتطوير أسئلة "لماذا ننقذ العالم اليوم؟"

قال أوزتورك: «آكل الماضي، يجب علينا إيقافهم». قلت: «كم أنتم دفاعيون اليوم».

«إن طبيعتي تتطلب ذلك؛ ليست حالة خاصة باليوم. ربما تتمكنون اليوم من أن تصبحوا مركزين على شخص آخر؟»

«ممكن. أفضل شيئاً كهذا. إن المواضيع خاصة بالأناس الضحلة».

«أن تصبحوا مركزين على الشخص لا يعطيكم الأحقية في أن تكونوا نمطيين في الوقت نفسه. أردت تنويهكم. الشاي؟»

«من فضلك، شكراً».

قال أوزتورك وهو يصب لي الشاي من أبريق بقطعة واحدة في فنجاني البورسلاني صيني الصنع كما في أفلام الأجانب: «آكل الماضي. إن لم تمانع أريد أن يكونوا مادة نضالنا اليوم».

أجبت إجابة بمكانها الصحيح قائلاً: «ذلك يتعلق بغرابة القضية». ولا سيما أن الشاي كان قد أحرق طرف شفتي. «اعرضوا ما لديكم إن شئتم».

«هل مقاييسكم حول الغرابة هو ما سيحدد مصير العالم؟»

«إن نور عيوني سيحدد مصيري».

«إن المسافة التي وضعتموها بينكم وبين الإنسانية تعرضني في كل مرة للاستغراب يا عزيزي».

«إن أردت أستطيع أن أضع الحجر في حفرته مقابل تعليقكم هذا، ولكن ما الضرورة لهذا في حين ليست السيدة دويغو الفاتنة بيننا؟»

«أشجبكم».

«لم أكن جدياً. أنا فقط أردت لفت الانتباه إلى مقارباتنا السيئة».

«إن أردتم لنتكلم عن السوء كيلا ننزع صفوة لساننا. ونكون بذلك لم نصلح ظلمات أرواحنا».

«إن عدم ذكر القضية كما عند ذكرها يمكن إسناده على الاهتمام الذي تشعر به اتجاهها. أعتقد أن النظر إلى المواقف في هذه النقطة لن يوصلنا إلى مكان. ففي النتيجة، لا يملك الإنسان في كثير من الأحيان البديل من المواقف. إن الموقف نفسه يمكن أن يجد رداً في مستويات مختلفة من النضج».

انتفض أوزتورك انتفاضة لا معنى لها، ولكنها من النوع الذي اعتدته: «لندع الاستياء! نحن رجال فعل!»

قلت: «للأسف إن هذا ليس صحيحاً. رغم ذلك تفضلوا وانسبوا حياتكم المتعلقة بآكلي الماضي. لنذهب ونجعلها فعلية».

قال أوزتورك: «سيبرد الشاي». شارباً كأسه. وكذلك أنا بالمقابل فعلت بنفس الطريقة.

لم نتكلم ثانيةً حتى انتهى الشاي. لم أقل لم نتمكن من الكلام، أردت أن ألفت انتباهكم البالغ. «أعرف لماذا تفكر هكذا!» لا أعلم من أين أتى هذا ملوحاً عصاه باتجاه السماء. من الواضح أن أوزتورك كان مؤيداً بكل تصميم للوقوف

عند جميع العناوين التي تجعلني أخلق جواً شبيهاً بـ"إنني أدخل إلى موضوع آكلي الماضي كرهاً". «لأننا لسنا رجال فعل. بسبب... تصوراتك المنحرفة تلك». قد ذهب أوزتورك ذلك وحل محله نجم سينمائي. كان يتكلم بطريقة مصارع غاضب. طبعاً كنت قد سمعته سابقاً يتكلم بطريقة المصارع الغاضب ولكن ليس معي أنا. كان يزأر هكذا على بعض العبيد أو على قيصر لا أعلم من منهما في مغامرة أخرى أنقذنا فيها العالم من الرومان. (من المغامرة بعنوان: "*مشاكل مهنية*"). ولكن لماذا يتباهى علي؟ هل أضربه الآن؟ تركته يستمر. وقال الآن مثل قيصر: «*الأعداء بحجم البحر/ أين سفينتنا نحن؟*» كان يعاني من تشتت الشخصية. نوع من الهذيان. «كم من الأعداء هزمناهم أنا وأنت، كم من النساء أحببنا» دويغو فرتنا؟ «ولكن أنت الآن تتجاهل الأشياء جميعاً في سبيل كذبة! تدعي أننا لم نعش تلك الأيام أبداً، و أني أنا لست موجوداً حتى، وأن كل ذلك من تصوراتك! من أين خطر ببالك ذلك؟» إن هذه النهاية بهذا الشكل لم تلق بذلك المدخل العظيم. كان أوزتورك أوزتوركاً.

«لنترك هذا يا عزيزي أوزتورك. كنت قد حدثتك بهذا في لحظة ضعفي». قلت ذلك قبل أن أفتح قوسين للتذكير من أجل الذين فوتوا الحلقات السابقة (دافع بطل حكايتنا لأوزتورك صديقه العزيز في السلاح عن فكرة أن العالم الذي يعيشونه ليس موجوداً في الحقيقة، وأن أوزتورك بالذات موجود في هذا العالم غير الموجود، مبيناً أنه كان طفلاً من الطبقة الوسطى قد نال نصيبه من فساد شخصية حب الذات لكل شيء في العالم الحقيقي والتي كانت عبارة عن سلسلة من التصورات التي حلم بها تحت الأريكة، وأن أوزتورك قد عارضه بغضب، وأن البروفيسور الذي يسيطر على عقول الناس بوساطة إكسير طُوّر في المغامرة الخاصة بهذه القضية قد عرض بطل الحكاية لهذا الإكسير. وبعدها ينال البروفيسور العقاب الذي يستحقه، ولم تنته النقاشات بين البطل الرئيسي والبطل الثانوي. "من المغامرة بعنوان: امتحان التفاحة الخضراء مع الوعي".) أغلق

الاقتباس وأشار لي المخرج أن أستمر. «ما كان علي أن أفعلها. لا أحد يريد أن يصدق فكرة أنها كانت كذبة. ولكنها كذلك. الجميع كان كذبة». علي الاعتراف أني ولمدة نانو من الثانية - ليس أكثر من ذلك أبداً- فكرت هل يمكن أن ألفظ الجملة المضافة الأخيرة بالشكل "الجميع عبارة عن كذبة كبيرة". فضلت أن أكون إلى جانب القوة المتوازنة، وليس البريق الزائل للسينما الأميركية.

«وكيف تفسرون خلاصنا بخير وسلامة من عشرات المغامرات؟»

كان ينتظر إجابةً بجدية! «حسناً، كيف تفسر أنت سؤالك لي، هذا السؤال الذي يدعم اعتقادي وعدم سؤالي أنا لك؟»

فتح أوزتورك عيناه جيداً ونظر إلي لمدة. أعتقد أنه كان يفكر بنفس اللحظة. خرج من فمه نفس على الشكل "تآه". «تآه! ربما شيء تخاطري». كان مع أن يقص ويحذف.

قلت: «نعم، نعم». وكنت أشير بيدي إشارةً ليتجاوز هذا. ولكن قمت بعدها بمناورة تصحيحية مفاجئة ملاحظاً أن حالتي المهملة ستزيد من ورم الوريد الادعائي لديه. «وأنا أيضاً فكرت بهذا. وللأسف توجد إمكانية كهذه».

إن موقف الرضا بالتعادل واحد مقابل واحد الذي قدمته له لم يكن مقنعاً بالنسبة لأوزتورك. «إذن هل أستطيع أن أسألكم لماذا تقضون متعة حياتكم في هذا العالم الكاذب؟ هل لتشبعوا غطرستكم المهوسة؟»

قلت متقبلاً: «يوجد شيء كهذا طبعاً». وأضفت بعدها فوراً: «ولكن حقيقة الأمر يا عزيزي أوزتورك أني أشعر بنفسي هنا أني أكثر ذكاءً وليس أكثر سعادةً وأكثر أماناً فقط». ثم استدرت مثل "كارتال تيبيت"[1] في فيلم "يوم في السنة". وكأني كنت أنا عبدكم وليس الممثل الشهير كارتال تيبيت الذي يقول إنه هرب من اليمن، وعاد إلى محبوبته لا أدري بعد كم عام من حياة مخيفة في السجن،

---

(١) كارتال تيبيت: هو ممثل ومخرج أفلام تركي. اشتهر بأدواره في عمل المسلسلات. [المترجم].

وعلم في اليوم الذي عاد فيه أنه سيتم تزويج محبوبته من شخص آخر بحجة أنه مات، ولكنها تعود وتركض إليه في وسط مناسبة عقد القران بعد أن خبرت بقدومه، ولكن يضطر للتصرف وكأنه تسكع في بلاد أخرى بإرادته وليس لأنه كان مرغماً بتوصيات من والد الفتاة قبل دقيقة واحدة فقط، ويشتري قطعة أرض لهذه المحبوبة البشوشة في أرزروم، وأنه تزوج وأنجب طفلين، وأصبح سعيداً. أجريت الدور مثله تماماً بملامح حزن سيشاهدها الملايين وليس مخاطبي فقط. قلت وأنا أسحب مخاطي: «قضيت طفولة بائسة يا أوزتورك. لم أكن أستطيع تشكيل جملة معطوفة. لا أستطيع لأني كنت أخاف. كانت لدي مسؤوليات. في حين كان الذين بجيلي يتفاهمون جيداً مع لغة تركية رديئة، يجمعون الجمل مدمرين كل قواعد النحو تلك، يجهلون مصطلحات المدخل والتطور والنتيجة، يكتبون المواضيع بمقاطع مقسمة بشكل عشوائي، كنت... كنت أخون نفسي، وأبقى صادقاً لعناصر الجملة. مرت حياتي بشكل جمل صحيحة. طبعاً لا بد لي أن أكون ارتكبت بعض الأخطاء دون علم. لو علمت... (بسبب حركة رأسي العنيفة هنا تسقط غرتي الملمعة على ناصيتي، ومن المحتمل أني كنت أحكم قبضتي بقوة.) لو علمت لقتلت المعنى وأنقذت الجملة. ولكن انظر إلى حالتي الآن. تبقى الكلمات قليلة، وقواعد اللغة مغتصبة! أشكل جملاً سخيفةً جداً. والسعادة التي أشعر بها تعطيني شعور القلق الممزوج بالعار».

وضع أوزتورك يده على كتفي بصدق متسلقاً في الوقت نفسه بعجزه في المغزى إلى القمة قائلاً: «إن هذا ليس بشيء يدعو للخجل. أنت فقط فعلت ما توجب فعله».

اعترضت وضربت نفسي صارخاً: «لا! لا! ما كان علي أن أفعلها، ما كان علي أن أقضي على تلك المعاني».

«لم تقض عليها». قالها أوزتورك هذه المرة مبشراً بحماس مثل عجوز طيب عاش في أيام تأسيس الإسلام. «تحمل المفردات معاني أبعد من قيم الكلمات».

«هل تقول الحقيقة يا عجوز؟» كنت في البادية مرة أخرى - ولكنها كانت هذه المرة أستوديو فيلم - وكنت أهز العجوز الذي أخبرني أن حبيبتي لم تمت طالباً منه أن يعيد قول هذا مراراً وتكراراً. «أي إنني بريء أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ شكراً لك يا ربي».

«لست بريئاً فحسب، بل مغفلاً بعض الشيء أيضاً». هذه المزحة السيئة، هذه المودة المزيفة... يحاول أوزتورك أن يردني إلى نفسي أو أن يرد نفسي إلي. يجب أن يكون هناك سبب لهذا. خفت وتزملت بنفسي. قدم أوزتورك عريضة فوراً قائلاً: «ليس لدينا كثير من الوقت. يمكن لآكلي الماضي أن يقرعوا بابنا بأي لحظة».

قلت: «نعم بالطبع. أساساً أنا كنت أريد أن نصل بالحديث إلى هذا الموضوع».

«لم تكونوا تظهرون ذلك».

عندما بدأت بالقول: «لدي التدريب الخاص في هذا الموضوع،» أسكتني أوزتورك رافعاً يده بردة فعل لا إرادية متقدمة خوفاً من أن أتشتت مجدداً. نظفت حلقي. «قل يا صديقي في السلاح أوزتورك، ما قصة آكلي الماضي هؤلاء؟»

بدأ بالتوضيح قائلاً: «يأتون من الماضي». ثم أردف قائلاً: «ويأكلون».

أعترف بالقول: «لم أفكر بهذه الطريقة. اعتقدت أنهم شيء ما مختلف آخر. وما أدراني أنا؟ مثل مستهلكي الذواكر القادمين من الفضاء. وفي النهاية لا تبقى أي ذكرى للشخص، ويعيش كل لحظة من حياته مثل كأنه حديث الولادة، وما شابه ذلك...»

انتفض أوزتورك بغضب قائلاً: «ولكن ليس كذلك. إذا تركت جانباً هواجسي أن كل شيء عبارة عن تصوراتك، يمكنني أن أحكي المزيد».

«إن الذهول يفرحني في الحقيقة. تفضلوا، أكملوا من فضلكم».

«يظهرون ويأتون من نقطة محددة من ذاكرتك ويعاقبونك. بشكل فظيع جداً. عادةً بالقتل».

«من أي نقطة من الذاكرة ومن؟»

«أي ذكرى كانت. يهجمون في لحظة غير متوقعة ويقتلون ثم يرحلون».

يا ترى هل سؤالي أنهم إلى أين يذهبون سيكون غير مناسب؟ إنني أتذكر هنا تلك النصيحة التي تقدر بالذهب (إن كنت متردداً فلا تفعل!) لسائقينا، والتي لن يعرفوا قيمتها أبداً، ثم أسكت. ولكن من يدري من أي متاهة وتعقيد في عقلي الشائك سيتسرب هذا النائي ويعكس نفسه بمقولة كالتالي: "التاريخ عبارة عن تردد".

يقول أوزتورك: «إنه هاجس في مكانه. إن حادثةً في تاريخ الضحية تكرر نفسها باستمرار، وتجعله الفاعل في هذه الجملة!»

«هل يمكنكم أن توضحوا الحقيقة بمثال رجاءً؟»

«لم يتمكن أحد من توضيح الحقيقة بمثال؛ بما فيهم ديفيد هيوم[1]. ولكن بإمكاني أن أوضح هذه القضية بمثال حقيقي». في النقطة التي عرفت أنه لن يكمل دون أن أقوم بحركة تدل على إظهاري الرضاء، وضحت بملامح وإيماءات محددة أن هذا معقول وكافٍ مبرزاً أقل ما يمكن نقاط ضعفي. وهو بدوره مشكور أكمل حديثه. «إن صديقتنا المقربة دويغو فرتنا، التي تقلدت السيف معنا في عدة مغامرات، والتي حاولت أن تحصل على مكانة خاصة بها بين أبطال مختلفين بشخصيتها الفظة. قد سقطت في شباك آكل الماضي».

نظرت بقرف إلى أوزتورك الذي أظهر دويغو فرتنا بشخصيتها الفظة وليس بجمالها وحدة ذكائها. ليس لأنه ليس رجلاً بما يكفي، بل لأنه فضل تجاهل

(١) ديفيد هيوم: فيلسوف واقتصادي ومؤرخ إسكتلندي، وشخصية مهمة في الفلسفة الغربية وتاريخ التنوير الإسكتلندي. [المترجم].

حقيقة أننا نحن الاثنان كنا نعشق هذه المرأة وتجاهل خصوبة هذه الحقيقة المؤلمة منعطفاً إلى طرق ملتوية. رجحت أن أصرخ بدهشة قائلاً: «ماذا؟» كحل مناسب للوضع بدلاً من أن أنقل له أفكاري هذه.

قال أوزتورك شيئاً مثل: «هذه هي الحقيقة». رغم أن الإجابة التي كان عليه أن يجيبها: «هذا صحيح». من يدري ما المكر الذي يدور في عقله، والجدل الذي يجريه مع الأرواح. «ولكن لدي خبر جيد: إن آكل الماضي المسلط على دويغو فرتنا، هو ملك آكلي الماضي وأكثرهم قوة».

قلت بنصف ابتسامة مزيفة: «هل يمكنني أن أحصل على السبب الذي يجعل هذه البشرى تدفعنا إلى فرج كبير كهذا؟»

بدأ أوزتورك بالتوضيح قائلاً: «بدايةً أُصبت بصدمة بخبر أن عدد من آكلي الماضي هاجموا بعضهم، ولقوا حتفهم في أحداث الشغب التي وقعت». على أن يعود بالخير بإذن الله. «كنت في مقامي. كنت أفكر. لماذا يمكن أن يكونوا هؤلاء قد أقدموا على فعل هذا؟» كنت أتناول هذه القضية ملاطفاً أهداب بزتي الرسمية. ثم أضيف إلى هذا بعض المعطيات الإحصائية وما شابه ذلك. هل كانت الجنرالية قد أكسبت أوزتورك حالةً مخنثةً، أم يتراءى لي ذلك؟ «حينها كشفت سرها! إذا قتلنا ملكهم يمكن أن نهزم آكلي الماضي».

حككت حنكي بريبة وقلصت نظراتي (كان حنكي يحكني فعلاً). «هل أنتم واثقون أنهم يتبعون لذلك النوع؟ إضافةً إلى أنكم كيف أسستم التواصل بين المعطيات؟»

قال أوزتورك، لعنه الله، رافعاً يديه إلى الهواء: «لا تفهمون شيئاً أبداً!» ثم انحنى نحو أذني وكأنه سيقول لي سراً. وبالفعل قال: «إن آكلي الماضي لهم هوائيات. هوائيات تستشعر الذكريات السيئة. لا يقومون باختيار واعٍ، إنهم يهاجمون أسوأ ذكرى في محيطهم بشكل غرائزي. ألا تفهمون بعد؟»

تخلصت من هذا السؤال وبلاغته بإجابة سياسية قائلاً: «إنك تقول عنهم إنهم نوع من العميان».

قال ضاحكاً: «إن ذلك النوع من آكلي الماضي في الحقيقة يهاجمون فقط أقوى ألماً في المحيط. هذا هو سبب أنهم يأكلون رؤوس بعضهم. وبرأيي أن أسوأ شيء يمكن التفكير به بالنسبة لآكل الماضي هو موت ملكه، وبطبيعة الحال إنه ذكرى». حانياً رأسه خمساً وثلاثين درجة نحو اليمين وهازاً إصبعه بطريقة خنزيرية.

نفذت المناورة التي تسمى في الأدب بالجدل الحامي كيلا يؤكد صديقي على حماقتي مرة أخرى: «يبدو أني أحمق للغاية؛ إذ إن هذا لا يعني لي شيئاً أبداً».

رد أوزتورك على تكتيكي هذا بحملة سحق متفهمة. «أفهم. دعني أوضح: علمت أنه إذا كان موت ملك آكلي الماضي ذكرى مرعبة إلى هذه الدرجة، فلن ترفض هوائيات آكلي الماضي فريسة جذابة كهذه. سيتسلطون على بعضهم بعضاً، وسيقتلون جميعهم ويندثرون».

بدأت أبالغ جداً دون تفكير بالقول: «هل قرأت هذا في كتاب ما أم إنه فكرتك؟»

«بالنسبة لحساباتي، لا يستطيع أي إنسان على الإطلاق أن يعطي إشارة ذكرى مؤلمة أكثر من آكل ماض قد مات ملكه ضمن مساحة أربعين ألف كيلو متر. دعني أقدم مثالاً: لنفكر بآكل ماض يمر من أمام أنف وآرثر الشاب، إن كان هناك آكل ماضي آخر قد مات ملكه على بعد أربعين ألف كيلو متر، فلن يعير الوحش وآرثر الشاب أي اهتمام، وسيقوم بمهاجمة ابن جنسه».

طرحت تمردي قائلاً: «لا يمكن تصديق هذا!»

«يوجد ألم في العالم أقل مما تعتقد».

قلت: «أو يوجد أناس أقل». وقد شعرت بأن هذا منطقي. ثم سألت بداعي السخرية: «وماذا إن كانت هناك مسافة أكبر من أربعين ألف كيلومتر بين اثنين من آكلي الماضي لا على التعيين؟»

لقنني صديقي ومنافسي الكبير درساً بالقول: «إن الاستخبارات التي حصلنا عليها تبين أن هذا مستحيل».

سألت راضياً بنصيبي: «وماذا يشبه آكل الماضي، وأين يعيش، وماذا يأكل، وماذا يشرب، وكيف يمكن قتله؟»

قال أوزتورك: «إنهم في الأساس نفايات كهرومغناطيسية». أعرف أنه يعير اهتماماً خاصاً لهذه القضايا الكهربائية، ولكنني لم أدخل في هذه القضية. «إلا أنهم عندما يدخلون دماغ الضحية، يأخذون حالة عضوية بتحول كهروكيميائي ويستقرون في "الجسم الجاسئ في الدماغ"».

قلت: «أي في العصب الصغير الذي يجمع نصفي الدماغ». وضحت ذلك لمشاهديّ الضعيفين في علم التشريح وعيوني تقدح شرارةً.

«نعم، ينتظرك وحش في تلك النقطة».

ألم يكن هناك غرابة في هذه الجملة؟ ألم تكن هناك ازدواجية لدى أوزتورك؟ «لماذا ينتظرني أنا فقط يا صديقي؟ هل لديكم عمل أهم كي تقوموا بتركي وحيداً في هذا اللقاء؟ رغم أنه لا يحكى بمثل هذه المواضيع بين الأبطال ولكن أعزو ذلك لفضولي».

اتخذ أوزتورك موقف المتحسر على نفسه أو على قدره قائلاً: «للأسف أنت وحيد في هذه المغامرة. لأن هناك طريقاً واحداً فقط للوصول إلى آكل الماضي و...»

قاطعته قائلاً: «حقاً يوجد هذا أيضاً. كيف سنجد غائط الماضي هذا؟»

«من خلال المصغر الخارق الذي حصلنا عليه من عدونا الأزلي فانزاكير (من المغامرة بعنوان الوعي الجياش). إذ تذكرون بينما كنت أعمل جاهداً على دليل عمل المصغر الخارق، كنتم أنتم قد اتخذتم مواقف ساخرةً مني وفي النتيجة اليوم، في حين أستطيع أنا تشغيل الآلة بمهارة، لن تتمكنوا أنتم من شيء سوى الحصول على الوضعية التجريبية فقط».

أصررت بالقول: «تقصدون أنني لن أفهم إن شرحتم؟»

أجاب أوزتورك دون أن يغضب لا أعرف لماذا بالضبط وقال: «بالطبع لا. أي خطأ صغير يمكن أن ينتهي بكارثة. كما أنه هل تعتقدون أنه بالأمر السهل بالنسبة إليّ...»

أراد القول "إرسال أكبر المنافسين إلى دماغ المرأة التي أحبها"، لكنه لم يستطع ذلك. احترمت ألمه. ربطت الموضوع قائلاً: «إذن بقيت نقطة واحدة يجب توضيحها. أفظع ذكرى لدى السيدة دويغو. واثق أنكم تعرفون ذلك أيضاً».

هز أوزتورك رأسه بمعنى لا. قبلت هذه الإجابة. وفي تلك اللحظة كنا في مخبر أوزتورك. كان ينتظر تعبئة ذواكر الشواهد بالأقسام البينية الراوية. كانت أقسام غير مهمة. كان أوزتورك يرتدي كالمخبريين، أما أنا فبشكل لا يمكن أن أصفه الآن. كانت السيدة دويغو فوق سرير نقال معلق على الحائط تتأرجح بشكل كان يمكن أن أقول عنه إنه مثير لولا معرفتي بأنها تقع تحت احتلال آكلي الماضي. قاطع صوت أوزتورك أحلامي الشهوانية. كان توضيحي في تلك اللحظة. أما أنه كدرس قادر على الإقناع، فلا أعتقد، لم يكن كذلك. «سأضربكم بهذه الإبرة في جسم السيدة دويغو»، كان عارضاً أيضاً رغم أن الإبرة لم تكن مخيفة، «سأزج بكم تحت اللسان حتى تتمكنوا من دخول الدماغ قبل وقوفكم عند دم حاجز الدماغ».

سألته رغم معرفتي الجيدة بأنه لم يكن سؤالاً طموحاً حول إمكانيته في تحديد مصيري: «ما هو دم حاجز الدماغ؟»

«إن الجسم ذكي جداً يا صديقي. لا يحبذ ذهاب أشياء كثيرة إلى الدماغ في ذلك المكان. ولذلك تم حبسه ضمن جمجمة متينة. وكذلك خلف ما يشبه سد الصين العظيم لإيقاف المخاطر التي ستأتي من الجسم. سأعطيكم تذكرة».

صرخت قائلاً: «تحت لسان العرقوب!»

«إن كانت توقعاتي صحيحة، بعد اجتيازكم الهيبوتالاموس بعشر أو خمس عشرة ثانية ستصلون إلى أسفل بروكا[1]. فاسألوا هناك من أردتم عن الجسم الجاسئ في الدماغ سيرشدكم إليه. حتى يمكنني أن أعدكم بوصف تفصيلي. لأن ذلك المكان هو المجال الذي يمكن الدماغ من إدارة الكلام فيه».

«لنفترض أني وجدت هذا الملك لعنه الله. ماذا سأفعل؟ كيف سأقاتله وفي عقبه سأحوله إلى صورة في لائحة أعدائنا المغلوبين؟»

قال أوزتورك: «لا أعرف ذلك؟ ولكن نعتقد أن عدم معرفتكم لهذا سيكون من مصلحتكم».

اللعنة، من أنتم؟ «السبب؟»

«البراءة دائماً هي ميزة». هكذا كانت إجابة أوزتورك العبقرية ضمن نطاقه. «يسر الله طريقك. اقتل الملك وتعال».

كان علي حينئذ أن أقول مقولة تدخل التاريخ: «لا تعرفون أبداً ماذا يوجد في علبة الملك».

وفي عقب ذلك يمكنكم أن تتصوروني، أفضّل بالأسود والأبيض، بحالة بلادة ضمن حقنة مليئة بسائل غريب مكتظ. لم أكن بحاجة إلى لباس خاص لأني تلقيت سابقاً درس الاستفادة من الأوكسجين السائل (من المغامرة بعنوان: هل المشاعر هي أفكار بلا ركائز فقط؟) وكنت سأقابل ما يكفي من جزيئات الأوكسجين في دماغ السيدة دويغو. مر كل شيء على ما يرام تقريباً. رأيت شخصياً في المكان المناسب أنه إذا أنشأنا دماغاً ضخماً ودخلناه ونظرنا بداخله، فكل ما سنراه بعض العمليات الميكروكيميائية فقط، ولن نفهم أبداً ما يتم التفكير به والإحساس به.

(١) أو باحة بروكا: وهي منطقة في الدماغ مرتبطة بإنتاج الكلام. [المترجم].

سأطلب في هذه النقطة من متابعينا الذين ما زالوا معنا أن يتخيلوا جسراً صغيراً. يميناً وشمالاً نصفي الكرتين الدماغيتين وكل مكان تحت تأثير ضوء أحمر مخيف. إنه نوع من تصوير واقعي لجهنم. إن الجسم الجاسئ في الدماغ يمثل جسر الصراط المستقيم الأدق من الشعرة والأكثر حدة من السيف الذي يجب اجتيازه للوصول إلى الجنة، وأسفله بلا شك جهنم. بحسب قواعد التتبع البصري لإنسان يتجه وجهه نحوكم، سأكون أنا الآتي من نصف الكرة الدماغية اليسرى له، أطلب الانتقال إلى نصف الكرة الدماغية اليمنى لاعتقادي أنه في الطرف الآخر توجد الجنة. عند النظر إلى الواقع، إن الجنة المراد الانتقال إليها ليست في الطرف الأيمن. في اللحظة التي ستوضع القدم هناك سيتحول الكون بأسره بما فيه كامل الدماغ الموجودين نحن فيه إلى جنة. مشكلتي هي؛ أنه لا يجوز البحث عن أي شعار سياسي في الإعداد للانتقال من اليسار إلى اليمين. لا يجوز النسيان أن الرب أيضاً يجب أن يبدأ من مكان ما. عنصر إضافي: إنه لأمر عجيب أن الجسر المراد اجتيازه موجود في دماغ المحبوبة، وينتظرني فوق الجسر ملك آكل ماض لا يريد أن يردعني عن غايتي فحسب، بل يريد إرسالي إلى جهنم في الوقت نفسه. إن فن الترميز قد تعرض لانشطار في هذه النقطة. إن هيئة الملك آكل الماضي مخيفة بقدر حشرة بشكل وسطي. إضافةً إلى وجود عباءة وتاج عليه وفي يده شوكة بثلاث أسنان بدلاً من الصولجان. كما يوجد وسط جبينه أثر جرح قديم. كانت الشوكة التي في يده كبيرة للغاية. في البداية لا يهتم بي الملك لأنه كان يظنني جرثومة عادية ضالة طريقها. ولكنني لم أستطع من خلال وجودي إثبات ادعائي، فحاولت إثباتها بلساني محاولاً خلق بعض الإدراكات: «جئت لأقتلك أيها الملك!»

يحل ظلام على عيون الملك ولكنني أفهم أن هذا ليس بسبب الخوف. كان صوته ناعماً ومؤثراً: «أهلاً بك يا بني».

«قل لي أيها الملك، هل لديك اسم؟ أحب أن أعرف اسم عدوي».

«يدعونني بلغة آكلي الماضي كاستراتوس Castratus الذي يأتي بمعنى الكابوس الأكثر حلكة يا بني، ولكن قل لي لماذا نحن أعداء؟»

«ما كان عليك الاقتراب من حبيبتي!»

كم كنت غراً وقد تحولت تلك الحشرة إلى أسد يقف أمامي. أسد بعيون عمرها ألف عام. «لا يوجد حب دون أجر».

«هل تريد القول إن السيدة دويغو أغرتك بها؟»

قال دون قصد تحقير أبداً: «هذه كلماتك ومثلك أيضاً».

صرخت قائلاً: «إنك تحمل في طيات شخصيتك شيئاً من أورسون ويلز». سأل: «كيف تجرأت للمجيء إلي بكل هذا الألم؟» أين ذهبت تلك الحكمة، الله أعلم. ربما تقييمي له على أنه تقليد لأورسون ويلز[1]، إذ إن في ذلك صحة كبيرة على الأرجح، أدى إلى تألم كاستراتوس، والذاكرة البديهية لهذا الألم أدى إلى تأذي مستوى النضج لديه. ربما هذه النقطة قد فاتت أوزتورك. وربما إذا كانت أكبر ذكرى مؤلمة يستوعبها تعود له، يمكن أن يتحول آكل الماضي إلى هدف نفسه.

قدح البرق في عيوني بما يتلاءم مع الأدب، واتضح في عقلي في تلك اللحظة محلول الخلاص : إن أردت الانتقال من هناك إلى اليمين، فعليّ أن أجري تحليلاً نفسياً للوحش!

كانت خطتي بسيطة: بدايةً كنت سأجعل آكل الماضي يجري تمارين المفاهيم الحرة، وبذلك سأعرف من خلال المواضيع التي يكررها باستمرار، إلى أي حقبة جنس نفسي تعود هواجسه، وسأذهب إلى هناك بالتقنيات المناسبة، وسأجد الألم وأُخرجه، وسأجعل الوحش يتواجه مع هذا، وسأريه أن الذكريات السيئة التي

---

(١) جورج أورسون ويلز: المعروف بأورسن ويلز. كان مخرج أفلام ومؤلفًا وممثلًا ومنتجًا أمريكيّاً. عمل في مجال السينما والمسرح والتلفزيون والمذياع. [المترجم].

بقيت في الماضي كم هي عديمة المعنى في الحقيقة وسأجعله يعيش عملية تطهير ليجد العلاج الشافي. بالطبع يجب أن يدفع مقابل صحته النفسية من إتلاف جسده كما نفعل جميعنا.

بدأت التداعي الحر بحزن بقولي: «أرجوحة».

بدأ الحديث بقوله: «أمي». هل كان سيجيب عن جلسة العلاج أم ماذا؟ «لم تحبني قط».

«وأنت؟ هل كنت تحبها؟»

قال بسكينة: «كنت أحبها كثيراً. ولكن كنت أخجل منها في الوقت نفسه. لم أحب الظهور معها إلى وسط الناس». أكدت برأسي وحفزته على المتابعة. وإلا كان سيأكلني. لحسن الحظ أنه كان يريد التحدث. «لماذا فعلت شيئاً كهذا؟ كنت أعتقد أنها لا تستحق حبي، ولكن أعرف الآن أني لا أستحق حبها».

رأيت الضرورة في سؤاله: «هل شربت قليلاً؟»

أجاب بصوت بارد: «كلا».

خفت أن ينحاز عقله باتجاهي. «إن شئت يمكنني أن أطلب لك الويسكي؟»

قال: «شكراً لك، أشرب فقط من دماء ضحيتي أثناء الوظيفة». ما كان يجب أن أستخف بآكل الماضي هذا. كان قد صدمني وكنت أتمالك نفسي بصعوبة كيلا أحدثه عن أكبر آلامي فوراً. أنزل كاستراتوس ضربته قائلاً: «طاولة».

أنيت قائلاً: «قارورة. قارورة مشروبات» ما هذا! قد أخضعني الملك كاستراتوس لجلسة تداعي حر جهراً. أيها السافل! إذن هو أيضاً كان يجري تحليلاً نفسياً علي. فهمت حينئذ: أن هذا هو سلاحه. يخرج أكبر آلام ضحاياه عن طريق إجراء تحليل نفسي، ويبدأ وليمته بامتصاص البصلة السيسائية. كان هذا نوع من المبارزة. من يجري تحليلاً نفسياً بشكل أسرع سيربح. قلت له بمحاولة أخيرة: «حدثني عن والدك».

«والدي...» كان يحاول ألّا يتكلم ولكنه لم يكن يحتمل. «يستطيع أن يقتل والدك!»

كاستراتوس الخائن، ما كان عليه أن يدخل إلى اللاوعي لديه بهذه السهولة. ضغطت عليه قائلاً: «هل كان والدك يضربك كثيراً؟»

«كان والدي يضرب الجميع. فهو ملك».

لم يغب عني التبختر عندما كان يقول ذلك. كنت أعرف أننا نلاطف تصدعاتنا العقلية بالأحاسيس. سألته: «وأمك؟ هل كان يضرب أمك أيضاً؟»

وإذ به يقول: «كان يلاطف بين الحين والآخر تلك العاهرة».

قلت بلا رحمة: «وأنت أيها الأمير الصغير؟ ماذا كنت تفعل حين كان الملك يضرب أمك؟»

شن كاستراتوس هجوماً معاكساً بفولاذية غير متوقعة في صدره: «أشعر به، لديك غضب كبير...»

خففت من حدة الهجوم في صدري قائلاً: «أكره الناس». على الأقل كان بإمكاني أن أكسب القليل من الوقت.

أطلق الأسد الملك ضحكة مبتكرة. «هل تظن أني سأصدق سخافتك هذه؟ إن الناس ليسوا بشأنك! حتى الأنبياء أيضاً...»

قلت بقوة أخيرة: «لا، لا، أنت مخطئ... ولا سيما أكره الأنبياء». كنت أشعر بنفسي أني على وشك الانهيار.

خلق أمامي آكل الماضي المصارع كاستراتوس الملك قائلاً: «لا يا بني». كانت شوكته بيده. رأيته يرفع شوكته شيئاً فشيئاً. «أنت تكره الرب، لأنه لم يجعلك نبياً».

قلت متقوقعاً كما الذي في بطن أمه: «أنا لا أؤمن بالرب».

سمعته يقول: «هذا ليس صحيحاً». لم تبق لدي القوة لرؤية أي شيء. «إن الرب لا يؤمن بك».

صرخت قائلاً: «إنه ليس ذنبك». بفضل هجمتي الأخيرة هذه تاهت الشوكة عن رقبتي، وغرزت في التراب ولكنها حبستني بين مسننين من مسنناتها. «على الأقل الكل للكل...» كنت أثق أن الفواصل المنقوطة تزيد من فرص بقائي على قيد الحياة بحسب النقاط.

تراجع كاستراتوس خطوة إلى الخلف قائلاً: «طبعاً ليس كذلك. ما كان بوسعي أن أفعل؟ أنا كنت مجرد أمير، أما هو فكان ملكاً عظيماً!»

قلت غير مكترث لحالتي: «القضية ليست كذلك يا كاستراتوس. إن تناولك للموضوع على أنه هرمية بسيطة دون أن تغش نفسك... وبذلك يمكنك أن تحمي نفسك مواجهته كرجل والمقارنة به».

انحنى كاستراتوس وكأنه تعرض للكمة على معدته. «أنت سافل!»

غررت بالأضواء التي تشتعل وتنطفئ أمام أعيني معتقداً أنها برائق النصر. انتزعت الشوكة التي أحاطت رقبتي من التراب. استقمت بصعوبة واتجهت نحو الجسم الجاسئ في الدماغ. وقفت وسط الجسر ولعقت شفاهي. كان يكفي أن أضربه ضربة أخيرة كي أقضي عليه باستمتاع. إلا أني لم أكن أستطيع فتح فمي. كانت الجمل التي تخطر ببالي تفقد معناها، وتتحول إلى رسوم بيانية غريبة. وكأني لم أكن أفكر بل أشاهد عرض ألعاب نارية. كان منظر كاستراتوس المتألم محزناً ومدهشاً بذات الوقت كما لو أنه لوحة. كان كل شيء في المكان الذي يجب أن يكون فيه. ولكن وكأنه كحلي أكثر من اللازم. قلت: «كل شيء يتحول إلى رسمة».

همهم كاستراتوس قائلاً: «ونحن أيضاً...»

انسلاخي حدث هنا تماماً. كنت أريد بكامل قوتي أن أتحول إلى رسمة أو كنت أعمل على ذلك لسبب ما. انقبض صدري إلى الداخل ولم أعد أستطيع التنفس. بدأت أصاب بمشاعر انكماش حتى الجنون. كنت ألقن نفسي من جهة أن إحساسي هذا ليس حقيقياً، ومن جهة أخرى كنت أحاول استذكار تقنيات

التنفس المهدئ. بلا جدوى. لم أكن أستطيع التماس أي شيء في ذاكرتي. أساساً كنت أذكر كل شيء، ولكن لم تجتمع ذكرياتي لتتكامل. كنت فاقداً للأحاسيس التي تخصني. أنيت قائلاً: «أرجوك، أرجوك قل لي شيئاً يخصني».

«سيكون موتك على يدي». لم يستجمع كاستراتوس قواه فحسب، بل استقام بشكل مهيب أكثر مما قبل. كانت شوكته في يده مجدداً. صار أمامي تماماً بخطوتين كبيرتين. انتظرت الموت مغلقاً عيني. كنت أعتقد أني أخبئ في روحي أمهر رسام في العالم عندما كان كاستراتوس يضربني على وجهي بمؤخرة الشوكة. انقطعت أرجلي عن الأرض، وسقطت نحو الفراغ. كنت سأتدحرج نحو جهنم لولم أتمسك بصعوبة بالجسم الجاسئ في الدماغ خاصة السيدة دويغو. بقيت لفترة هكذا وعيني مغلقة بإحكام. ولكن الحملة المميتة كانت تتأخر مع مرور الوقت. حينها فتحت عيني قليلاً ورفعت رأسي. لم يعد الظل الذي وقع علي لمصارع مخيف. إن الشخص الذي كان منحنياً باتجاهي وبوجهه ملامح التركيز على فكرة بعيدة كما العادة هي أمي. قد تجمد قلبي. انحنت أمي نحو أذني وكأنها ستهمس شيئاً. كما وهبتني الحياة في يوم من الأيام والآن ستهبني سر الحياة، كنت واثقاً، ومن ثم سترسلني إلى جهنم. اعتقدت أن هذا يستحق. إن نفسها الرطب لعق أذني.

إلا أني لن أعرف ذلك السر أبداً، لأنه قبل أن تتكلم أمي، سمعتُ زئير امرأة واثقة من نفسها وساخرة في الوقت نفسه. «كيف الحال يا كاستراتوس؟ هل ما زلت لا تستخدم وسادةً خوفاً من وجود مسطرة داخلك؟»

طار كاستراتوس، الذي تحول إلى حشرة مجدداً، إلى حفرة جهنم صارخاً صرخة مخيفة وقذرة وواضعاً كلتا يديه على قلبه. كنت قد نفذت. على الأقل لمدة من الزمن. سحبت نفسي إلى فوق الجسم الجاسئ في الدماغ بحركة رياضية، ورحت بأنظاري باتجاه تلافيف الدماغ لأعرف من هو منقذي.

لم يكن الشخص الجالس أمامي في مكان عال في الردهة اليسرى جاعلاً يديه وقدميه في الخارج وبسرواﻟﻬا الضيق الأحمر والصوت بيدها سوى دويغو فرتينا بحد ذاتها. قلت: «ولكن، كيف يمكن هذا؟»

قالت دويغو فرتينا بصوت مسيطر: «تعال إلى هنا». قدمت لها الطاعة وأنا أحمل مخاوف احتمالية أن أكون أواجه لعبة جديدة من ألاعيب الشيطان كاستراتوس. كنت أتوقع أن تضمني عند ذهابي إلى جانبها إلا أنها كانت تبدو غير مكترثة وباردة اتجاهي. «أعرف ما يخطر ببالك. سأقص لك كل شيء».

قلت: «نعم يا سيدة دويغو، أرجوك وضحي لي كيف استطعت الدخول إلى عقلك. ولا سيما بهذا اللباس».

«بدايةً دعنا نصحح خطأك التالي: أنا لست السيدة دويغو، أنا إينا ENA[1] الخاصة بالسيدة دويغو».

قالت ذلك بطريقة مقنعة للغاية. «غريب ولكن ليس لدي أدنى فكرة عن ما تعنيه الإينا».

قالت إينا السيدة دويغو غير مضيعة من جديتها: «"شيفرات الأنا". أي التركيبة الداخلية لخلية تحمل المورثات الذاتية نفسها لشخص ما».

قلت: «أمر مدهش، تابعي من فضلك». عند قولي لذلك كنت أفكر بأن ليت إينا السيدة دويغو لم تكن أطول مني بنصف متر. إن هذا العنصر كان يجرحني في الحياة الحقيقية، كما يؤمن لأوزتورك الأفضلية غير المستحقة متفوقاً عليّ للحصول على السيدة دويغو.

«إن إستراتيجية الهجوم لآكل الماضي قريبة جداً من إستراتيجية الفايروس. يقتحم داخل الخلية مباشرةً. يجد الإينا ويحول المورثات الذاتية المسجلة عليها إلى

---

(١) الإينا Ena: هي البنية الداخلية للخلية التي تحمل كافة شيفرات الأنا Ego للشخص Egonucleic acid. [المترجم].

مورثاته الذاتية. ثم إن الإينايات التي تحولت إلى إينا آكل الماضي تهاجم الخلايا الأخرى ثم يتفاقمون بسرعة مجزرة هندسية».

سألت بنبرة صوت تعكس ريبتي: «وأنت؟ كيف تخلصت من هذه المجزرة؟»

«أنا كنت الإينا الأخيرة». قالتها بفخر محدقةً بنار جهنم التي أرسلت عدوها إليه قبل قليل. «عندما فقدت دويغو فرتينا وعيها وسلمت نفسها بالكامل لأيدي كاستراتوس، عقدنا نحن الإينايات مجلساً كبيراً لنجد حلاً حول موضوع الدفاع وماهية إستراتيجية الهجوم المضاد التي يجب تبنيها. إلا أنه لم تصدر أية نتائج من المجلس. تحولت النقاشات مع التقدم بالوقت إلى صراعات وقررت جميع الإينايات أن يتدبرن أمرهن وحدهن. بالنهاية وقعنا جميعاً مهزومين لكاستراتوس. اكتشفت أنا، إذ إن ذلك لم يكن بنفس سرعتك، أن الطريق الوحيد لتدميره هو التحليل النفسي».

لم أتمالك نفسي لقول: «لا أقصد المفاخرة، ولكن عقلي يعمل بشكل جيد».

قالت إينا العاهرة: «أنا لا أعتقد ذلك».

صار وجهي أحمر اللون. فغيرت الموضوع فوراً بقولي: «ما هو معنى تلك الجملة التي دمرت كاستراتوس؟ "هل ما زلت لا تستخدم وسادةً خوفاً من وجود مسطرة داخلك"؟»

قالت الإينا الجذابة كمقدمة: «عندما يقوم آكل ماض بتحويل إينا، لا مفر من اضطراره لنقل كم هائل من المعطيات الخاصة به إليها. تملك الإينا إمكانية نقل هذه المعلومات لأخرى قبل أن تلقى حتفها. فقمت بتحليلي تحت ضوء المعطيات القيمة التي حصلت عليها من الإينايات الشهداء». ثم تابعت: «إن عقدة كاستراتوس الهستيرية تتعلق بكونه الشاهد الأول على التجربة الجنسية لأمه وأبيه. في إحدى الليالي يشعر كاستراتوس الصغير بالجوع. يخرج من غرفته ويتوجه نحو المطبخ بهدف تناول شيء ما. ويسمع أصواتاً غريبةً لدى مروره من

أمام غرفة أمه وأبيه. يراقبهم سراً، وبالنهاية يقتنع أن والده كان يحاول خنق أمه بوساطة وسادة. إضافةً إلى أنه كان يضرب المرأة المسكينة بمسطرة كبيرة بطريقة ظالمة. ولاحقاً مهما حاول إيجاد المسطرة لإتلافها لم يجدها. وكان لذلك تفسير وحيد: أخفى والده المسطرة ضمن الوسادة ومن هذا القبيل... سخافات على هذا النحو».

قلت: «ألم يمت، هذا هو المهم» لم أجر تعليقاً مطولاً على هذا التحليل. «والآن ماذا تفكرين أن تعملي؟»

«علي بأقصر وقت ممكن أن أجري حملة إينا في كل خلية».

«في كل خلية؟ يبدو أن عملك شاق».

قالت إينا الفارسة: «ليس إلى هذه الدرجة. إذا اعتقدنا أنها ستتضاعف أعدادنا بطريقة هندسية، يمكنني القول إن السيدة دويغو ستصبح خلال عدة أيام بحالة وعي أفضل مما سبق».

«هل من شيء يمكنني مساعدتك به...» لم أتمالك نفسي من الشعور ببعض الإحراج عند قولي لهذه الكلمات لأني فكرت أنني سأبقى مدى الحياة معها هنا. ربما سنتزوج ونصبح أصحاب بنين وبنات. لم ترني دويغو فرتينا أبداً على أني رجل، أما بالنسبة لهذه الإينا، فسأكون الرجل الوحيد الذي ستراه في حياتها.

«إن أفضل شيء يمكن أن تفعله هو أن تغادر المكان بأقصى وقت ممكن. عندما تبدأ السيدة دويغو باستجماع قواها ستلاحقك عشرات الآلاف من الكريات البيضاء لإتلافك. حتى أنا كنت على وشك أن أبيدك على أنك جرثومة معتقدةً أن هناك غريباً يقترب من الجسم الجاسئ في الدماغ؛ إلا أني عرفتك في آخر لحظة».

«حقاً، كيف عرفتني؟»

«لا تنس أن كل شيء تعرفه السيدة دويغو أعرفه أنا أيضاً. توقعت أنك استخدمت المصغر الخارق لفانزا غير عندما أتيت إلى هنا».

سألت محمراً وجهي وقد تذكرت حين كنت أقول عن السيدة دويغو إنها حبيبتي عندما كنت أتحدى كاستراتوس: «وهل تعرف هي ما تعرفينه أنت؟»

هزت رأسها إلى كلا الطرفين بمعنى لا. «لو حصل شيء كهذا لجنت».

إن سماع هذا قد أراحني قليلاً. «تفاهمت مع رفيقي في السلاح أوزتورك العزيز أن يجري محاولة إعادة إكسابي للعالم الخارجي عن طريق سحب أنبوبة دم من تحت لسان السيدة دويغو خلال ساعتين».

قالت انشطار شخصية دويغو فرتينا: «إذا استعجلنا قليلاً فيمكن أن نلحق بأول باص».

قلت أعض شفاهي: «توقفي لحظة. أريد أن أسألك سؤالاً. بالطبع يمكنك ألّا تجيبي... كنت آمل عند مجيئي إلى هنا أن أعرف أكبر ألم لدى السيدة دويغو. هل يمكنك أن تقوليه لي؟»

قالت إينا: «طبعاً. إنها جلبتك إلى هذا العالم».

كنت سأسألها عن أي عالم ولكنها أدارت ظهرها، وبدأت تتجه نحو الهيبوتالاموس بخطوات طويلة. رحت ألحق بها. لم نحك كثيراً خلال الطريق. رمينا نفسنا في تدفقات الدم المناسبة، ووصلنا إلى المنطقة الوردية بعض الشيء والمخيفة أكثر من اللازم حيث سأبدأ الرحلة. تفقدت إينا الجوار وثبتتني في الثقب الذي تدخل منه الإبرة التي ستحملني إلى هناك. بعد أن أمسكتني بيدي ووضعتني في فوهة معتقة من الدماء، قالت: «ستنتظر أنت هنا، أما أنا فعليّ أن أبتعد فوراً. إذا تسربت إلى الإبرة خطأً، هذا سيؤدي إلى نهاية السيدة دويغو. حظاً طيباً لك».

إن التفكير بالمعانقة ثم الافتراق كان ضرباً من الغباء. كنا أناس عوالم مختلفة. أنا تابع لعصر الذرة، أما هي فأصغر من الذرة. لوحت بيدي مودعاً تلك

الذرة في شيفرات الأنا التي كنت سأهبها حياتي. ردت سلامي بحركة غريبة بحنكها، ثم عادت نحو المياه الزهرية للدماغ. كان هذا آخر لقاء لي معها.

عندما رأيت الإبرة تسير نحو أعماق بنية حبيبتي ممزقةً جلدها المخملي، غصتُ في بركة الدم غوصاً حراً، وتسربت نحو الفولاذ بطريقة السباحة الضفدعية. لا أعرف كم من الوقت لزم ليقوم أوزتورك بالتقاطي وسحبي من بين زجاج المختبر وتحويلي إلى حالتي السابقة عن طريق وظيفة التكبير الخارق لجهاز التصغير الخارق. لا يستطيع لساني البطل الخارق القول إني كنت في غيبوبة، بل في شرود. عندما فتحت عيوني تقابلت مع وجهين صديقين مبتسمين. مع أوزتورك، كانت السيدة دويغو بحالة جيدة تنظر نحو حواجبي إن لم يكن نحو عيوني مباشرةً وتبتسم. هزني أوزتورك قائلاً: «نجحنا يا صديقي، نجحنا! أي إنك أنت نجحت».

أدرت ظهري لهما. «زملوني».

بدأا يتهامسان بعضهما لبعض. اعتقدت أنهما يتغازلان من خلال حالتي. بالطبع لم أكرهما قط؛ كما كان يقول صاحب الشارب الضخم: "طبيعي أن يكون الذي في الأعلى أكثر وحدةً." سمعتهما يتكلمان، قبل أن أغط بالنوم مباشرةً، عن المستقبل، عن مستقبلنا السعيد. إلا أن المستقبل بالنسبة إليّ كان مجرد ذكرى بعيدة فقط.

- ١٢ -

النسور تطير بكمومية

حينما استيقظت في اليوم التالي، كنت أشعر بنفسي مسكيناً كما قميص مقلم. إنها سياحتي المخدرة، نعم، قد أوصلتني إلى الإجابات التي أبحث عنها، إذ إن هذه الإجابات قد أكسبت روحي الطمأنينة. أساساً إن عودتي من ذلك البلد الغريب الذي كانت قد قدمته لي الحقيقة بخروجها من اللباس الذي التحفته طبقة تلو الطبقة، قد جعلني أتعس بكثير. من يدري، ربما أنتقل إلى هناك بشكل نهائي، وأكمل ما بقي من حياتي كلاجئ سعيد في نطاق العقل.

كانت قد مرت نصف ساعة على وضع أمي لقائمة النصائح اليومية على الطاولة وخروجها من المنزل. وكان عليّ أن أبدأ اليوم قبل أن أضيع المزيد من الوقت. ولكني كنت منغرزاً في التخت كالرصاصة. في حين أن هناك العشرات من القضايا الواجب حلها، كنت غاطاً في فكرة غريبة عن أن السعادة هي مجموع للتكرارات المعقولة، محاولاً نسج حلقة عيش مناسبة لي يمكن الاستمرار بها إلى الأبد. كنت بحاجة إلى نظام قاهر يمكنني من خلاله معرفة ما سأعيشه كل دقيقة بدقيقتها من الصباح حتى المساء. وبعدها لن يبقى بيني وبين عالم مملوء بالسعادة شيء باستثناء زيارات الجيران غير المتوقعة والاستمناء المزمن، التي بلا شك ستتضاءل وتتلاشى مع الزمن.

استطعت الانفصام عن التخت بسبب رنين الهاتف كما يجري عادةً في مثل هذه الأيام. «بني؟»

«أبي؟»

«ما الأخبار؟»

«إنه سؤال صعب. لست متأكداً، ولكن بحسب توقعاتي أن كل شيء مختبئ بين الموجود وغير الموجود».

«أيها الشقي. انظر، سأركب الحافلة مساء اليوم؛ سأصل إلى إسطنبول غداً نحو الظهيرة».

إن طبقة صوته وكأنه يلقنني أن أهدأ حتى قدومه. ربما تكلم مع أمي. حول مساء اليوم الماضي. كانت أمي قد لاحظت الغرابة في شكلي عند عودتها من العمل وقلقت كثيراً.

«هل وجدت منزلاً؟»

«وجدت واحداً. طابق أرضي جميل. لنرَ... صاحب المنزل ليس موجوداً هنا، ستتكلم عند عودته».

«رائع. إذن إلى اللقاء غداً». لم يكن والدي يجيب، ولكنه لم يغلق الهاتف أيضاً. «لا تقلق أنا بخير».

«مساء الغد مباراة بيشيكتاش. نشاهدها معاً».

«نشاهدها».

«وداعاً بني».

ابتلعنا كلانا ريقنا. كنا في حالتنا هذه كأبطال إعلان لسراويل مزرية. لم أتحمل وأغلقت الهاتف. رن الهاتف مرة أخرى حينئذ. «بني؟»

الجملة نفسها، بصوت مختلف. كان والداي العزيزان يتفقدانني دورياً. «أمي؟»

«كيف حالك يا بني؟»

«الحمد لله يا أمي. أتدحرج في هذه الحياة».

«بني، سأذهب اليوم لأحضر مولد السيد حجابي. كن في الظهيرة في المنزل كي نأكل معاً».

«لا أريد أن أعدك يا أمي. ربما نغط في اللعب مع الأولاد. لا أعرف الآن...» أساساً كنت أعرف جيداً. لن أكون في المنزل قطعاً.

زفرت أمي: «همممم». ثم قالت: «على الأقل تعال بعد الظهر لنذهب معاً إلى المولد. اتصل أخوك ربيع، اتصل أخوك شامي...»

إذن هذه هي خطتها. كنت سأتقرب من الرب، وسأبتعد عن مشاكلي الوجودية. كنت على وشك أن أبلغ بلهجة قطعية عن عدم إمكانية تلبيتي لهذه الدعوة اللطيفة، إلا أن أحدهم يهمس في أذني: "يمكن أن تكون هذه هي الفرصة التي تبحث عنها!" مع عدم رؤيتي لصاحب هذا الصوت أبداً في السابق، إلا أني كنت أملك قناعة قوية جداً حول هويته: إنه الشيطان بحد ذاته! قلت: «حسناً، لنتكلم لاحقاً». وأغلقت الهاتف.

قضيت الساعة التالية أمام التلفاز أشاهد فيلماً يمكن أن يشاهده الأناس البدناء ويتكلم على ضرورة عذرهم. طبعاً ومن ناحية أخرى، بموجب النصيحة التي همسها صديقي - أو ربما معجبي السري- في أذني، كنت سأجهز خطة. وعندما جهزت الخطة لم أكترث لاستمرار الألم الذي يعانيه البدين، فأغلقت التلفاز ومسكت الهاتف مجدداً. فتح متين بلكين هاتفه النقال بالطريقة المنتظرة منه تماماً: «من المتكلم؟»

أجبته قائلاً: «كشفت الجريمة».

سأسألكم مجدداً: «من يتكلم؟» ما كان سيسمح لي ابن آدم هذا على إجرائي خطاباً جذاباً. «أنا "بيتر بان"[1] بلد الكوابيس؛ لا بد أنك تذكر».

قال بصرامته: «أسمعك». قلت: «إذا أردت إجابات عن الأسئلة التي تتساءلون عنها فسأنتظركم اليوم في مولد السيد حجابي».

---

(١) بيتر بان: هو شخصية خيالية من فيلم رسوم متحركة من نوع المغامرة من تأليف الروائي والمسرحي الإسكتلندي جيمس ماثيو باري (ملاحظة المترجم).

«لا تلعب معي يا بني. وإلا جعلتك تندم». كان الدم قد قفز إلى عقلي. «لا يمكنكم أن تفعلوا شيئاً. فقط يمكنكم التهديد والوعيد من القمة. قلت ما سأقوله، والباقي أنتم أدرى فيه». قلتها وأغلقت الهاتف في وجهه.

ارتديت بشكل سريع قميصاً وسروالاً، ورميت نفسي من المنزل إلى الخارج. كنت على وشك الخروج من باب الشارع حين لاحظت وجود رسالة في علبة بريدنا. كانت عائدية الرسالة لمكان عمل أمي وأبي. وكانت تشير إلى أنها لا تحمل أخباراً سارةً. عندما سحبت الظرف ورأيت كتابتي السيئة عليها استغربت للحظة ثم تذكرت فوراً. إنها الرسالة التي كتبها لي هاكان. إذن لم تفقد في البريد كما كان يعتقد، فقط تأخرت قليلاً. من يدري ما السخافات التي كتبها هذا الأحمق؟ فكرت أنه بإمكاني أن أكتب له حيناً رداً كي أسليه. بعد انتهاء هذا الهراء طويت الرسالة، ووضعتها في الجيب الخلفي لسروالي.

وأخرجتها مرة أخرى.

وقع ناظري على الطابع الموجود أعلى يمين الظرف المروس. كان طابعاً عادياً بقيمة مئة وخمسين ليرة تركية. ولكن الختم الذي عليه... فلا يمكن تقديره بثمن.

رميت نفسي إلى الشارع بسرعة أحدثتها مليون حمامة رفرفت فجأة في قلبي. عندما رفعت رأسي لا إرادياً لأنظر إلى شقة الأخت أليف، لاحظت الخالة رمزية تنشر الثياب على الشرفة. إذن بالفعل لم يقتلوا هذه الشمطاء. كم هذا جيد! كم كان جميلاً كل شيء! لوحت بيدي بفرح للعجوز المسنة السافلة قوادة ابنتها. «الله يعطيك العافية يا خالة رمزية! ننتظركم بكل تأكيد على مولد السيد حجابي. إياكم أن تتأخروا».

لا أعرف بماذا أجابت. بتحليق دام نصف ساعة، أوصلتني الحمامات إلى دائرة حكومية مؤلفة من بناءين مُنشأين على أحد أطراف الطريق العام. إنه المكان الذي أفنى فيه والداي عمرهما. بشرت الحارس بقدومي بإشارة بيدي، ومررت

من بين الصناديق الملونة لعشرات الشاحنات المصفوفة بعضها بجانب بعض ودخلت المبنى الأكبر والأبشع بينهما. كنت قد خطوت عدة خطوات حين لاحظت أن هذه الخطوات لن تغير شيئاً من موقفي بالرغم من عدم حصول تغير في سرعتي. بلا شك أن التوتر الذي شعرت فيه في قبة قميصي كان له علاقة بهذه الحالة غير المعتادة. أوقفت سرعتي مضطراً والتفت نحو الفظ الذي أوقفني.

«عمي مطيع الله!»

«خير إن شاء الله؟ ما هذه العجلة؟»

«سمعت بوجود شواغر لسائقي الحافلات الصغيرة، فقلت في تلقاء نفسي أنه علي الاستعجال».

بدا بريق صغير في عيني العم مطيع الله الثابتة. بدأ يقول: «من يذهب مستعجلاً...» وأنهى القول: «يجلب المصائب لنفسه». لم يكن يقصد أن يزج بأفكار سيئة كالموت في رأس طفل صغير. هكذا أثبت اعتقادي حول موضوع كونه رجلاً واعياً. شعرت حينئذ بأصابعه التي في رقبتي تلين قليلاً.

«إن الله أرسلك إلي يا عمي مطيع الله. هل يمكنني أن أطلب منك مساعدة؟»

«اطلب لنر».

«هل يمكنك أن تجد لي لائحة الناجحين في امتحان القبول الوظيفي الأخيرة؟»

حك العم مطيع الله حنكه وهو يفكر. «ماذا ستفعل بهذه اللائحة؟»

«إن أكثر جانب أحبه فيك يا عمي مطيع الله أنك تسأل أسئلة بلا نفع. أرجوك أن تساعدني؟»

بدت ابتسامة هزيلة على وجه العم مطيع الله. أشار برأسه على اللوحة المعلقة على الحائط المقابل مباشرةً. ودعته وألقيت نظرة على اللوحة، ثم اتجهت

نحو المصعد. بخطوات أهدأ. ترجلت في الطابق الرابع، وتوجهت نحو هدفي بتصميم، ودخلت غرفة المدير العام أردوغان ش. بايكورت دون قرع الباب.

بهت لون السيد أردوغان عندما رفع رأسه عن الصحيفة الهزيلة التي أمامه ورآني. ربما خطر بباله أنني سأجعله خبراً في الصفحة الثالثة من الصحيفة التي بيده في اليوم التالي من خلال سلاح شخصي لأحد أفراد عائلتي. في الحقيقة إذا أخذنا الحالة النفسية التي أنا فيها بعين الاعتبار فإنه أمر واضح أن تجعله ملامح وجهي يفكر بهذا الشيء. بدأت الحديث قائلاً: «هل تذكرون؟». ثم تابعت: «كان هناك شاب فقير، وأخرق بقدر ما هو فقير؟» لم يكن لدى السيد المدير الرغبة في دخول النقاش معي. أمسك الهاتف فوراً. ضغطت عليه فوراً. «إذا أردتم، فلن أتعب دماغكم، إن اسم الأخرق محط حديثنا هو طوغرول تانير. قد تعين هذا قبل عدة أسابيع هنا كرئيس قسم. بموافقة منكم».

«ماذا تقول؟» تقلصت عينا السيد المدير من خلف نظاراته الملونة. كانت سماعة الهاتف مازالت بيده ولكنه لم يكن قد ضغط على أي زر بعد.

«طبعاً أفرحنا مباشرة هذا الرجل الذي لا يساوي فلساً على العمل كموظف شريف بصفته قريبنا قربة بعيدة. ولكن إن أردتم الصراحة، لم يكن هذا مفاجئاً». كان ينظر إلى وجهي كالخروف. «لم يكن مفاجئاً لأننا كنا نعرف أنه سيربح. لأننا كنا قد رأينا اسمه في لائحة الناجحين في الامتحان. في لائحة رأيتها على طاولتكم قبل أن تبدأ الامتحانات. في ذلك اليوم الذي امتحنتموني فيه عن التاريخ العثماني المشرف. كما أنه كان يوجد اسم نحو عشرين أو خمسة وعشرين شخصاً باستثناء طوغرول هذا».

أطلق السيد المدير ضحكة ووضع المستقبل مكانه. «يا بن الزنديق أنت... الآن عرفت مشكلتك. أكمل لنر».

وأنا أيضاً ضحكت. «في ذلك اليوم، كنت قد كتبت هذه الأسماء التي في اللائحة على ورقة قبل مجيئكم معتقداً أنها ستلزمني مستقبلاً».

كان قد زاد هذا الخنزير استمتاعه. أخرج سيجاراً من العلبة التي على طاولته وأشعله. «لحظة، دعني أخمن: إن لم أسحب أمر نقل والدك ستقدم هذه الورقة إلى النيابة العامة...»

«إن إدارة مؤسساتنا العامة من قبل فاشيون أصحاب تفهّم عميق مثلكم يعطيني الأمان يا سيدي».

كنا نضحك معاً. كنا واثقين من أن أوراقنا أفضل من غيرها. في النهاية دفع السيد المدير كرسيه الحكومي إلى الخلف قليلاً وقال: «أيها الغبي. قل لي، هل رأيت وكتبت الأسماء من اللوحة التي في الأسفل؟»

قلت: «ليس لدي علم باللوحة يا سيدي». وذكرت عدة أسماء من الذين كنت قد قرأتهم قبل قليل. «أساساً إن أسماءهم جميعاً مكتوبة في اللائحة التي بيدي. لم يحتج الأمر لأنظر».

زأر السيد المدير قائلاً: «هل تعتقد أنك ستبتزني بعقلك الصغير كعقل العصفور؟ لنفترض أنه حدث كما كنت تقول؛ فلتكن قد أخذت اللائحة في تلك الأيام. من سيعطي اهتماماً لتلك الخرقة التي بيدك الآن؟»

«إنكم التمستم نقطةً مهمةً جداً. فعلاً لن يعر أحد اهتماماً لهذا الإثبات». ثم أخرجت من جيبي رسالة هاكان وضربتها على الطاولة. «لكنهم يعيرون هذه».

«حقاً؟» كنت أستطيع رؤية تغطية غيوم شك خفيفة لملامح السخرية التي على وجهه. كان يوجد دستة من هذه الظروف على طاولته، ولم يكن مستبعداً احتمال أن أكون وضعت الورقة التي كتبت فيها الأسماء في ظرف قد سحبته في تلك اللحظة من هناك.

«إن الخرقة محط حديثنا عندما تكون داخل هذا الظرف ستصبح فجأة بحالة إثبات قوي للغاية. ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار تاريخ الختم الذي فوق الطابع. تم التأكيد من قبل دولتنا على أن الرسالة تم إرسالها قبل موعد

الامتحان». كان السيد المدير قد تجمد مكانه. «بالطبع أنا أيضاً اعتقدت أن اللائحة التي بيدي لن يكون لها أي قيمة بعد إعلان نتائج الامتحان. وإذ يخطر ببالي الطريقة التي يلجأ إليها الكثير من الفنانين الهاوين لتجنب سرقة أعمالهم. وبذلك أرسلت القائمة لنفسي. أنصحكم بها. إنها طريقة قوية كموافقة الكاتب بالعدل، وتكلفكم القليل القليل».

شن كتلة الدهون حملته باتجاه الظرف مسقطاً طقم قلم المداد. سحبت الوثيقة من تحت يده باللحظة المناسبة لأنه لم يكن خافياً علي قيامه بقياس المسافة بينه وبين الظرف. نهض السيد المدير وقال: «أيها الزنديق الغشاش». بدأ يلتف حول الطاولة ويأتي باتجاهي متنفساً الصعداء من أنفه.

وضعت بسرعة الكرسي الذي أمام الطاولة بيننا. «إن أردتم أستطيع أن أكشف لكم عن غشي. آمل أن تروه. إن العيش في أرزروم لعدة سنوات سيكون تعويضاً بسيطاً جداً لرؤيتكم تعانون الأهوال».

عندما دفع قليل الناموس بالكرسي واجتاز الطاولة الصغيرة التي بيننا بخطوة واحدة، قمت بحملة إلى طرفه الآخر. يبدو أن السيد المدير كان صاحب خبرة بألعاب المطاردة، إذ إنه دفع بالطاولة باتجاهي بكامل قوته، وألصق صدري بالنافذة. تخبطت بسخط في المكان الذي علقت فيه، وبدأت أصرخ بأعلى صوتي. جعدت الرسالة ووضعتها في جيبي حين رأيت هذا القذر يمد أصابعه السمينة باتجاهي. أمسك ذراعي بغضب وسحبني باتجاهه. لم يكن لدي أي خيار غير القتال بقدر ما تكفيني قوتي. كنت نادماً لأني لم أصطحب الدالاس كولد. كنت أهيئ نفسي لشغب نهايته هزيمة محتومة لي حتى فُتح باب الغرفة فجأة. ثم لم أفهم كيف خلق منقذي ذو عيون السماء وهيئة الجبال جنبنا وأمسك بالرجل المسعور من سترته، ورماه على إحدى الأرائك الجانبية.

انحنى العم مطيع الله بعيونه الجنائية نحو السيد أردوغان، وأمسكه من ربطة عنقه. «ماذا كنت تفعل بالطفل يا هذا؟»

صرخ السيد أردوغان رافعاً يديه على مستوى صدره: «لم... لم أفعل شيئاً».

زأر العم مطيع الله مشيراً إلى الازرقاق الذي في ساعدي قائلاً: «هل تقول لي "لم أفعل شيئاً" أيها العاهر؟» عندما بدأ السيد أردوغان بالتلعثم، سحبه العم مطيع الله من ربطة عنقه بقوة أكبر ليغمر كلامه في حلقه. «انظر إلي يا سيادة المدير. سآخذ الطفل الآن إلى المستوصف، وسأجعلهم يكتبون تقريراً طبياً له. سمع الجميع الضجيج الذي أتى من الغرفة، ورأيتك أنا بأم عيني عندما كنت تهاجمه. ليكن بعلمك؛ سينفد صبري إذا عبثت مرة أخرى مع هذا الطفل أو مع والده».

صفر السيد أردوغان من بين أسنانه بحقد قائلاً: «مؤامرة. أيها المتآمرون».

قال السائق مطيع الله البطل: «اخرس يا قليل الشرف». ثم ألصق بصقةً كبيرةً على وجه هذا القذر. كان هذا ختاماً كافياً بالنسبة لشخص مهوس ليكون صاحب الكلمة الأخيرة مثلي أنا. لذلك لحقت بالعم مطيع الله المتجه نحو الباب دون إيجاد داع لإضافة أي شيء. وعندما لاحظت أنه يتجه نحو المستوصف فعلاً قلت له: «هل برأيك أن هذا ضروري؟»

هز رأسه بمعنى الإيجاب. إذا قال هكذا فهذا يعني أنه محق. كنت أثق به. أوصلني إلى باب المكتب الذي تعمل فيه أمي بعد أن انتهت معاينتي. أمسكني تقرير "ضرب خفيف ناحية اليد والخاصرة"، وطلب إليّ أن أخبئه جيداً ثم ابتعد من جانبي بخطوات كبيرة، الله أعلم إلى أي بلاد، كي يلقن درساً الله أعلم لأي سفلة. لم أعرف في هذا العالم الكبير أكثر رجولة من السائق مطيع الله.

- ١٣ -

التانغو الأخير في المولد

كان القاتل يغط في نوم عميق عندما دخلتُ غرفته. اقتربتُ منه بهدوء وأمعنت النظر به بانتباه. كان يملك ملامح حزن بالنسبة للذين اتخذوا التردد الحازم دستوراً لهم. كان مريضاً جداً، وكان يعرف أن النوم لن يعد يشفي. كان قد أنهى قضيته من خلال خيط القطن الذي تمسك به في الحياة متنفساً الصعداء. والآن يطلب المغفرة من أحلامه. لا بد أن الوقار الذي يحمله في وجهه كان نابعاً من بهجة هباء نفسه بإشباع حتى آخر رمق في حياته بالرغم من عشرات الآلام التي قاساها ومازال يعاني منها. كان القاتل واحداً منا. وكان هذا القاتل يطبخ أكلة "محشي اليالنجي" بطريقة يمكن أن تأكلوا أصابعكم معها. كان يحمل أثر تقطيب ضخماً يمتد من نصف جبينه إلى وسط شعره كما آكل الماضي كاستراتوس. لا بد أن هذا الأثر تذكار منذ أن انفلق رأسها إلى نصفين مثل بطيخة ديار بكر كما عبر عنها البقال يعقوب. نعم؛ لم تكن السيدة نجلاء قد ماتت عندما قفزت من الطابق الثالث إلى الأسفل لتنهي هذا العذاب الذي كان يذيقه لها. كذلك أيضاً لم يكن صحيحاً أنها فقدت حياتها بحادث سير كما كان يقول السيد حجابي لجيرانه محاولاً إخفاء انتحارها. ها هي السيدة نجلاء في غرفة نوم قصر مهمل، تموت أمام عيني.

يكون الإنسان في بعض الأحيان غبياً جداً. بالرغم من إن كل شيء كان يتراءى أمام عينيّ منذ البداية، إلا أنني ما كنت سأفهم شيئاً لولا أن أوزتورك لفت انتباهي بطريقة منطقية إلى آكلي الماضي. إن انخراط الكائن الحي القادم من الماضي، أي السيدة نجلاء، ضمن المعادلة، قد أكسب دستةً من التفاصيل معنى لا

ريب فيه، إضافةً إلى تشكل - لا أقدر على تسميتها نظرية- حكاية في عقلي توضح كل شيء بشكل رائع.

كانت الحكاية كالتالي: إن - إياكم أن يصل الخبر إلى قبره- شذوذ السيد حجابي، الذي كان يختلق التلذذ الجنسي له من خلال مشاهدة وتصوير تزاوج أرتان المجنون والأخت أليف، يمتد إلى سنين من الماضي.

بلا شك أنها تقبع هذه الحقيقة تحت المقولة التي عبر عنها الأخ ربيع "محاولات إكساب الشباب إلى المجتمع". كان يأتي بالمساكين الذين يقعون تحت رحمته في المخافر إلى بيته، ولا أعلم ماذا كان يصيبه حين كان يتم الجماع بين زوجته الشابة وبين أولئك الشباب. ولكن كيف كان بإمكان هذا الشاذ فعلياً أن يبقي عشرات الناس صامتين؟ من المحتمل عن طريق التهديد وبإشراك زوجته في فضيحته. ولكن في يوم من الأيام، يجري تطور لم يكن يتوقعه - إياكم أن يصل الخبر إلى قبره- الأخرق السيد حجابي، ويبدأ حب كبير بين زوجته وأحد الشبان الذين جلبهم إلى بيته. إن ذلك الشاب كان السيد روحان. يريد السيد روحان، بطبيعة الحال، أن يسحب ويأخذ المرأة التي يحب من هذه الحياة الرزيلة، ويجن جنون السيد حجابي الذي يدري بالقصة، ويرمي هذا الشاب في الشارع بعد أن يعرضه لأنواع من التعذيب النفسي والجسدي. على ما يبدو أن الشابين ينجحان في المحافظة على علاقتهما - أو دعونا نسميها ارتباطهما- بالرغم من الافتراق الذي حصل بينهما.

بعد عدة سنوات تقرر السيدة نجلاء إغلاق الملف والرحيل إلى عالم الآخرة وتحاول الانتحار. إلا أن القدر لم يسمح بموت هذه المرأة التعيسة والله أعلم كم شتمت تلك المسكينة القدر عندما فتحت عينيها في المستشفى، وعلمت أنها مازالت على قيد الحياة. إن ابنها الكبير شامي كان الشخص الوحيد بجانبها في المستشفى. كان قلب الأخ شامي يبكي دماً إذ إنه عرف طبع والده نتيجة عدم امتلاكه دماغاً سخيفاً كما الذي لدى أخيه الصغير بسبب اختلاف اصطفاف

الموروثات. كان يعرف أن والده الشيطان لن يترك أمه وشأنها أبداً أبداً، وحتى إنه يمكن أن يرتكب أموراً أفظع خوفاً من تكشف الأمور التي كان يرتكبها. من المحتمل أن والدته حكت له، في المستشفى إن لم يكن في السابق، عن القضية الغرامية التي تمتد لعدة سنوات. فكر الأخ شامي مطولاً، وجهز خطة لإنقاذ أمه. كان الطبيب الذي يهتم بوالدته صديقه المقرب من وحدته الأولى. تمكن من أن يأخذ منه تقرير وفاة مزور مستفيداً من هذه الصداقة التي ربما دعمت بقليل من المبلغ المادي. والآن كل ما يجب أن يفعله تأمين قبر ونشر كذبة أنه قام بدفن والدته بمراسم دفن مستعجلة دون أن يتم حضور أحد. رغم استغرابهما لهذا الأمر، كان والده وأخوه سيقرران أن تصرف الابن المتألم بهذا الشكل نابع من غضبه على تجاهلهما لها.

بعد ذلك كانت ستتمكن المرأة بعد هذه السنوات الطويلة من الإبحار في حياة جديدة مع الرجل الذي تحبه. إلا أنه كان من المفترض أن يتم دفن أبنائها وأقربائها وأصدقائها مع الذكريات المريرة. لكن لم يتحمل قلبها إخفاء الحقيقة عن ابنها الصغير ولكنها تضطر في النهاية أن تؤيد ما قاله ابنها الكبير في موضوع ثرثرة الأخ ربيع وصغر عقله. كما أنه كان هذا الابن طويل القامة وصغير العقل على وشك أن يخرب كل شيء. كانت روح هذا الابن الصالح تشتعل برغبة رؤية أمه الميتة لآخر مرة بعد أن جاء راكضاً إلى المستشفى عند سماع خبر انتحار والدته. كانت تتم محاولة المماطلة لمدة يوم واحد فقط بحجة أنه تم وضع الجثة في براد الموتى، وأنه تم إغلاق البراد. لكنه كان حلاً مؤقتاً. لم تكن هناك إمكانية المماطلة معه أبداً. كان لا بد من إتمام هذا اللقاء المبارك. ولكن كيف؟ لا يمكن الانتظار أن تنام السيدة نجلاء على أريكة في براد الموتى وتقلد الأموات. يجب إيجاد حل فوراً. في هذه النقطة تماماً يجب رفع القبعات أمام الذكاء الخارق للأخ شامي. إنه بالفعل يسعى ليحقق أمنية الأخ ربيع. إلا أنه عندما نوى الأخ ربيع أن يقبل أمه قبلة الوداع غير مكتف برؤيتها، يعترض عليه أخوه الكبير بشدة،

ويتشاجر الأخوان بعضهما مع بعض وتتم السيطرة على الابن الصغير بوساطة حقنة مسكنة قوية بمساهمة الطبيب، الذي من المحتمل أنه كان خائفاً من تكشف الألاعيب التي قام بها. بالطبع تقال له، عندما صحا من غيبوبته كذبة أنه تم دفن والدته منذ زمن طويل. ولكن لماذا لم يسمح له الأخ شامي بتقبيل والدته؟ هل فعلاً كان السبب اعتقاده، كما قال، أنه لا يستحق أخاه هذا؟ مهما كانت هذه الحجة منطقية بالنسبة للأخ ربيع الذي يعاني تأنيب الضمير، لا علاقة للحقيقة بهذا أبداً. لم يكن يريده الأخ شامي أن يلمس الشيء الذي اعتقد أنه أمه. لأن هذا الشيء الذي وضع في براد الموتى قبل ليلة لم يكن جسداً من لحم وعظم، كان تمثالاً مصنوعاً من الصابون على يد فنان كبير، السيد روحان.

يصعب التصديق فعلاً، ولكن كانت خطة الأخ شامي تسير بسلاسة لمدة طويلة، ويصدق الجميع، بما فيهم زوجها وابنها الصغير، أن السيدة نجلاء قد ماتت. في هذه الأثناء يهرب العشيقان على ما يبدو، ويسكنان في مكان بعيد. ولكن لم تدم فرحتهما طويلاً. لأن المرأة تتعرض إلى مرض مميت. عندما واجهت حقيقة أنها ستموت، تقرر تلك المرأة قبل رحيلها إلى عالم الآخرة أن ترسل ذلك الرجل السافل -إياكم أن يصل الخبر إلى قبره- الذي سود حياتها، إلى جهنم بعد أن فهمت أن المشاعر التي تجعلها متعلقة في الحياة هي مشاعر الحقد على زوجها أكثر مما هي مشاعر حب السيد روحان. لا أعرف مدى معرفة السيد روحان بخطتها ولكن بعد محاولات عديدة استطاعت المرأة إقناعه بالانتقال للسكن في القصر المهمل الموجود أمام أنف السيد حجابي. بلا شك أنها كانت على علم بالارتباط السري بين منزلها القديم وبين القصر من خلال الخريطة التي أخرجها الأخ ربيع مرة من المرات.

وبذلك وعندما يحين وقت تنفيذ عملية القتل، تذهب المرأة من الممر السري إلى منزلها القديم، تقطع حنجرة زوجها وتعود إلى القصر من نفس الطريق. يلتقي أرتان المجنون والأخ أركين بجثة مدير الأمن السابق عند ذهابهما

إلى هناك في الليلة نفسها. يهرب الأخ أركين من هناك بذعر شديد، أما أرتان المجنون- اسم على مسمى، مجنون- فيبقى هناك ويخرب كل شيء.

عندما يسمع الأخ شامي بمقتل والده يتنفس الصعداء في القصر، ويعرف أن والدته من ارتكب الجريمة. يواجه الأخ شامي مشكلةً غير متوقعة، لم يكن يعلم على ماذا يحزن، على أن والدته مجرمة أم على موت والده أم لأنه كان سبباً لحدوث كل هذا. كان والده قد أوصى بدفنه إلى جانب زوجته الذي على ما يبدو أنه لم يكن ينوي أن يتركها وشأنها في الآخرة، وكانت المرأة محاطةً بالأموات الغرباء. لا يوجد حل سوى دفن الرجل مع زوجته في القبر نفسه. طبعاً كان قبر السيدة نجلاء فارغاً. إلا أن الأخ شامي يتمكن بالقليل من الجهد أن يتجاوز هذه المشكلة. في حين أغمي على الأخ ربيع عند إخراج العظام من القبر، كان حفار القبور يدعي مقسماً اليمين أنه تفقد القبر قبل يوم، وأنه لا يجد التفسير لما حصل. طبعاً لن يتوقع أحد قدوم الأخ شامي إلى هناك ووضع العظام التي جمعها لا أعلم من أي قبر هناك. ها هو كل ما حدث خلف كواليس هذه الحكاية الغامضة.

كنت قد كذبت على أمي بأنه لدي عمل لن يتجاوز عشر دقائق في حين كنا ننتظر بدء مراسم المولد في منزل السيد حجابي، وأتيت إلى القصر عن طريق الممر السري. إن ما أخذني إلى هناك ليس تشكيكي في صحة فرضياتي. كنت أعرف جيداً ما كان ينتظرني هناك. كنت سأشرح بعد قليل حل الجريمة أمام الجميع، وأعتقد أني لم أر لائقاً أن أنزل الضربة القاضية على ضحيتي قبل أن أواجهها وجهاً لوجه. كنت سأحصل على ما أريد.

فتحت السيدة نجلاء عينيها التي فقدت نورها ونظرت إلي. بللت شفاهها الجافة بلسانها ونطقت الشهادة ثم قالت بأنين: «كنت أنتظرك». لم أعرف بم أجيب. «رأيتك قبل الآن!»

قلت: «لا بد أنكم رأيتموني في القبو. أما أنا، فظننتكم شخصاً آخر. كان الظلام دامساً».

«إذن لهذا السبب لم تقتلني؟»

«لم أفهم...»

أعتقد أن الشكل الذي اتخذه وجهها كان يشير إلى نوع من الابتسامة. قالت: «لن تخدعني». ملوحةً يميناً وشمالاً بيدها التي برزت عظامها. ثم أشارت إلى أنفي بسبابتها. «أنت عزرائيل».

لم أعترض على هذا. خطر ببالي أن أمسك يدها قبل مغادرة المكان، ولكن تراجعت فوراً. لم أكن من الناس الذين اختارهم رب العالمين ليبثوا إحساس الحب والأمان في عبده. ولن أصبح في يوم من الأيام. نزلت السلالم ومررت من بين الوحوش المصنوعة من الصابون التي في القبو مستخدماً يدي، وخرجت إلى الحديقة الخلفية. ثم اجتزت جدراناً بارتفاعات مختلفة قافزاً من فوقها، ماشياً على أسطح الملحقات، ومارّاً من بين مستودعات الفحم. وصلت إلى منزل السيد حجابي بطريق مختصر.

وبذلك أكون أنا السيد قاتل المشاعر قد عدت مجدداً إلى مسرح الجريمة. كان الوضع في منزل الميت أفضل مما توقعت. من المحتمل أنه يجري أكثر أيام هذا المنزل ازدهاراً. كان الجو مليئاً بالنشاط. العجائز اللواتي بدأن بالنحيب والبكاء قبل بدء تلاوة المولد، وامرأة أشعث تطهو الحلوى من جهة، وتتحدث عن تجاربها الروحانية، الأخوان شامي وربيع اللذان يتراكضان، بصفتهما صاحبي المنزل، من هنا إلى هناك كالدجاج المخبول، يعقوب الذي يفرك ركبتيه كلتيهما بيديه، ويستذكر المواقف الجنونية اللطيفة للمرحوم، والرجال الذين يتبعون السيجارة بالأخرى وهم على وشك الملل... من الواضح أن المحققين الكبار، يخاطبون مجموعة كبيرة من المتابعين المعجبين عندما يقومون بإفشاء الحلول العبقرية التي توصلوا إليها نتيجة التحقيقات التي اتبعوها. وأنا بصفتي الممثل الأخير لهذا التقليد، حين ألقي الضوء على الأسرار المحيرة للعقول، الواحد تلو الآخر التي تقبع خلف جريمة السيد حجابي، سيسجل التاريخ نجاحي أمام هذا الجيش من المجانين والتائهين.

إن تفضل متين بلكين و أونور تشالشكان بالمجيء إلى منزل الميت قد زاد من حماسي إلى مستوى النشوة بكل تأكيد. كان يجب على أمي أن تنبهني بأسلوب غاضب كي أكف عن المعزوفة الممتعة التي بت أعزفها عن طريق الصفير. لم يكن السيد النائب العام يبعد أنظاره الحادة عن وجهي ولا للحظة واحدة، ولكنه بنفس الوقت كان يتردد من القدوم إلى جانبي خوفاً من افتعالي موقفاً مخجلاً. وأنا، عناداً له، كنت أرد له بابتسامة مغيظة، ولم أكن أتحرك من جانب أمي كيلا يضغط علي، ويسحب كلاماً من فمي قبل أن يحين الأوان. كانت خطتي الانتظار حتى انتهاء المولد، وبعدها أفجر القنبلة حين يبدأ الجميع بتناول حلواه.

كانت تدور في عقلي عدة سيناريوهات حول التسلسل الذي سأحكي فيه الأحداث وعن المصطلحات الخاصة التي سأزينها بها كي أحدث أكبر تأثير ممكن.

وإذ بطباختنا الأشعث تبشرنا بجهوز الحلوى. ويجلس الإمام ذو الوجه المشؤوم على كرسي موضوع وسط الغرفة. كان قائدنا الروحاني قد بدأ بالتأرجح أماماً وخلفاً، وإذ بضيف جديد يدخل الغرفة. اجتاز الغرفة بخطوات مترددة من بدايتها إلى نهايتها، وجلس بجانب البقال يعقوب. كنت أشعر أنه سيقوم هذا الضيف غير المنتظر بإفساد كل شيء قبل أن أرفع رأسي وأرى من يكون. لأني كنت قد عرفت نوعاً ما كيف تدور البكرة الإلهية. لم يكن هذا الشخص أحداً آخر غير السيد روحان الذي كان يبدو ظريفاً بالرغم من الطقم الرمادي الذي يرتديه عليه، ويمكن اعتباره لا بأس به بوجهه وأرجله النحيلة والطويلة.

حاولت المقاومة لمدة من الزمن بتجاهل السيد روحان. ولكنه كان صاحب تأثير قوي لدرجة أنه عندما وضع قدمه في الغرفة جرى تغير جدي في الحالة الروحية للجميع. حتى إن الذين لم يكن لهم أي فكرة عن قصته، كانوا وكأنهم شعروا بامتلاء الجو ببصيرة أعمق وأثقل من بصيرتهم. يمتلأ قلب الجميع كما أنا أيضاً بمشاعر الخجل، يتلو الإمام المولد من صميمه، ستكتسب

المصطلحات، التي ربما هو لا يدري ما تعني، قيمةً خلف المفاهيم كما عبر عنها أوزتورك العزيز بالضبط، كانت دموع العجائز لأول مرة منذ الله أعلم كم عاماً تحمل قيمة ثواب. عند انتهاء المولد، كنت أعرف: كان عرضي قد سقط قبل أن يبدأ.

ذهبت إلى جانب أونور تشالشكان ومتين بلكين بعد أن وُزّعت الحلوى. صافحني الضابط المساعد، وداعب رأسي بحالته اللطيفة المعتادة، أما وجه النائب العام فكان مثل حائط المحكمة. قال أونور تشالشكان: «ستقول لنا أشياء مهمة، صحيح؟»

وافقت برأسي. قلت وأنا أنظر إلى السيد متين: «كنتم محقين. كنت أكذب».

قال أونور تشالشكان بصوت مرتجف: «ماذا يعني هذا الآن؟»

«في اليوم الذي تمت فيه الجريمة، كنا قد ذهبنا مع الأصدقاء إلى المزرعة لنقيم مباراة. ثم جاء الأخ الغضنفر مع كلابه وخرب مباراتنا. ضربني أنا وبرهان ضرباً مبرحاً». برزت ضحكة خبيثة على شفتي متين بلكين. أكملت دون الاهتمام له. «يمكنكم أن تسألوا جميع الأطفال. المهم... كنت قد أقسمت أن أنتقم من الغضنفر، وفكرت بأنها فرصةً كبيرة عندما كنت جالساً في المخفر ذلك اليوم». كان لا بد من رؤية خيبة الأمل لدى أونور تشاليشكان. أما متين بلكين، فكان بحالة لا مبالاة مزعجة جداً. «كذبت».

زأر النائب العام قائلاً: «إنك الآن تكذب في الأساس. كنت قد قلت في الهاتف إنك توصلت لحل للجريمة؛ والآن تقول إنك أدليت إفادة كاذبة».

«كذلك أيضاً كنت أكذب. لم أكن أستطع أن أقنعكم بطريقة أخرى بالمجيء إلى هنا».

«كان بوسعك أن تحكي مشكلتك على الهاتف. لم يكن هناك داع لقدومنا إلى هنا».

قلت: «بل هناك داع. لأن ما سأقوله لكم لم يقتصر على هذا فقط. وعليكم أن تنظروا في عيني عندما أقول هذا لكم».

«ما هذا الهراء!»

«ذلك التهديد الذي طرحتموه بما يخص والدي... أعتقد أنكم كنتم تخادعون فقط ولكن حتى لو حاولتم القيام بشيء كهذا، وقررتم العبث مع والدي، يجب عليكم أن تضعوا شيئاً بعين الاعتبار...»

قال متين بلكين: «حقاً؟» ثم أكمل بابتسامة تحقير: «وما هو؟»

«حينئذ أنا أيضاً سأعبث معكم».

ما عاد يضحك متين بلكين. أخرج من جيبه سيجارة مالتيبي وأشعلها، نفخ دخانها في الهواء، أدار ظهره واتجه نحو الباب. أما أونور تشاليشكان الذي بقي فمه مفتوحاً من شدة المفاجأة، فنظر لوجهي للحظة، وحرك شفتيه، ثم اكتشف اكتشافاً بمكانه أن ما سيقوله عديم الفائدة وبذلك كف عن قول شيء وذهب من خلف النائب العام راكضاً.

مسحت الغرفة بناظري بعد أن غادروا الغرفة، ورأيت البقال يعقوب يزنّ في رأس السيد روحان. أخذت إحدى وردات القرنفل من المزهرية الموجودة فوق مائدة الطعام وذهبت باتجاههم. وعندما رآني البقال بدأ يتكلم من قبيل: «ها هو الطفل الذي ذهبت كرته باتجاه حديقتك المرة الماضية...»

اجتزته ومددت الوردة للسيد روحان. «أرجو أن تعطوا هذه للسيدة، وبلغوها حبي الشديد».

قد ابيض وجه السيد روحان مثل الكلس. تمالك نفسه بصعوبة، وأمسك بالوردة، وقدم الشكر بطريقة محترمة. ثم التفت إلى البقال يعقوب، وأبلغه أنه حان وقت المغادرة. قلت: «وأنا أساساً كنت على وشك الخروج. ويمكنني

مرافقتكم إن أردتم». غادرت مع السيد روحان المنزل بعد أن كنت قد ناديت لوالدتي وأبلغتها عن ذهابي.

قلت له في حين كنا نتجه نحو القصر: «إن التماثيل التي تصنعونها جميلة جداً».

«شكراً لك».

«لماذا تستخدمون الصابون؟»

«لأنها مادة جيدة بما يكفي. كما أن شغلها سهل، ورخيصة الثمن أيضاً».

«ولكنها تخرب بسرعة. كما تعلمون أني قتلت أحد تماثيلكم».

هز السيد روحان كتفه قائلاً: «الناس يموتون».

قلت: «أعتذر لأني دخلت منزلكم دون إذن. اضطررت إلى اللجوء إلى هناك حين كنت هارباً من متسكع».

أجرى حركة بيده وكأنه يقول إن ذلك شيء غير مهم. «أعتقد أنك لم تخبر أحداً بعد عن رؤيتك لها. وإلا كانوا قد أتوا منذ زمن».

هززت رأسي بكلا الاتجاهين بمعنى لا. «أساساً أنا لم أر أحداً هناك. اعتقدت أن الشخص الذي في القبو هو أنت. قد فهمت كل شيء مؤخراً؛ أي كل شيء تقريباً. على سبيل المثال، لا أعلم إن كنتم تعرفون شيئاً عن خطط السيدة نجلاء عند انتقالكم إلى القصر».

التفت السيد روحان، ونظر إلى وجهي بحيرة. كان قد تفاجأ. أبدى لطف إخفاء حيرته لأنه ربما اعتقد مثل يشيم أنه كان وجهاً لوجه مع قزم. «السيدة نجلاء مريضة جداً. كنت قد توقعت بعض الأشياء عندما قالت أن رغبتها الأخيرة هي العيش في ذلك البيت، ولكن لم نتكلم حول هذا بشكل واضح أبداً».

همهمت قائلاً: «وأنا أيضاً توقعت هكذا. يوجد شيء آخر أود سؤاله لك عن إذنكم. ماذا فعلتم بعد أن طردكم السيد حجابي؟»

«ذهبت إلى دوسلدورف»[1]. كان جواباً لم أتوقعه قط. «عملت مطولاً في فرن خبز لعمي المرحوم».

«وكنتم تصنعون التماثيل من العجين في أوقات فراغكم على ما أظن؟»

قال السيد روحان مبتسماً: «بالضبط. في يوم من الأيام جاء عمي عندما كنت في الفرن ألعب بالعجين. في الحقيقة كنت خائفاً أن يغضب مني لأني نزعت المواد. ولكن لم يغضب عمي مطلقاً، لا بل على العكس طار عقله أمام أعمالي. في تلك الليلة يخطر ببالنا فكرة الخبز التصويري الذي سيحول فرن خبز عمي المتواضع إلى أكبر فرن حلويات في دوسلدورف». نظرت إلى العم روحان لأعرف إن كان يضحك علي. كلا، كان صادقاً للغاية، ويستمر بالجدية نفسها. «لم يتزوج عمي ولم يكن لديه أبناء أبداً؛ مثلي تماماً. ولذلك عندما مات أصبح الفرن لي. فتحنا العام الفائت فرعنا الثالث؛ تجاوز الذين يعملون لدي الثلاثون عاملاً».

علي الاعتراف بأن كل استثمار أقوى من الحب وأقوى من الفن. اعتباراً من الغد كنت سأتقدم للعمل في فرن الخبز في الحي الذي لا أساس له. إن لم أتمكن كنت سأبدأ في حياتي المهنية لدى الأخ يعقوب. «ألم تجتمعوا مع السيدة نجلاء خلال هذه المدة؟»

هز السيد روحان رأسه بمعنى "لا". «تراسلنا طيلة عشرين سنة سراً. كنت قد أقنعت نفسي أن هذا سيدوم بهذا الشكل حتى نهاية حياتنا. ولكن تلقيت ذات يوم رسالة نجلاء تلك التي غيرت كل شيء. كانت تبشرني حب حياتي أنها أتت تلك اللحظة التي انتظرناها لسنوات، ولم يبق أي عائق أمام لقائنا. أتيت إلى

---

(١) دوسلدورف: هي عاصمة ولاية شمال الراين - وستفاليا في غرب ألمانيا وإحدى أكبر مدن البلاد. وهي ثاني أهم مركز اقتصادي وعالمي في ألمانيا، بعد فرانكفورت. تعد من أكثر المناطق كثافة بالسكان في أوروبا. [المترجم].

تركيا بسعادة معتقداً أن السيد حجابي قد مات. طبعاً فهمت بعد أن أتيت إلى هنا أن الأمور ليست كما كنت أعتقد. رغم ذلك كنت سعيداً معها. عشنا هنا وهناك طيلة ثلاث سنين كما شئنا».

لا أعلم لماذا سألت قائلاً: «فرن الخبز؟»

صحح السيد روحان قائلاً: «فرن الحلويات». ثم أضاف محدقاً إلى السماء باعتزاز: «نحن بتنا مؤسسة. لا أهمية للأفراد في الشركات التي تأخذ طابعاً مؤسساتياً». مع هذه الجملة المنحرفة، وجدنا أنفسنا عند باب حديقة القصر. وقف رودان المستثمر[1] عند المدخل ثم رمقني مرة أخرى من الأعلى إلى الأسفل. «وأنت... من أين عرفت ذلك؟»

هززت كتفي قائلاً: «استنتجت من كلام هذا وذاك. ولكن ما كنت لأحل هذه القضية دون مساعدة أحد أصدقائي».

«لم يبق الكثير من الوقت لدى السيدة نجلاء. رجائي منك أن تخبئ هذه الحقائق لبعض الوقت على الأقل. سأذهب بعد موت حبيبتي إلى الشرطة، وأعترف بكل شيء. أعدك بذلك».

قلت: «لا داعي لأن تقلقوا. لن أقول شيئاً لأحد».

«وماذا عن صديقك؟»

قلت ضاحكاً: «أوزتورك؟ لا داعي لأن تقلقوا حياله. فهو مات منذ عدة سنوات». وأضفت عندما رأيت السيد روحان ينظر إلى وجهي بقلق: «أي إنه يعيش في مخيلتي».

---

(١) رودان الانطباعي: فرانسوا أوجست رينيه رودان كان فناناً ونحاتاً فرنسياً مشهوراً. يعد أحد رواد فن النحت خلال القرن التاسع عشر. ولا يزال واحداً من عدد قليل من النحاتين المعترف بهم على نطاق واسع. وتُعد أعمال أوجست رودان الفرنسية أمثلة للأنواع الانطباعية في النحت. [المترجم].

لا أعرف ما اعتقد، ولكنه وضع يده على كتفي، ابتلع ريقه بصعوبة، ثم فتح باب الحديقة، وذهب إلى حبيبته التي تعانق الموت. أخذت طريق المنزل بعد أن غاب عن الأنظار. كنت قد تخليت عن أرتان المجنون. كان أملي الوحيد أن تسلّم السيدة نجلاء روحها بأقصى سرعة، وأن ينفذ السيد روحان الوعد الذي قطعه لي. كل ذلك كان سيكلف أرتان المجنون المزيد من أشهر إضافية من الإساءة وعدة جلسات من الصدمات الكهربائية. كنت خجلاً من نفسي. ولكن كنت أعرف أني لو وضحت كل شيء لمتين بلكين لما كنت سأرتاح. وسبب هذا لم يكن أسفي على السيدة نجلاء التي كانت على وشك الموت، ولا إعجابي بالسيد روحان الذي علمت أنه لا يمت بأي صلة بالحكمة التي كنت أراها تليق به. إن الشيء الذي جعل خصوصية لهذه الدرجة لهذين المسكينين هو الحب الذي عاشاه وأحيياه بعناد. يجب احترام هذا الحلم. أو إنه يعجبني التفكير بهذا الشكل، لست متأكد. المهم؛ أساساً ألم تكن الحياة في كل حالاتها عبارة عن حكاية تنتهي بنهاية سيئة؟

- ١٤ -

مسعود ومطابق

بالرغم من أن أمي كانت ترجح أن التراجع عن أمر النقل جرى من خلال عظمة ضمير أسياد السيد أردوغان، كان والدي يشعر بوجود "إنّ" في الموضوع. لذلك بعد أن شرب عدة أقداح من العرق أطلق نعرة قائلاً: «أردوغان دبر مزدوج،» وضمني بعيون دامعة. لو لم أعرف أنه شديد الكتمان لفكرت أن العم مطيع الله قد ثرثر حول الموضوع. لا أعرف؛ ولكن في النتيجة إن مدينة إسطنبول لن تنجو منا على الأقل لمدة إضافية من الزمن.

في هذه الحالة يجب عليّ البدء في العمل بسرعة كي أحتل مجدداً المكان الذي يناسبني في النظام التراتبي لدى الأولاد في الحي. بحسب الأنباء التي تلقيتها مؤخراً أن جيشنا تلقى هزيمة ثقيلة في المعركة الميدانية التي أجراها مع شارع داغ تشيليغي. كان يجب البدء فوراً في تقليم أغصان شجرة الضراط، سحق أغطية قوارير المشروبات الغازية، وغلي قدور القطران. في حين كنت أتجول في الحي كي أعيد تجميع وحداتنا المشتتة، التقيت الأخ كوراي الذي كان يجلس أمام بقالية البقال يعقوب يشرب مشروباً غازياً. «كيف الحال أخي كوراي؟»

«كيف سيكون؟ لا زلنا على قيد الحياة».

«وهل أخي أركين يعيش أيضاً؟» كان الأخ أركين قد أصغى إلى نصيحتي بخصوص أن يذهب ويسلم نفسه للمخفر فوراً، ويقول في إفادته إنه ذهب في عطلة في ثاني يوم حدوث الجريمة. كان قد نجا بأعجوبة عندما شهدت الأخت أليف والقوادة رمزية بأنهما كانتا تستضيفانه في منزلهما في ساعة حدوث الجريمة.

ولكن لم تتسنّ لي الفرصة لمقابلته بعد أن أطلق سراحه. كان لدي الفضول كي أعرف ماذا كان يعمل.

أطلق الأخ كوراي بصقة بعد أن قال: «لديه عقد نكاح الأسبوع القادم».

«مع الأخت أليف؟»

أكد الأخ كوراي ذلك برأسه. «تقدم للزواج هذا الأحمق عندما كان في السجن... ثم سيبدأ بالعمل في شركة شحن لعمه».

لم أصدق ما أسمعه. كان كل شيء يتطور كما كانت تخمن يشيم. إن هؤلاء النساء مخلوقات مخيفة فعلاً. «وكيف هو الحال بينكم وبين الأخت يشيم؟»

شرب الأخ كوراي رشفة كبيرة من مشروبه، وتنشق بأنفه. قال: «يشيم رحلت وتركتني».

قلت: «هذا هو الصواب. هربت إلى ذلك الوغد الثري أليس كذلك؟ ماذا كان اسمه؟ تذكرت، كايهان».

تجشأ الأخ كوراي قائلاً: «لا، لا... ولكنك اقتربت. هربت مع والد كايهان».

لم أتمالك نفسي من إطلاق القهقهات. ودعت الأخ كوراي ونهضت. تذكرت هاكان فجأةً. يجب أن أذهب وأكسب رضا صديقي الأخرق ذي القلب الذهبي. إن الإنسان بحاجة الإنسان في هذه الحياة، وكنت أشعر في مكان ما في أعماق قلبي أنه صديقي الوحيد. انظر، مجرد التفكير به بهذا الشكل جعلني أبتسم هكذا. تمطّيت نحو الشمس، ورحت أركض نحو منزل هاكان.

كانت الدنيا لا تزال تدور. بكل نذالتها.

صديقي العزيز:

كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ بدايةً أقبل أيدي أهلك ثم عينيك. كيف حال والدتك ووالدك؟ أهلي ليسوا بخير أبداً. قد قرّرا الانفصال. وليكن، فهناك كثير من الأولاد أهاليهم منفصلون. أفضل من أن أشب في عائلة متصارعة... ستبقى والدتي هنا مع الطفلة لأنها مازالت صغيرةً جداً. سأذهب أنا مع والدي إلى إزمير. سأدرس في المدرسة هناك. عند قراءتك لهذه الرسالة ربما سأكون قد رحلت. أتمنى أن أكون كذلك لأني لا أحب الوداع أبداً. شارك بعضنا بعضاً الكثير من الأشياء الحلوة والمرة. حتى لو لم نلتق مرة أخرى، أريدك أن تعرف أني سعيد جداً لأني أملك صديقاً رائعاً مثلك. حتى إن أمي قالت لي ذات مرة "لن ترافق ذلك الولد المجنون" رغم ذلك رافقتك. صديقك الذي يحبك...

هاكان ترياكي

ملاحظة: هزمت في المرة الماضية السافل فقير الدم هزيمة عجيبة في الدحاحل. كسبت جميع الدحاحل التي بيده، وبقي خمسة مديناً لي فيها. ليعطك إياهن أنت.



الفهرس

الصفحة

ألبير جانيكوز (١٩٦٩-٠٠٠٠)

- كاتب تركي.
- أُدرج اسمه في قائمة "الأفضل في الأدب العالمي" من خلال نشر روايته "العميل السري" من قبل دار بينوكي الألمانية للنشر.
- من أعماله المؤلفة:
  - ❖ "أحلام سعيدة" **(٢٠٠٠)**
  - ❖ "العميل السري" **(٢٠٠٨)**
  - ❖ "زهرة جهنم" **(٢٠١٣)**

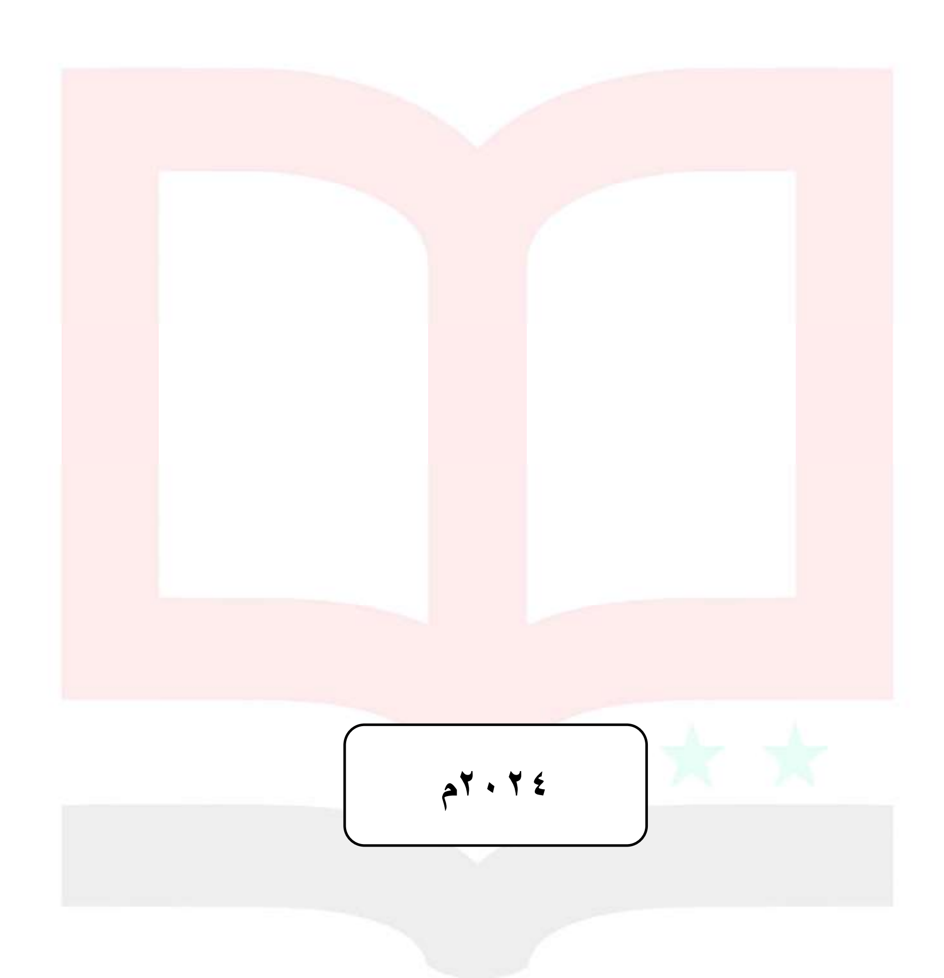
محمد سلطان

- مترجم سوري.

- متخصص في الترجمة السماعية ودبلجة المسلسلات التركية.

- **من أعماله المترجمة:**

  - الجزيرة الأخيرة، الهيئة العامة السورية للكتاب.



٢٠٢٤م

«سن الخامسة هو أكثر المراحل نضجاً لدى الإنسان؛ ثمّ يبدأ التعفن». بهذه العبارة يفتتح المؤلف روايته البوليسية التي يتكلم فيها عن الطفل -المشاكس- ألبير كامو ذو الخمسة أعوام المولع بالأدب والفن العالمي من جهة، والرافض للمنظومة الاجتماعية المجحفة بحق الطفل التي تجبره على رتابة حياة الطفولة من جهة أخرى. تسلط الرواية من خلال شخصية ألبير كامو الضوء على العالم الداخلي للطفولة، حيث تمكن الكاتب من تصويرها بأسلوب فكاهي وواقعي بنفس الوقت، مُتطرقاً إلى بعض الظواهر والأحداث الاجتماعية اليومية مظهراً الخلل والظلم والتقصير في المنظومات الإدارية والقانونية والاجتماعية، وملقياً اللوم على العلاقات الاجتماعية المشوهة.



www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٤ م